الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

République Algérienne Démocratique et Populaire

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

Ministère de l'Enseignement Supérieur et de la Recherche Scientifique

جامعة أم البواقي

Université Oum EL Bouaghi

كلية العلوم الاجتماعيـــة والإنســانيـة

قسم العلوم الإنسانية

نيابة قسم العلوم الإنسانية لما بعد التدرج

والبحث العلمي والعلاقات الخارجية

الرقم:...../ن ق ع إ د م ت ب ع ع خ/2024

أم البواقي في: 13 فيفري 2024

مستخرج من محضر اجتماع اللجنة العلمية للقسم المنعقدة يوم: 04فيفري2024

الموضوع: المصادقة على مطبوعة بيداغوجية

بناء على محضر اللجنة العمية لقسم العلوم الإنسانية والتقارير الإيجابية للأساتذة الخبراء الآتية أسماؤهم د. **بلقاسم قرباش** –جامعة أم البواقي– **د. فارس كعوان جامعة سطيف2** بخصوص المطبوعة الموسومة ب "**تاريخ الجزائر الحديث بين القرنين 16–19 م**"، والموجهة إلى طلبة السنة الثانية ليسانس تاريخ **للدكتور: توفيق بن زردة** ، فقد تم اعتماد المطبوعة.

رئيس(ة) اللجنة العلمية

رئيس اللجنة العلمية
لقسم العلوم الإنسانية
د. نايلي نفيسة

Scanné avec CamScanner

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة العربي بن مهيدي- أم البواقي

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية

قسم العلوم الإنسانية

مطبوعة بيداغوجية في مقياس :

تاريـــخ الجزائـــر الحديث

1518 -1830

موجهة لطلبة السنة ثانية ليسانس تاريخ

الدكتور/ توفيق بن زردة

السنة الجامعية 2023- 2024

مقدمـــة:

بقيت صلة المغرب الإسلامي بمشرقه تحكمها الروابط العقدية التي أسست لفضاء جيو-سياسي عرف بدار الإسلام التي تحولت إلى كتلة تاريخية تعايشت مع النموذج الخليفي بمدده السلطوي، الذي بات يحمي هذه الكتلة التاريخية بهويتها الإسلامية ويزودها بالحصانة التي ترعى التراب وتصون الرعية، مقابل ولاء "منبر" يحفظ للخليفة مقامه وهيبته بالدعاء له، وولاء مجبى يضمن حصانته المادية. لكن هذا الواقع المشرقي المفروض لم يمنع من بروز تجارب سياسية مغاربية ظهرت في شكل تجمعات أسرية بحكم هامشي محلي، تغذت من الولاءات القبلية وصانت وجودها بالضرائب والقوى العسكرية، كما انفتحت على المحيط الإقليمي سواء عبر بلاد السودان جنوبا، أو في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط شمالا، حيث تحولت هذه التجمعات الأسرية إلى تجارب رائدة عاشت لقرون على غرار المرابطين والموحدين ولاحقا الحفصيين في تونس والزيانيين في تلمسان.

لكن خلال القرن الخامس عشر وقعت تحولات نوعية أثرت على الخارطة الجيو-سياسية وما تبعها من علاقات دولية التي عاشت مرحلة عصيبة، عندما سقطت غرناطة في يد الإسبان كآخر معاقل المسلمين بالأندلس بعد تواجد دام أكثر من سبعة قرون، وما صاحب ذلك من هجمة شرسة طالت العنصر المسلم – وحتى اليهود- بعد اشهار الإسبان لمحاكم التفتيش التي تحولت إلى مجزرة بشرية فتكت بالإنسان الذي لا يدين بالمسيحية، وتجددت في هذه الظروف النزعة الصليبية التي اشتهرت خاصة خلال العصور الوسطى، حيث لم تخلوا هذه المرحلة من مد اسباني- برتغالي على السواحل الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط، وهو ما أثر بشكل ملفت على ملمح الخارطة السياسية التي كان يتقاسمها العالم الإسلامي والعالم المسيحي.

سنحاول في هذه المحاضرات المقدمة إلى مستوى السنة ثانية ليسانس تخصص تاريخ، تتبع التحولات النوعية التي شهدها المغرب الأوسط (الجزائر) خلال العصر الحديث الذي تزامن وحكم الدولة العثمانية التي استثمرت في المتغيرات العالمية لتجد لنفسها تموقعا في الحوض الغربي للمتوسط انطلاقا من الجزائر، وذلك بعد أن أسس الإخوة بربروس سنجقا عثمانيا، أثر في حركة الملاحة البحرية وصولا إلى عمق المحيط الأطلسي، كما كان يملك تصورا إداريا وسياسيا أثر بدوره على الحياة الاجتماعية والثقافية خلال ثلاثة قرون من التواجد العثماني في الجزائر (1519-1830).

محاضرة تمهيدية :

الدولة العثمانية في المشرق: النشـــــــــــأة والتوســـــــــــع

1.من إمارة الرعاة إلى سلطة مركزية على التخوم في الأناضول :

كان السلاجقة الذين نجحوا في تكوين دولة مستقلة في الأناضول يقومون بتوطين الجماعات التركمانية القادمة من دواخل آسيا واذربيجان وايران على طول الحدود البيزنطية، وعندما بدأت الدولة السلجوقية في التفكك، كانت العشائر التركمانية تعيش في شكل تكتلات ضخمة في **المراعي** التي تتوزع في الاناضول وأصبح القطاع الجبلي من البحر الأسود والمناطق الجبلية الممتدة من قسطموني (محافظة تركيةاليوم) إلى أنطاليا تعج بالتركمان، وكان يوجد بين هؤلاء العشائر المشايخ والدراويش الذين استطاعوا أن يحولوا تقاليد « الفتوة» إلى فكرة « الجهاد» وقامت مع الوقت امارات تركمانية بالأناضول أهمها «قرمان» و« كرميان» و« قارة سي» و«آيدين» «أرتنا» و« جاندر»...الخ وهي امارات عاش بعضها على الجهاد بالغارات البحرية، وفي النهاية بدأت تظهر إمارة صغيرة على قطعة أرض بين امارتي كرميان وجاندر، وذلك دون أن تلفت النظر وهي إمارة ابناء عثمان التي تعود لعشيرة «**قاي**» وزعيمها عثمان ابن ارطغرل، وارتبط ظهور عثمان على الساحة واكتسابه لوصف زعيم الجهاد بالعلاقة الروحية التي كانت تربطة بالشيخ « **أدة بالي**» والبشرى التي زفها له عندما فسر له واحدة من أحلام عثمان بأنه سيكون لسلالته شأن عظيم[1].

وأخد عثمان يعمل على توسيع المجال الترابي لإمارته وكان المساهمين في حملاته التي تدخل في **إطار الجهاد ضد دار الكفر** يحملون اسم « **عثمانلى**» وأخذت هذه التسمية تطلق شيئا فشيئا على سكان التخوم المحاذية للإمبراطورية البيزنطية، كما حاولت الامارة العثمانية اخضاع الامارات الأخرى لسلطتها حيث اعتبرتها معرقلة لجهادها فحمل العثمانيون شعار « الجهاد ضد من يعرقل الجهاد هو الجهاد الأكبر» وكان القضاء على إمارة قرمان عام 1387م في معركة « **فرنك يازيسى**» بالغ الأثر على الامارة العثمانية في اتجاه انتقالها إلى الدولة حيث أعلنت مجموعة من الإمارات الأخرى تبعيتها للعثمانيين خاصة بعدما شاع مبدأ العدالة عند امارة العثمانيين، وأخذ اضفاء النظام على التركيب الهش المتداخل لمنطقة الحدود يتشكل تدريجيا في ظل **امتزاج التقاليد التركمانية مع مفهوم الغزو والجهاد**_هذا وأخذت شهرة عثمان تبرز منذ ان دخل في مواجهات عسكرية ضد البيزنطيين وانتصاره عليهم عام 1302م[2].

2. الانتقال إلى منطقة الروملي: الفتح والاستيطان:

تولى أورخان ابن عثمان الحكم واستمر في عهده مسلسل إخضاع الامارات موازيا لحركة الجهاد ضد الامبراطورية البيزنطية، واستطاع أورخان دخول مدينة « بورصة» سنة 1326م وغدت هذه المدينة منذ ذلك الحين عاصمة للإمارة العثمانية، ثم دخل « إزنيق» 1331م و «إزميد» 1337م و منطقة « قوجة ايلى» مما ساعد على ظهور هدف

[1]- محمد فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، دار النفائس، ط6، 1988، ص، 138-141

[2]- علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية، عوامل النهوض وأسباب السقوط، دار التوزيع والنشر الإسلامية، بورسعيد، 2001، ص، 45-51

جديد أمام العثمانيين يتمثل في منطقة شبه جزيرة « غليبولي وتراقيا» كما سنحت الفرصة للعثمانيين من دخول الروملي حيث سعو جاهدين لوجود عسكري قوي بها خاصة وأنها منطقة كانت تتوفر على سبل للعيش أفضل بكثير من تلك المتوفرة في الأناضول، فكلما فتحت مدينة في الروملي كلما كانت الهجرة إليها بشكل مكثف من الأناضول، ولم تكن سبل العيش وحدها وراء الهجرة المكثفة بل أيضا الأسباب السياسية، فالحرب مع بيزنطة كانت أيضا حربا ديمغرافية، هذا ومكن الزواج السياسي التي تم بين أورخان وابنة « لكنتاكوزينوس» المطالب بأحقيته في عرش بيزنطة من دخول العثمانيين إلى غليبولي بعد زلزال 1354م وهي ذات مكانة اقتصادية رفيعة ، وقد عمد العثمانيون على تطبيق نظام الإقطاع العسكري (تيمارجي) على الأمراء المحليين وقصد تشجيع الهجرة أيضا[3].

فيما أبطلت حقوق الأمراء الاقطاعيين القدامى ، وأصبح مزارعوا البلقان مثل المزارعين العثمانيين، وبدأت تتشكل مناطق حدود جديدة في البلقان ، وكلما تقدمت الفتوح كلما نهضت المدن والقرى، وكان من نتيجة ذلك أن أصبحت تراقيا ومقدونيا والقطاع الشمالي الغربي من الروملي مسرحا لعملية الاستيطان التركية، كما فضل أهالي البوسنة الانصياع للسلطة التركية نكاية في الأمراء الاقطاعيين، ونتيجة لحركة الاستيطان أخذت بلاد الأرناؤوط (ألبانيا) صبغة اسلامية، كما نقل العثمانيون بعدها عاصمتهم إلى أدرنة عام 1365م، وقد نجح السلطان مراد الأول بجهوده التي بذلها في الأناضول والبلقان بوجه خاص في تحويل الامارة العثمانية إلى دولة، أما في عهد بايزيد الأول(الصاعقة) (يلدرم) الذي تولى العرش عقب معركة قوصوه 1389م، اتبع سياسة جديدة في مجال تدبير المجالات المفتوحة، وإذ كان مراد الأول اعتمد سياسة الاقطاعات العسكرية فإن با يزيد سعى إلى تحويل الأراضي إلى ملكية عثمانية، حيث عندما توفي مراد الأول اندلعت انتفاضات في الأناضول والروملي وتمرد أمراء الاقطاع قرر بايزيد سلبهم هذه الأراضي ، كما قرر تسجيل الأراضي والعقارات ووضع نظام ضريبي[4].

3.صعود ثم تدحرج أو ظهور أول دولة مركزية ثم انهيارها:

لقد نجح السلطان مراد الأول بجهوده التي بذلها في الأناضول والبلقان، بوجه خاص في تحويل الامارة العثمانية إلى دولة، بسلطة مركزية وسعى بعده بايزيد إلى تعزيز نفوذه في الأناضول، وبالرغم من التقدير المملوكي لبايزيد حيث نعت من قبل المماليك بـ « سلطان المجاهدين» إلا أن ذلك لم يثنه عن منازعتهم على المجال الشرقي للأناضول(ألبستان، ملاطية)، وهذا الوجود لم يكن يزعج المماليك فحسب بل انزعج منه تيمورلنك الذي يعتبر نفسه وريث الدولة السلجوقية، ولم يكن ينظر للعثمانيين سوى أمراء حدود، يجب أن يرضخوا لطاعته، وكانت جهود بايزيد نحو زعزعة التوازن في الأناضول والعمل على وحدته تعني ضربة قوية لتيمورلنك وفي 28 جويلية 1402م تحرك تيمورلنك بجيش كبير وهزم العثمانيين هزيمة فادحة في وادي « جوبوق» ، وانجرى عنها انهيار دولة العثمانيين

[3]- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص، 52-57.

[4]- محمد فريد بك، المرجع السابق، ص، 131، 132.

المركزية، وعادت الامارات تسيطر من جديد على المجال الأناضولي والأكثر من ذلك تحول العثمانيون إلى مجرد إمارة تدين بالولاء لتيمورلنك.وكان با يزيد قد أسر في المعركة ومات ثمانية أشهر بعد ذلك[5].

4. استجماع القوة من جديد:

استطاع العثمانيون بعد ضربة تيمورلنك أن يقفوا على قدم ثابتة في منطقة الروملي التي نجحوا في الحفاظ على وحدتها عن طريق أمراء الحدود، الأقوياء واستكمال استيطانها بشكل قوي حتة تمكنوا من استعادة قوتهم بفضل الطاقة البشرية والموارد المادية.وفي البداية اعترف أبناء بايزيد بسيادة أخيهم الأكبر سليمان لكن سرعان ما دب الصراع بين الاخوة حول العرش (بين سليمان وأخويه موسى ومحمد جلبي) ، وقد استمر الصراع زهاء عشر سنوات من 1403 إلى 1413م اصطلح على تسميتها بـ « عهد الفترة»، وقد نجح محمد جلبي في ازاحة اخوته وانهاء الحرب الداخلية، كما حاول أن يتبع سياسة اللين إزاء الأمراء في الأناضول والروملي والأسر المحلية والبيزنطية والبنادقة أصحاب المصالح التجارية في الأناضول، وفرسان رودس والجنوين لكي يتمكن من توحيد الأناضول، وكلها سياسة تدخل في مبدأ « استجماع القوى»، وبعد انقضاء حكم محمد جلبي الذي كان قصيرا واصل ابنه مراد الثاني على نفس السياسة التي قامت على تفادي الارتباط القوي بالمفهوم الاسلامي العالمي ونظام الدولة المركزية وكان جل عنايته أن يقيم توازنا بين أصحاب الاقطاعات وعشائر التركمان الرحل لكن سرعان ما تخلى الأخير عن العرش لصالح ابنه محمد الثاني عام 1444م[6].

5. من الدولة إلى الامبراطورية:

عاد محمد الثاني منذ 1451م إلى سياسة الفتوحات والنظام المركزي، وكان يرى أن العائق أمام تحقيق سياسته العالمية هو الدولة البيزنطية التي كانت تعمل على تعطيل وحدة الأراضي العثمانية، وكان من الضرورة لديه فتح القسطنطينية، التي ستسمح له كذلك بتبوؤ مكانة عالمية، ولما رفضت المدينة التسليم حل أمر استباحتها ثلاثة أيام2، حيث سقطت في النهاية بتاريخ 29 ماي 1453م، ورفع محمد الفاتح بعدها راية الجهاد واستحكم العثمانيون سيطرتهم على الروملي وجزيرة المورة، وتسنى لمحمد الفاتح أن يوسع من أراضي الدولة العثمانية من مساحة حوالي 900 ألف كم^2 إلى حوالي 02 مليون كلم^2. وأصبحت العاصمة هي اسطنبول القسطنطينية سابقا.

هذا وبعد وفاة محمد الفاتح عام 1481 تولى ابنه بايزيد السلطة التي زاحمه فيها أخاه جم، وتميز عهد بايزيد بحدثين بارزين هما طرد المسلمين من الأندلس بعد سقوط غرناطة (1492)،ورفعهم لسياسة « استعادة الأرض» Reconquista والثاني هو ظهور دولة جديدة في الشرق (الصفوية) شكلت تهديدا للوجود العثماني في الأناضول، ففي عام 1503م

[5]- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص، 68، 96.

[6]- يوسف آصاف، تاريخ سلاطين آل عثمان، تحقيق بسام الجابي، دار البصائر، ط3، 1975، ص، 48-52

أقام الشاه اسماعيل الصفوي دولة على أكتاف العشائر التركمانية في الأناضول بوجه خاص وهي دولة دينية «شيعية»[7].

6. من موقعة جاليدران إلى القاهرة:

بعد ظهور الصفويين عمد العثمانيون إلى جعل **المذهب السني سياسة تعتمدها الدولة** في أوائل القرن الـ 16م، خاصة لما وجدت الدعاية الصفوية لها صدى بين العشائر التركمانية، التي طانت متذمرة من التدابير الادارية والمالية التي جرى عليها الحكم المركزي العثماني، وكان الشاه اسماعيل يتحرك بحرية في الأناضول على عهد بايزيد ويرسل عملاؤه الذين عرفوا بـ « **الخلفاء**» وهيأ السبيل لظهور فتنة لا سيما العصيان الذي تزعمه دعي يدعى « **شاه قولي بابا تكه لي**» وكاد يجعل الأناضول نارا مشتعلة، ولما تولى سليم ابن بايزيد السلطة سنة 1512م وضع نصب عينه مشروعين الأول هو وضع حد للتحرشات الصفوية بالأناضول، والثاني هو القضاء على المماليك في مصر والشام، بالنظر إلى مواقف هؤلاء الداعمة للصفويين، وتحركت جيوش سليم الأول ضد الصفويين وكانوا يعلنون للناس أنهم خارجون لجهاد « **الملاحدة والزنادقة**» وقام سليم الأول قبل ذلك باستصدار فتوى من شيخ الاسلام « **صاري كورز**» لتكفير الشاه باعتباره يشكل عرقلة للجهاد .وتسنى للعثمانيين الانتصار على الصفويين في معركة « **جالديران**» سنة 1514م، وكانت هذه المعركة بداية لمعارك استمرت إلى نهاية القرن الثامن عشر كما تسنى للعثمانيين السيطرة على ديار بكر[8].

وفي السنة الموالية للحرب مع الصفويين كان على العثمانيين مواجهة قوة كبيرة هذه المرة وهي قوة المماليك الذين كانوا يحكمون مصر والشام والحجاز منذ أكثر من قرنيين ونصف، وإذا كان من السهل على العثمانيين تبرير الحرب على الصفويين باعتبارهم زنادقة، فإنه كان من الصعب تبريرها على المماليك **السنة** وكان الأمر يقتضي **الحجة** (**حقيقتها أسباب سياسية و اقتصادية**)، وسرعان ما وجد سليم الحجة في حماية الحرمين الشريفين والأماكن المقدسة، فخلال هذه المرحلة كانت الضغوط البرتغالية في البحر الأحمر قد استفحلت **حركة الكشوفات الجغرافية** ونجح البرتغاليون في النفاذ إلى خليج البصرة والبحر الأحمر وباتوا على مشارف بر الأماكن المقدسة، توجهت الحملة العثمانية أولا إلى حلب ومنها إلى مرج دابق حيث جرت وقائع المعركة بين الطرفين في 16 أوت 1516م مات فيها السلطان المملوكي الغوري، وبعد هذه المعركة مباشرة أصبح سليم الأول يحمل لقب « **خادم الحرمين**

[7]- يلماز أوزنتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة عدنان محمود سلمان، و محمود الأنصاري، مجلد 1، مؤسسة فيصل للتمويل، اسطنبول، 1988، ص، 212،210.

[8]- محمد علي الصلابي، المرجع السابق، ص، 177-192.

الشريفين» وبعد مقاومة عنيفة تمكن العثمانيون من السيطرة على دمشق والقدس ثم دخلوا القاهرة بعد معركة « الريدانية» في 22 جانفي 1517م ومعها انتهى العهد المملوكي[9].

7. التحول إلى دولـــة عالميـــة:

بعد أن كشف العثمانيون عن قدرتهم في الشرق شرعوا في استئناف حركة الجهاد ضد أوربا من جديد، وعلى ذلك يبدأ عهدهم بالاضطلاع بدور فعال في الجانب الديبلوماسي إلى جانب نجاحاتهم العسكرية خاصة بعد سيطرتهم على بلغراد 1521م وجزيرة رودس 1522م،حيث مكن السيطرة على هذه الجزيرة العثمانيين من السيطرة على الطريق التجاري الرابط بين اسطنبول ومصر كما جعل البحر المتوسط الشرقي بحيرة عثمانية، وأيضا حصارهم لفيينا عام 1529م، كما لم يجد امبراطور الهابسبورغ بدا من الاعتراف بالسيادة العثمانية على أوربا الوسطة والقبول بأداء الجزية على الأراضي المجرية التي كانت تحت سيادته، وذلك بموجب المعاهدة اتي وقعت سنة 1547م، وهذه السياسة جعلت من الدولة العثمانية إحدى ثلاث دول عالمية في أوروبا (آل هابسبورغ، قيصرية موسكو، الامبراطورية العثمانية)، هذا وتسن للعثمانيين السيطرة على طريق الحرير بعد سقوط بغداد في أيديهم عام 1534م[10].

كما لم يقتنع العثمانيون فقط بتحويل شرق المتوسط إلى مجال عثماني بل سعوا إلى احتواء البحر المتوسط شرقه وغربه وكانت الشرارة الأولى عندما وصلت حملة اسبانية على ميناء قورون 1532 وكانت هذه الحملة تستهدف تخفيف الضغط الناجم عن الحملات العثمانية على بلاد اليونان, وهو ما أجبر السلطان سليمان القانوني على التفكير في مواجهة شارلكان من خلال تفعيل حركة الجهاد في شمال افريقيا التي مكنته من السيطرة على بنزرت عام 1534م، وهو ما عدل من ميزان القوى في البحر المتوسط، وقد كان رد فعل الاسبان قويا حيث حاول شارلكان التعتيم على ما حققه العثمانيون في شمال افريقيا بتوجيه حملة على الجزائر سنة 1541م لعبت في كسر شوكتها ظروف مناخية بعد طول حصار وكانت هذه الهزيمة مكلفة للإسبان ولشارلكان الذي قاد الحملة، حيث خلف وراءه 12000 مقاتل و150 سفينة كما أثرت على سمعة اسبانيا, كما أخذت الأساطيل العثمانية تشق طريقها نحو المحيط الهندي، خاصة بعد سيطرة البرتغاليين على طريق التوابل، وعطلوا تجارة البحر المتوسط، كما هددوا أمن الحرمين الشريفين[11].

---

[9]- محمد علي الصلابي، المرجع نفسه.

[10] –حول هذه المراحل من تاريخ الدولة العثمانية يرجى الرجوع إلى :

محمد فريد بك ، المرجع السابق.

عبد العزيز الشناوي، الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، مكتبة الأنجلو المصرية، مطابع جامعة القاهرة، 1980

[11]– سيأتي الحدث على حملة شرلكان ضد الجزائر سنة 1541، في المحاضرات القادمة

وكانت لنداءات الهند المسلمة التي تضررت مصالحها التجارية، دور في قيام العثمانيين بحملات مثل على الهند بقيادة سليمان باشا والتي رغم فشلها إلا أن العثمانيين تمكنوا من ازعاج البرتغاليين والحد من نفوذهم، خاصة بعد سيطرتهم على اليمن وعلى رأسها عدن التي أقاموا بها « بكلربكية» والمناطق الشمالية الغربية من الحبشة التي أقيمت بها أيضا « بكلربكية» وبعد سيطرة العثمانيين على النقاط المهمة في البحر الأحمر وخاصة خليج البصرة منذ عام 1540م كلها عوامل مكنت العثمانيين من إعادة النشاط التجاري للبحر المتوسط وازدهرت موانئ سوريا ومصر[12].

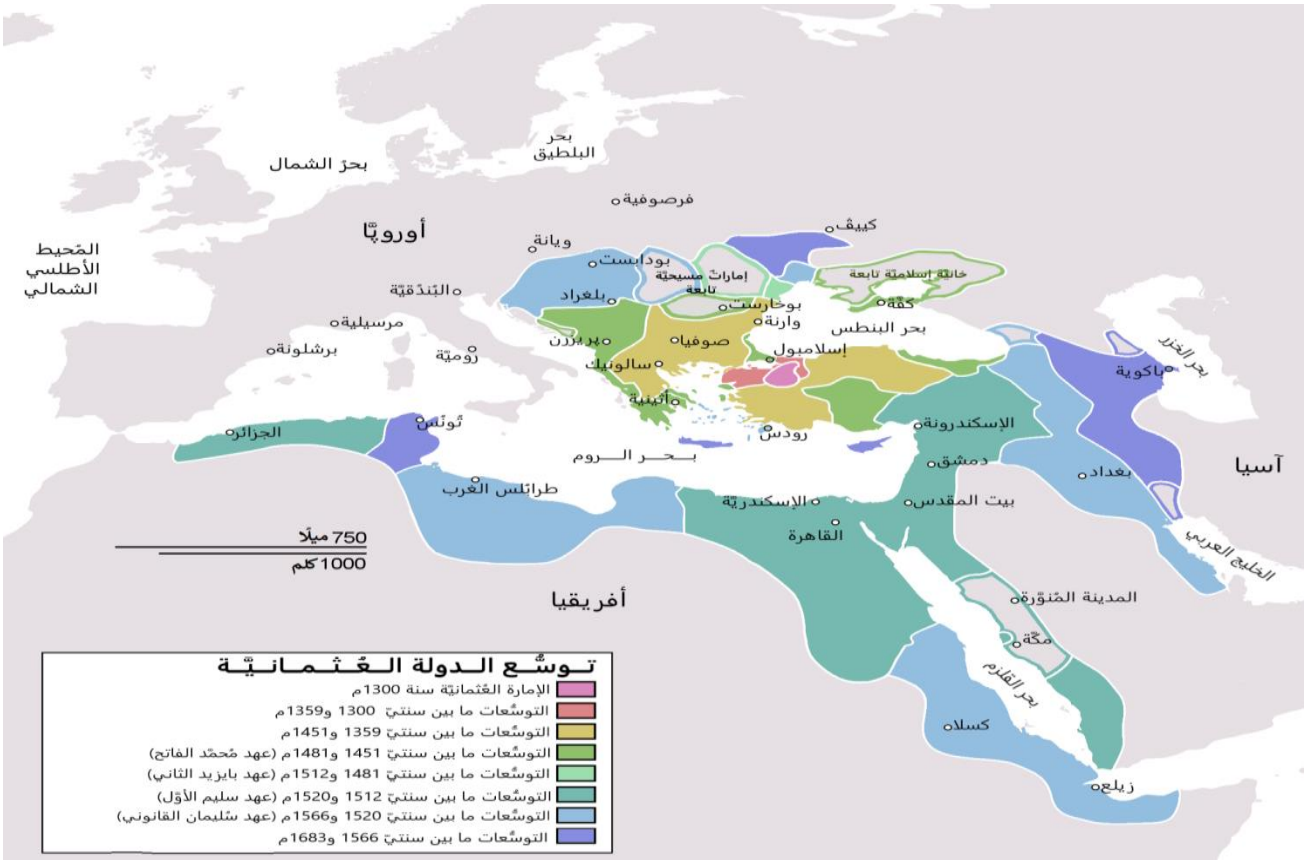

المصدر: https://www.bing.com/images/search?view=detailV2&ccid

[12]- ممد علي الصلابي، المرجع السابق، ص، 191، 192

المحور الأول:

الغزو الإيبيري للبلدان المغاربية

المحاضرة الأولى:

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وتاريخية الأنظمة السياسية

المحاضرة الثانية

أوروبا بين الانقلاب الحضاري وأوجه الغزو لبلاد المغرب

المحاضرة الأولى

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وتاريخية الأنظمة السياسية

1.أسلمة البحر المتوسط:

استطاع الاسلام الجيو- مجالي أن ينطلق من بئر معطلة في حيز القفار (غزوة بدر) ليصل إلى معركة ذات الصواري في عمق البحار، كمؤشر على رؤى تدرجت في ظرف وجيز من حيز الترابيات إلى نطاق المائيات ومن رقعة اليابسة إلى فضاء البحار، فاجتمع المتصور بين جمل وصحراء وسفينة وماء، مؤسسا لمرحلة الحسم التوسعي الذي تكفله الدولة البحرية[13].

لقد لاحت هذه الملامح عندما كتب عمر بن الخطاب إلى عمرو بن العاص قائلا " صف إلي البحر فإن نفسي تنازعني إليه" فكتب إليه عمرو " إني رأيت خلقا كبيرا يركبه خلق صغير، إن ركن خرق القلوب وإن تحرك أزاغ العقول، يزداد فيه اليقين قلة والشك كثرة هم فيه كدود على عود إن مال غرق وإن نجا برق". فلما كان زمن الخليفة عثمان بن عفان باتت اليقينيات البحرية أكثر تشكلا على أرض الواقع، انطلقت مع تجربة " برية البحر" عندما ربط المسلون المراكب ببعضها البعض كتوليفة برية تعضدهم لخوض أول معركة بحرية، فكانت موقعة ذات الصواري (655م) التي انتصر فيها المسلمون ضد البيزنطيين ايذانا بتفكيك طوبونيميا بحر الروم التي لبس عباءتها البحر المتوسط لقرون[14].

لقد حرك هذا البحر باعتداله المناخي ووسطيته العالمية الذات التوسعية، التي باتت تبحث عن أسلمته وتفكيك لاتينيته، لذلك عمد بنو أمية إلى الدفع بالبيزنطيين ابتداء من القرن الثامن إلى اشهار نظام الدفاع المتقدم، الذي أصبحت فيه الفضاءات القريبة من البحر تحت سلطة الأمراء الذين يقودون الأساطيل لحماية ثغور القسطنطينية من تنفذ المسلمين الذين توارثوا رؤى الماء في حفظ اليابسة، لذلك بعد أفول بريق الأمويين وانطواء ورثتهم العباسيين على المقاربات الآسيوية[15]، انخرطت المجتمعات المغاربية في شق البحر، فاعتنى الأغالبة بفتح صقلية وأهل الأندلس بفتح جزيرة كريت، أما اختيار الفاطميين للمهدية (تونس) كعاصمة بحرية فكان إيذانا بميلاد عهد الساحل المغاربي المتصور. هذا الساحل الذي باتت فيه جزر المتوسط على غرار، مالطا ، صقلية، كورسيكا، سردينيا، البليار، نقاط ارتكاز لصون المد الخليفي (نسبة للخليفة) وشريط عزل لأوروبا العصور الوسطى التي أصبحت تعيش حالة انقفال أثرت على بنى المجتمع الذي بات يستهلك في الكنيسيات ويتعاطى الزراعة الضيعية المغلقة.

---

[13]- محمد بك الخضري، الدولة الأموية، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، 1997، ص، 264.

[14]- المرجع نفسه، ص، 349

[15]- حول تاريخ الدولة العباسية يرجى الرجوع إلى : محمد بك الخضري، الدولة العباسية، مكتبة دار المعرفة، 1998.

2.تقاليد الأرض والسلطة عند المجموعة الاسلامية في بلاد المغرب :

لقد كان فتح بلاد المغرب هو النهاية المنطقية لفتح مصر، فشهدت معركة سبيطلة (28 ه) انسحاق البيزنطيين وجموع البربر المساندين لهم، وتوجب على القادة البيزنطيين تقديم ما قيمته 300 قنطار ذهب، لقد فتحت هذه الغارة بذرة التوسع الطويل الذي سيتجدد بعد التخلي عشرين سنة بسبب أزمة الخلافة، حيث قاد معاوية بن حديج الجيش سنة 45ه/ 666م باتجاه البلاد المغاربية ببطئ وتردد، وبخاصية استراتيجية بعيدة عن البعد الاستيطاني، لكن مع عقبة بن نافع سنة 50 ه، الذي ظهر كقائد طموح ومستوعبا لخاصية الفتح الحقيقي الذي يقتضي الاقامة في مدينة – معسكر، لذلك تأسست القيروان كتطلع للشمال البحري والجنوب التمري ، مع إدارة الظهر للتقاليد الرومانية المسيحية التي ترمز إليها قرطاج، إلى جانب اشهار ارادة الاستقرار النهائي للعرب في بلاد المغرب، أما أبي المهاجر دينار (55- 62ه) من بعده فجنح إلى سياسة لبقة قادته إلى عمق المغرب الأوسط، وعندما سمي عقبة بن نافع من جديد (62- 63ه) سيعمد إلى تنفيذ مشروعه 2الكبير لاختراق المغربين الأوسط والأقصى، وفي هذا الوقت اندلعت مقاومة بربرية بطابع حيوي بتعاون في غالب الأحيان مع السيد البيزنطي، خاصة بعد أن لامست هذه التوسعات المجالات القبلية البربرية، التي عبرت عن سخطها، ومع ذلك استطاع عقبة2 بن نافع أن يصل إلى طنجة التي التقى ببطريقها يوليان، ثم من هنا نزل إلى السوس الأقصى، و كان المحيط الأطلسي وحده الذي كبح جماحه، ليعود إلى افريقية بعد انتصار بسيكولوجي، لكنه استشهد في تهودا بالقرب من بسكرة سنة 63 ه/ 683م، بسبب التبعية المذلة التي فرضها على كسيلة، وهو السيد في قومه[16].

لكن بعد سنة 73 ه تاريخ القضاء على الحركة الزبيرية، توحد الاسلام ثانية تحت لواء المروانيين، فأصبح قادرا على تحمل التوسع، وعزم عبد الملك بن مروان في حدود 75 ه حل مشكلة البلاد المغاربية نهائيا وعلى تقديم ما يلزم عسكريا في هذا الشأن، لهذا كلف حسان بن النعمان الذي عبأ معه 40 ألف رجل مكونا بذلك أعظم جيش دخل إلى البلاد المغاربية، حيث هجم على قرطاج عاصمة ولاية افريقية البيزنطية، ليتحول هذا العمل إلى ضربة قاسية ضد الحضور البيزنطي، في هذه الظروف تجسد آمال البربر لصد هذا التوسع في امرأة هي دهية بنت طابيتا بن تيفان من قبيلة جراوة (البتر) التي كانت مقطوعة عن المساعدة البيزنطية، حيث ستشهر نفسها كقائد أعلى لحركة المقاومة الثانية والأخيرة، من خلال خصالها التنبئية وكفاءتها، حيث نجحت في تجميع تكتلات أخرى حولها، لتشكل قوة حسم بنقاء بربري، حقق انتصارات على جيش حسان بن النعمان الذي تراجع إلى برقة التي بقي فيها ثلاث سنوات (77- 80ه / 696- 699م) كانت قد انفلتت فيها بلاد المغرب منه[17].

---

[16]- حول الفتح العربي لبلاد المغرب وجدلية السلطة يرجى الرجوع إلى :

عبد العزيز غرودي، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب جدلية التمدن والسلطة، دار المعرفة، بيروت ، د.ت

[17]- حول تاريخ هذه الشخصية القيادية يرجى الرجوع إلى :

عاد حسان بن النعمان مرة أخرى سنة 80 هـ، فدخل قابس وقفصة وقسطيلية دون مقاومة تذكر، ثم صعد في اتجاه الشمال ليحاصر قرطاج (699م) التي سقطت مرة أخرى، لتبدأ مرحلة تحيين بلاد المغرب وربط مصيرها بالشرق الإسلامي. طبعا بعد الانتهاء من الهيمنة البيزنطية بقي القضاء على حركة الكاهنة التي انتصر عليها حسان سنة 81 هـ / 700 م وأسرع أغلب الجيش لطلب الأمان منه، فأعطاه لهم شرط أن توفر لهم قبائل البربر عددا معينا من الرهائن ليؤلف بهم جيشين صاعدين يعد كل منهما 6000 رجل أعطى قيادتهما لابني الكاهنة، وهكذا احتمى من عنف البربر باستخدامه[18]. ومن هنا حسب هشام جعيط استعيدت عادة قديمة تتمثل في جعل الفرسان النوميديين مساعدين قيمين للحكام الذين تتالوا على افريقية : قرطاجيين، وروما والآن العرب. بمرورهم بعنف من الثورة إلى التحالف، اتضح أن البربر النوميديين كانوا عسكريا الأكثر ديناميكية في اثنيتهم ليساهموا في التوسع في باقي بلاد المغرب وشبه الجزيرة الإيبيرية[19] .

لقد بقيت الضبابية الإدارية تكتنف بلاد المغرب وما لازمها من ضعف في المراقبة، رغم تأسيس معسكر القيروان كمظهر من مظاهر التصرف باستقلال الذي أصبح فيه عقبة واليا وافريقية عملا (ولاية) أو مقاطعة تابعة للفسطاط بمصر التي كانت محمولة على توفير المال والجند في مرحلة التوسع لذلك لم تنتفي هذه العلاقة، أما حسان بن النعمان وعند عودته إلى المشرق في 83 هـ قدم قدرا من الهدايا لوالي مصر، لكن هذا الأخير استولى على جملة العبيد والخيول. وتذكر بعض الروايات أن حسان بن النعمان اخفى الذهب والحجارة الكريمة المرصودة للخليفة في جرار الماء للكشف عنها أمام أمير المؤمنين[20] . بذلك أكد أمير مصر حقوقه على حقوقه في غنائم بلاد المغرب، غير أن هذه الحادثة تبرز في ذات الوقت كيف بدأ الاحتجاج على هذه الحقوق وكيف صار والي بلاد المغرب يتوجه أكثر فأكثر نحو مركز الخلافة بدمشق، لتتطور الأمور في هذا المنحى منذ 86 هـ / 705 م، إلى 184 هـ/ 800 م حيث بدأت بلاد المغرب تتنظم شؤونها وتتمتع بهياكل إدارية، ثم أتت مرحلة إقامة سلطة محلية حقيقية مرتبطة مباشرة بالخلافة . وفي مناسبات عديدة قام الخلفاء الأمويون ومن بعدهم العباسيون بنقل حكام من مصر إلى افريقية، ففي سنة 102 هـ تم تسمية بشر بن صفوان والي مصر على رأس افريقية. كما تداول على حكمها شخصيات ذات وزن مشرقي على غرار يزيد بن أبي مسلم الذي أدار في العراق ديوان الرسائل، و عمر بن حفص المهلبي الملقب بالهرمزان الذي أدار الكثير من المقاطعات في الشرق[21] ، لتتضخم الجغرافيا مع الوقت مشكلة ولاية كبرى تمتد من

Laurence Le Guen, *Kahina reine des Berbères*, https://www.fnac.com/a6564948/Laurence-Le-Guen-Kahina-reine-des-berberes

[18]- هشام جعيط، تأسيس الغرب الإسلامي، القرن الأول والثاني هجري، دار الطليعة للطباعة والنشر، ط1، بيروت، 2004، ص، 33- 34.

[19]– هشام جعيط، المرجع نفسه، ص، 34 .

[20]– هشام جعيط، المرجع نفسه، ص، 44

[21]– هشام جعيط، المرجع نفسه، ص، 50

جبال البيرينيه إلى تخوم البلاد الطرابلسية، غير أن هذا البناء الضخم لم يدم أكثر من ثلث قرن من 94 إلى 122 هـ وهو تاريخ اندلاع أكبر ثورة للخوارج التي ستؤدي إلى قيام امارات مستقلة[22].

تكونت مملكة برغواطة سنة 127 هـ/ 741 م وبعدها بسنتين انفصلت إمارة الأندلس التابعة ليوسف الفهري عن القيروان، وتأكد استقلالها الكامل سنة 137 هـ مع وصول الأموي عبد الرحمان الداخل، وعرف المغرب الأوسط تأسيس مدينة وإمارة سجلماسة في 140 هـ، وبعد عشرين سنة من هذا التاريخ تأسست مملكة تاهرت (161 هـ)، وأخيرا ظهرت المملكة الإدريسية في 172 هـ وبذلك تمزق المغرب بصفة تدريجية، غير أن العامل الأولي الخوارجي لم يكن هو الوحيد، إنما ساهم في الأزمة العامة الكبرى التي ضربت أسس الدولة الأموية. ففي 184 عندما انتصب الأمير الأغلبي على العرش كان عليه أن يكتفي بإفريقية مماثلة لإفريقية البيزنطية (البلاد الطرابلسية، تونس ونوميديا) بمعنى الجناح الشرقي للمقاطعة القديمة[23].

في الواقع لم تكن هناك خصوصية محلية فوالي القيروان هو تقريبا مطابق في صلاحياته ومهامه لوالي المدينة أو الكوفة تتم تسمية الوالي بواسطة "عهد الخليفة" المدون على سجل أو دفتر معترف به فيقدمه المعني بالأمر عند وصوله إلى القيروان إذا أقبل من الشرق وبمجر إلقاء نظرة على السجل يحي بلقب " أمير"، وهو في الأصل قائد الجيش يتنقل في موكب ويقف الحضور عند دخوله، في المقابل يستقبل الوفود وهو جالس على سرير، وهو دائما محاط بالحرس الشخصي، ويمارس مهامه من قصر الإمارة، تتصدر المسؤولية العسكرية مهامه، حيث يفوض في هذا الميدان بالذات سلطاته لقواد ينتدبهم من الأرستقراطية المحلية من الأمويين أو من القادمين من الجند في الفترة العباسية، لكنه يبقى هو القائد الفعلي لمجموعات الجند ويشرف عل العمليات العسكرية الكبرى [24] التي تبسط سلطانه الذي يثبت من خلال تنصيب حاميات عسكرية على غرار ما ظهر في باغاي، وباجة وقابس.

مقابل اعتباره قائدا للقطاع العسكري فهو أيضا مشبع بالدلالات الدينية باعتباره القائد الروحي للمجموعة الاسلامية في افريقية" كما تدخل في تركيبته الوظيفة القانونية التي يتنازل عن معضها للقضاة، فيما يتكفل هو بالقضايا القمعية والاجرامية وتكون له كلمة الفصل في شؤون القتل والإعدام، وبحكم وحدة سلطة الحكومة فهو أيضا رئيس الإدارة فيعين في الوظائف العمومية ويراقب المكاتب والدواوين وله اليد العليا على كل ما يتصل بنظام الجباية وضبط قيمة الضريبة، جمعها وتحويلها إلى السلطة المركزية فبلغت قيمتها 13 مليون درهم، استخلص أغلبها وفق الوضعية القانونية لأحفاد البيزنطيين أوالروم وعلى الأفارقة سواء كانوا مزارعين أو حضريين مترومنين،

[22]- المرجع نفسه، ص، 57.

[23]- المرجع نفسه، ص، 58

[24]- المرجع نفسه، ص، 61

وكذلك على قبائل البربر اذين حافظو على العقيدة المسيحية، فأجبر كل هؤلاء على دفع الجزية على الرؤوس والخراج على الأراضي، كما كان للوالي الحق في ضرب عملة الدينار والنصف دينار[25].

في نفس الوقت يتمتع بقدر أقل من الحرية في علاقته مع السلطة المركزية خاصة خلال المرحلة الأموية، لذلك ووفق مبدأ المحاسبة تعرض الكثير من الولاة إلى الإقالة وحتى التعذيب من قبل من خلفوهم، لذلك لم يترددوا في افريقية كما هو في المشرق في استخدام أساليب التعذيب لاسترجاع الأموال، فعندما استدعي سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير إلى المشرق اتهمه باختلاس 300 ألف دينار وأمر بتعذيبه إلى أن مات مهانا، ويختلط مع عمليات استعادة النفوذ الحقد الشخصي، فكثيرا ما يتعرض المقربين من الوالي القديم إلى الأذى[26].

إن أكثر ما يثير عند المجموعة الاسلامية في بلاد المغرب والأندلس هو نظام المكافأة، ففي الأندلس كان الجنود الغزاة يتقاسمون قسما كبيرا من الأراضي ويستقرون فيها، فإن العرب يحصلون على الأراضي المنبسطة والخصبة، فيما كان البربر يزاحون إلى الجبال الأقل ثروة[27] بينما كان نظام بلاد المغرب يختلف عنها تماما حيث لم تعرف تقسيما لأرضها وتبقى تقسيمات الفقهاء هي المتفق عليها: أرض عنو ، أرض صلح ، أراضي أسلم أهلها، وبالتالي لم تعرف بلاد المغرب التنازلات العقارية بالمعنى الواسع مقابل الخدمة العسكرية إلا مع المرابطين، مقابل ذلك كان يحصل "جند الأمير " القادمين من المشرق على العطايا والمؤن.

3. قاعدة لتكون الدول :

إن الحضور العربي اخترق أكثر بكثير من الحضور الروماني الأرض المغربية، وبالمعنى المؤسساتي كان المغرب كله والأندلس خاضعا لسلطة والي القيروان، فهذه المدينة الجديدة العربية المحضة باتت عاصمة مجال واسع، ومن هنا جاءت أهمية ولاية افريقية بالنسبة إلى الخليفة على الرغم من بعدها، وداخل هذا المجال الواسع كانت افريقية بجناحيها طرابلس والزاب قلب الحكم الاسلامي والحضور العربي، وهذا ما يفسر الانشطار وبروز سجلماسة وتاهرت والأدارسة والأمويين، وفي نفس الوقت بقيت افريقية وفية للخلافة حتى في دائرة استقلالها مع الأغالبة، كلها عوامل هيأت الظروف لتكون الدول في المستقبل لأنها كانت أرض السلطة دون منازع، أما في آخر العهد العباس صارت بلاد المغرب الفضاء المستوعب لإمارات متتالية تأرجحت بين التبعية والاستقلال المقيد، في الوقت الذي أصبح فيه المتوسط الغربي بحيرة إسلامية. طبعا في هذه الظروف كانت جموع المهاجرين العرب تتزايد لكن جاذبية إسبانيا المفتوحة كانت تغري الأغلبية وكان العالم البربري خاضعا للعرب ويمدهم بأسباب الفتح. ولم تطرح بعد في

---

[25]– هشام جعيط ، المرجع السابق، ص، 64، 65.

[26]- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971، 46.

[27]– ليفي بروفنسال، تاريخ اسبانيا الاسلامية، ج1، ص، 87.

المغرب المشاكل التي سيطرت على أذهان المشارقة في تلك الفترة – التشيع ومشكلة الخلافة، لأن المشرق يشكل دار الإسلام بينما المغرب هامشا[28].

لكن منذ أن تم ايقاف حركات الخوارج في الولايات المركزية الشرقية (العراق وفارس)، كانت هذه الحركات تبحث عن مواصلة البقاء في أطراف البلاد الإسلامية وانتشر العرب والموالي المشارقة بين قبائل البربر ونجحوا في غرس مبادئ الصفرية والإباضية ورغم اعتدالهما لكنهما قاما على الروح الثورية والفوضة الاجتماعية. بكل تأكيد ومن وجهة نظر السياسة كانت حركة الخوارج مؤهلة للإفصاح عن الكراهية والاحتجاجية للعالم البربري والطبقات الشعبية في المدن، وبالتالي فإن احتضانها كان يتماشى مع التكدر العام والعميق للمجتمع البربري والقبلي منه على وجه الخصوص[29].

فبعد أن أسلموا كان البربر يشتكوا من النظام الجبائي المفروض عليهم والذي كان قاسيا في بعض الأحيان واعتباطيا، ولذا أرسلوا وفدا للتشكي إلى هشام بن عبد الملك لم يحظ بالاستقبال، وهناك من البربر من كان يألم من انتفاء المساواة الفعلية في العطاء والجيش بصفة عامة في الحياة الاجتماعية، وهؤلاء بربر مسلمون يشاركون في الفتوحات، وبالتالي كان يوجد شعور عام بالمقت والازدراء فاستعادوا تقاليدهم القديمة في الانتفاضات احتجاجا على الظروف الرهيبة التي يعيشونها في وطنهم، بعد أن حصل عندهم شعور بالذات وبالخصوصية وتغذى بالبعد عن مركز الخلافة.

كان من الطبيعي أن تظهر إمارة سجلماسة الصفرية وهي أول إمارة خارجية مستقلة فوق أرض المغرب، وزيادة على كونها قلعة خارجية منتظمة، ستلعب سجلماسة دورا كبيرا كمحطة تجارية نحو افريقيا السوداء وأيضا كملجأ لعبيد الله المهدي الفاطمي، لكن تأسيس إمارة تاهرت الإباضية كان أعظم أثرا لامتداد دورها وفاعليتها عل جزء شاسع من بلاد المغرب، معها جاء التأسيس الحضاري والتخفيض من حدة الطموح المبني على الحماس البربري، أما بمجيئ إدريس الحسني العلوي إلى المغرب الأقصى في سنة 180 هـ ومبايعته من طرف البربر وهو الحدث الذي سيهيكل هذه الرقعة حول الأسرة الإدريسية وسيمنحها هوية وشخصية، ولم تكن هذه الدولة حسب هشام جعيط دولة شيعية بالمعنى المذهبي وإنما دولة مبنية على كارزما آل البيت[30].

---

[28] - حول موضوع المركز والهامش يرجى الرجوع إلى:

العجيلي التليلي، السياسة الإسلامية لفرنسا في المغرب الإسلامي خلال الحرب العالية الأولى، مجمع الأطرش للنشر وتوزيع الكتاب المختص، تونس، 2018.

[29]- حول حركة الخوارج في بلاد المغرب يرجى الرجوع مثلا إلى :

عبد الغني حروز ، "الخوارج نشأتهم وانتقالهم إلى بلاد المغرب"، المجلة التاريخية الجزائرية، المجلد 2، ع.1 . 2018.

[30]- هشام جعيط، المرجع السابق، ص، 188، 189.

لقد أدى ازدحام المشاريع السياسية في المشرق إلى انفلاتها نحو المغرب، حيث كان المشروع الإسماعيلي مناهضا للمشروع العباسي في المشرق، على أساس أحقية آل البيت بزعامة المسلمين وفرض سيادتهم انطلاقا من هذا الأساس، الذي تحول فيه الحاكم إلى خليفة الله في الأرض، حيث وجد هذا المشروع البيئة التي تحتضنه والقبائل البربرية التي تعضده تمثلت في قبيلة كتامة بجغرافيتها الوسطية وانفتاحها على المجالات المغربية، لذلك غدت بطوبوغرافيا تشع منها الاسماعيليات الحالمة بالشرق، وبدفع سياسي شكلته الدولة الفاطمية وعاصمتها المهدية التي تنازعت السيطرة على بلاد المغرب مع أموي الأندلس[31].

وبعد سيطرة جوهر الصقلي مولى المعز لدين الله الفاطمي على مصر سنة 358 هـ، ثم تشييده للقاهرة، انتقل سلطان الفاطميين من المهدية إلى القاهرة، لينتقل وضع المغرب من القاعدة إلى الولاية التي يديرها بالنيابة عنهم أتباعهم من بني زيري الصنهاجيين، لكن في عهد الأمير الزيري المعز بن باديس (407- 454هـ) انشق المغرب عن الفاطميين الذين حاولوا الحفاظ على هذا النفوذ من خلال الدفع بمد قبلي- عربي هلالي سليمي اخترق الأضلع الزراعية – الرعوية لبلاد المغرب، وغير ملامح الجغرافيا البشرية[32].

عادت المبادرة السياسية إلى العنصر البربري الذي كان يعيش في مجالات بعيدة عن افريقية التي لطالما شكلت حيزا للتناطح السياسي منذ أن أصبحت فيه القيروان المدينة - المعسكر، لذلك انتقلت هذه المبادرة إلى حيز كان مهمشا ولم تنهكه الصراعات العسكرية والتبدلات السياسية المشبعة بالمذهبية، فبقي محافظا على بربريته – السنية، تعضده كنفدرالية قبلية فرضت جبروتها بلعبة القوة والحرب وهي مصمودة التي تجتمع من حولها قبائل جدالة، لمتونة، لمطة، ومسوفة، ومن هذا العمق الصحراوي للملثمين الذي كان قادرا على شحن العزائم وتجميع العناصر المتباينة انطلقت دولة المرابطين (1056- 1146م) التي جعلت من مراكش عاصمة لها فسيطرت على المجالات الممتدة غرب المحيط الأطلسي، وبلاد شنقيط وحوض نهر السينغال جنوبا، وصولا إلى بحيرة تشاد حيث الصحراء الكبرى، وامتدت شمالا لتشمل جبال الأطلس، ثم إلى ما وراء البحر المتوسط في بلاد الأندلس بعد انتصارهم في معركة الزلاقة (479هـ/ 1086م) على الجيش القشتالي، كما امتدت إلى الشرق حيث تخوم بني زيري وبني حماد، مشكلة بذلك إمارة بربرية- سنية تجاسرت على القطع مع مصائر المغرب[33].

---

[31]- حول تاريخ الدولة الفاطمية يرجى الرجوع إلى :
محمد جمال الدين سرور، تاريخ الدولة الفاطمية، دار الفكر العربي، مصر، 2007.

[32]- حول هذه الهجرات يرجى الرجوع إلى :
أحمد بن نعمان، فرنسا والأطروحة البربرية، الخلفيات، الأهداف، الوسائل، البدائل، شركة دار الأمة، الجزائر، ، 2011 ، ص، 38- 41

[33]- من المصادر والدراسات التي تناولت تاريخ دولة المرابطين :

ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.

حسن أحمد محمود، قيام دولة المرابطين، صفحة مشرقة من تاريخ المغرب الأوسط، دار الفكر العربي، القاهرة .

في المقابل تراجع خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر دور افريقية المشحون بالأحداث السياسية التي فرخها محور القيروان المهدية، لينتقل هذا التفريخ إلى المغرب الأوسط بروح المقاربات الجيوسياسية لإفريقية، حيث انتقل بنو حماد الصنهاجيين من قلعة بني حماد على أبواب الصحراء إلى بجاية المتوسطية، في مشهد يحيل إلى زحزحة الصناعة السياسية نحو غرب المغرب، فكانت قلعة بني حماد اسقاط داخلي لمدينة القيروان، وبجاية اسقاط بحري لمهدية الفاطميين، أما مراكش عاصمة المرابطين فكانت تحصيل جذب غربي (جهة الغرب) في رسم ملمح المغرب المتصور .

تمتعت مراكش بهيبة سياسية- حضارية واستبطنت في داخلها الفكرة الاتحادية، غير أنها ظلت واقع أقلية وكانت على الدوام –تقريبا- مخترقة بالمبدأ القبلي "المتدين" الذي كانت تحاول عبثا تجاوزه، حيث ظهرت في محيطها (تينمل) حركة دينية توحيدية على يد ابن تومرت، سرعان ما تطورت في شكل مشروع سياسي بقيادة عبد المؤمن بن علي الكومي (نسبة إلى قبيلة الكومة في تلمسان) الذي دخل مراكش عام 1146 ايذانا بميلاد حكم الموحدين الزناتيين الذي امتد سلطانهم إلى الأندلس التي أصبحت بمصير ونفوذ مغربي منذ عهد المرابطين، وإلى طرابلس في حركة عكسية، بدى فيها غرب المغرب الاسلامي مشتلة في انتاج وتصدير الكيانات السياسية ويتحكم في مصائر الرعية بدل القيروان[34].

بقيت التجربة السياسية بمزاج بربري يعضدها العنصر العربي قائمة في بلاد المغرب والأندلس رغم ما اعتراها من نزعة ولائية يغذيها التنسج القبلي والحركات الدينية على غرار ما كان يعيشه الشرق الإسلامي، فكان الاثبات الحربي ونظام الإمارة أكثر امتلاء بالمستقبل بالنسبة للكيان الموحدي الذي دخل مرحلة الهشاشة والتفكك الذي شجعته الجغرافيا الواسعة، و تصادم الولاءات، التي أفرزت مجمعات أسرية بحكم محلي بددت الديكور الموحدي، خلال القرن الثالث عشر، فظهر الحفصيون بمد هنتاتي- مصمودي وعاصمتهم تونس، وآيت مرين وعاصمتهم مدينة فاس، وبنو عبد الواد الزناتيون الذين جعلوا من تلمسان مقرا لسلطانهم .

4.صورولوجيا المشرق والمغرب:

إن أكثر الأسئلة ترددا عند الحديث عن تاريخ العالم الاسلامي هو صورولوجية (Imagologie) تفككه جيوسياسيا إلى عالمين الأول مسيطر بجغرافيا مشرقية، والثاني تابع بجغرافيا مغربية؟ الأول منتج للايديولوجيات الدينية والمشاريع السياسية والثاني مستهلك لها ؟ بل الأول هو مركز للتاريخ والثاني في شكل حوز بميدان ما قبل

[34]- من الدراسات التي ناولت تاريخ دولة الموحدين:

عبد الحق الطاهري، الدولة الموحدية أسس الشرعية والمشروع السياسي، افريقيا الشرق، 2015

أسامة عبد الحميد حسين السامرائي، تأسيسها، ثورتها، تنظيماتها، عقيدتها، دار الكتب العلمية، بيروت، 1971.

التاريخ، حتى أنه في مراحل ضعف المركز ترك العالم الثاني لمصيره تتقاذفه حتى الطوبونيميا المتقلبة المزاج، ففي العصر الوسيط عرف ببلاد المغرب التي تفيد في اللغات الأفرنجية لأنها ليست دخيلة عليها (Occident) ولا تفيد في العربية 2حتى ولو أضفنا إليها صفة عربي أو إسلامي، لأن عربي تزاحم البربربي، والإسلامي يقصد بها المغرب الأندلس، عندها تتماهى الجغرافيا، أما في الفترة الحديثة فأطلق عليها أرض البربر وهي عبارة كانت رائجة في أوساط الأوروبيين، ثم نبذت لما تحمله من أبعاد سياسية وخلفيات عرقية، ثم جاءت تسمية شمال غرب إفريقيا كحالة سياسية معاصرة[35].

كما يكشف النموذج الفاطمي عن مسار تاريخي- اكلنيكي ، فكل من يعتريه كبت سياسي أو ايديولوجي في المشرق ، يتجه إلى أرض اشباع الرغبات (بلاد المغرب)، حتى لا يتحول الوضع لديه إلى علة مزمنة قد تأتي على مشروعه وحيوية انبعاثه، لذلك يطرح التساؤل عن طبيعة الفتح لهذه البلاد هل كان فتح سياسة وغنيمة أم فتح أسلمة؟ وبماذا تفسر النماذج السياسية والايديولوجية الجاهزة التي كانت تُصدر إلى بلاد المغرب عقب كل رجة مشرقية ؟

مما لا شك فيه أن مجتمعات البلاد المغاربية أصبحت أكثر تكيفا مع النموذج الخليفي الذي كان يتدفق من دمشق ثم بغداد، في شكل نموذج قطبي يتغذى بالغنيمة والضرائب والجند، فالأغالبة رغم استقلاليتهم بالإمارة بقيت دعوتهم للخليفة العباسي، وحتى المرابطين رغم مزاجهم المحلي البربربي الذي يصبغهم إلا أنهم حافظوا على هذا التقليد كحمية غذائية تصون تواجدهم في الحيز الإسلامي، الذي تحول إلى هوية اجرائية في تعامل المولى مع القديس، فكانت معركة الزلاقة (479هـ/ 1086م) التي انتصر فيها يوسف بن تاشفين على الملك القشتالي، ومعركة الأرك (591هـ/ 1195م) التي انتصر فيها أبو يوسف يعقوب الموحدي على ملك قشتالة ألفنسو الثامن، وغيرها من المعارك التي شكلت وقائع سيف لحفظ النفس وصون الأرض من عدو كافر مترصد جعل من بلاد الأندلس فضاء للمزاحمة الوجودية.

لقد شكلت الدعوة للخليفة أحد أوجه الالحاق المسيج بالصبغة السياسية التي يحذوها تقاسم المال والرقيق لذلك طرح مبكرا التساؤل: كيف سيحكم العرب المغرب وليس كيف سيعبد المغاربة خالقهم ؟ عندها حاولت المجتمعات البربرية المسلمة مرارا الخروج من هذا الاطار الخلفي -الذي أرهقهم ضريبيا- والتوجه نحو حقن تاريخي محلي يستجيب لخاصية الفاعل لا المنفعل، فكانت – مثلا- التجربة المصمودية نموذجا للجهاز القبلي الذي قرر حركة الهجرة نحو عوالم السياسة التي تجعل من الأطراف مركزا لإنتاج القيم الدينية، وتمظهرات الحكم، فكان الموحدون تحصيل هذه الشبكة القيمية لأوجه إدارة المنفعة ببعدها المغربي.

[35]– عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، المركز الثقافي العربي، ط5، 1996، ص، 32

المحاضرة الثانية:

أوروبا بين الانقلاب الحضاري وأوجه الغزو لبلاد المغرب

1.من رحم المطبعة:

هيمنت على أوروبا خلال العصور الوسطى صورة الانسان الوضيع والمتشائم، الذي تسكنه العقلية الرمزية-الخيالية بتعقيدات العقيدة اللاهوتية، التي أسست لرباعية الفشل السوسيولوجي وهي المزايا الموروثة، تدين الدولة، الملكية المطلقة و حق الملوك الإلاهي، حيث سكنت هذه الرباعية المجتمع الأوروبي الذي أصبح يعيش حالة تعطيل عقلي أقحمه في دائرة القطيع المسلوب الإرادة والمسقف الطموح، الذي لا يتعدى تغطية الحاجة البيولوجية والتطلع إلى حياة ميتافيزيقية تضمنها صكوك الغفران[36].

في المقابل بقيت القسطنطينية على مضيق البوسفور هي النسخة الاحتياطية من العصور القديمة، حيث احتضنت بين جدرانها الكثير من الأدباء والعلماء والفنانين، الذين حركوا الرواكد في إيطاليا بعد هجرتهم إليها منذ القرن الثالث عشر[37] فدفعوها نحو التمدن الذي يغمره الفن، أما مجتمعات أوروبا الشمالية -على غرار الألمان- فاتجهوا نحو البحث في مصدر مدنيهم الكنسية، فكان مارتن لوثر (1483- 1546) تتويجا لهذه التراكمية الاستفهامية.

لقد انساقت الظرفية الوسيطية المتأخرة إلى إعادة رسم الوعي الأوروبي بعد اختراع المطبعة (1452) من قبل المهندس الألماني جوهنس غنسفلايش (Johannes Gensfleisch) الذي عرف باسم غوتنبرغ (Gutenberg)[38] حيث كان هذا الاختراع حدثا مفصليا في صناعة الوعي الجمعي الذي يتغذى من المقروئية. فكان صيف عام 1455، ايذانا ببداية صدور أول كتاب كامل المواصفات بأوروبا.

لقد تجاوز هذا الابتكار راهنية الكنسية التي تحفظت عليه "كحبوب شوك قد تختلط مع الحبوب الغذائية" لكن "انقلابيته التاريخية" جعلته يكتسح المجال الأوروبي في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، حيث وصل عدد المدن التي أسست بها مطابع إلى مائتين وستين (260) مدينة، بمجموع ألفين ومائة (2100) مطبعة، طبعت أربعة ملايين نسخة من كتب متعددة المضامين، بيعت بتكلفة منخفضة قدرت بربع ثمن مخطوطة، وهو ما حفز المجتمعات الأوروبية على القراءة، التي اكتسحت المشهد العام ما بين 1467 و 1547 بعدما صدرت أكثر من اثنين

---

[36]- فرغلي علي تسن، تاريخ أوروبا الحديث والمعاصر، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، الاسكندرية، 2001، ص، 47، 48.

[37]- تجار جنوة وبيزا وجمهورية البندقية (اللاتينيين) كانوا يترددون على القسطنطينية 1271 كانت اعمال شغب 1204 صراع بين الكاثوليك والاورتودوكس

[38]- نسبة إلى اسم شركة والده التي كان يعمل بها (Zum Gutenberg)

وعشرين مليونا نسخة من كتب تناولت حوالي اثنين وثلاثين ألف موضوعا، كمؤشر على اكتساح المقروئية للعطالة الفكرية الأوروبية، وبداية تشكل العقل المُكوَن المنتج للمعرفة[39].

2.عقلنة التدين :

مع مطلع القرن السادس عشر أصبحت سيكولوجية التحكم في المجتمع الأوروبي صعبة المنال، حيث خرج الوعي من أيدي السلطة الكنسية، التي بدأ يتلاشى سياجها التفسيري للكتاب المقدس، وأخذت منابع البابوية تُجفف بإضعاف إمانيات صكوك الغفران التي لم تكن سوى شبابيك تصطاد بواسطتها ثروات الناس، التي أخذت نخبهم تفك الارتباط مع العلم الذي يتغذى من التربية الكنائسية كجزء من التربية الدينية، والاتجاه نحو مختلف العلوم والفنون والآداب، لذلك أشهرت هذه النخب عدائية صريحة للكنسية كون "الرب أعطى للبشر قوة تعقل"[40].

لقد كانت الفلسفة القديمة ترتكز على البحث في الوجود لا في المعرفة، التي أصبحت في عصر الأنوار ركيزة يستقصى منها فهم الوجود، بالبحث في الظواهر التي كانت تقرأ بعيون التراثيات المسيحية لا بعيون الأفراد وسقفها المعرفي الذي وصلت إليه، لذلك كانت أبحاث كوبرنيك (Copernic) (1533) الذي اكتشف أن الشمس هي مركز الكون، وخلاصة قاليلو (Galilieo) في كروية الأرض، كانت بمثابة تحد للإيمان البابوي الذي يسطح الأرض ويمركزها، حيث زرع هذا الفصيل من الأبحاث بذرة التوتر بين الكنسية والتساؤل البشري الذي نمى على مر السنوات[41].

طبعا لم يكن تفكيك الإيمانيات البابوية أمرا هينا، لأنها أصبحت واجهة المسيحية خلال العصور الوسطى، ونصوص الإنجيل أهواء في يد القساوسة، لذلك انخرطت أوروبا مبكرا في حركة إصلاحية لتفكيك ثنائية رجل الدين والكتاب المقدس، انطلاقا من ترجمة هذا الأخير إلى اللغات القومية والتخلص من لاتينيته المبهمة في أوساط العامة، فظهر في مدينة ليون الفرنسية بيير فالدو (Pierre Valdo) (1140- 1217) الذي ترجم الإنجيل إلى اللغة المحلية (الفرنسية)، وفي انجلترا ظهر أستاذ اللاهوت في جامعة أوكسفورد القس جون ويكليف (John Wyclif) الذي ترجم بدوره الإنجيل إلى الإنجليزية[42].

وبحلول القرن الخامس عشر ارتفعت الأصوات التي تدعوا إلى الاعتماد على الإنجيل دون تعاليم الكنيسة، التي زحفت على منابعها في إيطاليا دعوات الأب الدومينياكي جيرولامو صافونارولا (Girolamo Savonarolla) (1402- 1492) الذي طالب بضرورة العودة بالمسيحية إلى أصولها الأولى، أما فقيه اللغة اللاتينية لورانزو فالا (Lorenzo Valla)

---

[39]- خليفة حماش، محاضرات في تاريخ النهضة الأوروبية، المطبوعات البيداغوجية لكلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، 2013- 2014، ص، 309- 314.

[40]- فرغلي علي تسن، المرجع السابق، ص، 45.

[41]- المرجع نفسه، ص، 56-58

[42]- خليفة حماش، المرجع السابق، ص، 321- 322.

(1407- 1457) فهز عرش البابوية عندما أكتشف زور " هبة قسطنطين" (Donatio Costantini) وهي وثيقة تدعي الكنسية أن الامبراطور الروماني قسطنطين الأول منحها للبابا سيلفستر الأول (Silvestre 1er) (304- 335م) معترفا بموجبها للبابوية في روما بحق ممارسة السلطة الشاملة على أوروبا[43].

إن هذ الصدمات الدينية التي عكرت المزاج البابوي انتهت إلى اللوثرية (نسبة لمارتل لوثر 1483- 1546) والزونجيلية (نسبية أولريخ زونجل (1484- 1531) والكالفينية (نسبة لجون كالفن 1509- 1564)، هذه الحركات الاصلاحية التي أعادت ترتيب الوصال الرباني الذي أصبح يتدفق من الرب إلى العقل عبر نصوص الكتاب المقدس، بدل الوسطاء (رجال الدين) بين الرب وقطيع مغيب العقل، لذلك أصبح اعتماد الكتاب المقدس دون وسطائه من رجال الدين، ودمج الحياة الدينية في السلطة المدنية، أصبح ضرورة أوروبية نهضوية. ولم يحل النصف الثاني من القرن السادس عشر حتى ارتسمت في هذه القارة ملامح جغرافيا لمذاهب دينية تقاطعت بين التقليدية والحديثة، فاستأثرت الأورثودوكسية بأوروبا الشرقية، بينما وجدت البروتيستانية لها أتباعا بأوربا الشمالية، وبقيت الكاثوليكية في أوروبا الجنوبية، حيث موطن البابوية الذي بقي تأثيره يمتد من روما إلى شبه الجزيرة الإيبيرية[44].

3. الجامعة لصناعة ثلاثية الكفاءة والخدمة والتغيير

كان الاعتداء على طلبة الجامعة بباريس في عهد الملك فليب الثاني (عام 1200) ايذانا بميلاد أول وثيقة تؤطر التعليم العالي، وتقنن سياسة المفاضلة المادية والمعنوية للأساتذة والطلبة باعتبارهم صفوة المجتمع، حيث اتسعت هذه الرؤى كأحد أوجه العناية بطلاب العلم في انجلترا، فكانت تشريعات الملك هنري الثالث (1214) تجسيدا لهذا التوجه الذي ساير المتغير السوسيو-اقتصادي في تطلعه للخروج من الزمنية الاجترارية التي تسكنها ضيعة الاقطاع والمجتمع المسيج إلى " مجد مملكي" حث عليه فريديريك الثاني ملك صقلية وجنوب إيطاليا، الذي أنشأ جامعة نابولي، ورغب الرعية في الالتحاق بها[45].

تحيل هذه التبدلات إلى ظاهرة صحية اجتاحت البنية الذهنية الأوروبية التي أصبحت تبنى المعرفة والمؤسسات المنتجة لها، فبعد جامعة السوربون بفرنسا وأكسفورد بإنجلترا، تشير الأرقام إلى وجود خمسة عشر جامعة بأوروبا سنة 1300، ليرتفع هذا العدد إلى سبعين جامعة (سنة 1500)، توزعت على نطاق واسع على غرار جامعات كامبردج (1208)، نابولي (1224)، غرونوبل (1339)، براغ (1348)، فلورنسا (1349)، هيدلبرغ (1385)، اكس أنبروفانس (1403)، بافيا (1461)، وغيرها من مؤسسات التعليم العالي التي عمت المشهد العام كأحد أوجه المنافسة بين الملوك الذين

[43]- خليفة حماش، المرجع السابق، ص 327- 333

[44]- حول هذه المذاهب يرجى الرجوع إلى :

جلال يحي، عصر النهضة والعالم الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الاسكندرية. د.ت

[45]- خليفة حماش، المرجع السابق، 254- 258.

تقاطعت رآهم السلطوية حول احتضان الانتاج النخبوي الذي يفكك العطالة الفكرية وخطاب المنامات الذي كانت تروج له الكنسية، لذلك أصبحت "جامعة المملكة" رهان حاسم لإعادة صياغة الذهنيات والممارسات.

أكثر ما يثير في مشاتل انتاج المعرفة التي اجتاحت أوروبا أنها لم تبقى حبيسة المخابر أو المدرجات، بل تحركت نحو الحواضن التي تحتاج إلى التفكيك واعادة التركيب، وهي مؤسسات الدولة والمجتمع، حيث كانت أولى هذه التحركات نحو أقوى هذه المؤسسات وهي الكنيسة بأجهزتها الإدارية، حيث تكشف أحد الدراسات أنه من جملة مائة وأربعة وثلاثين (134) رجل دين تولوا وظيفة الكاردينالية بين عامي 1309 و 1376 كان ستة وستون (66) منهم على الأقل لهم درجات علمية جامعية، وكانت نسبة 71 في المائة من هؤلاء الكرادلة الجامعيين لهم درجة الليسانس في القانون، و28 في المائة لهم درجة الليسانس في الفنون، ونفس الدراسة بينت أنه من بين اثنين وخمسين (52) رجل دين عملوا في المحكمة العليا بالفاتيكان بين عامي 1378 و 1417 كان ستة وأربعون منهم على الأقل لهم درجة الدكتوراه أو الليسانس في القانون، أما في النصف الثاني من القرن الخامس عشر فإن نسبة الأساقفة المتخرجين من الجامعات بلغت 35 في المائة[46].

طبعا اختراق المعرفة لأسوار الكنسية كان ايذانا ببداية هيكلة المؤسسات الرسمية وإدارتها وفق شرط " كفاءة الكوادر العلمية " ففي المرسوم الذي أصدره الإمبراطور فريديريك الثاني (1197- 1250) بتأسيس جامعة نابولي المختصة في دراسة القانون تحدث قائلا " إننا ندعو جميع طلبة العلم لخدمتنا، وإن الذين سيواصلون دراستهم العليا منهم سينالون احترامنا ومكافأتنا، لأننا سنوظفهم في المؤسسات الموجودة في مملكتنا لتطبيق القانون وإدارة العدالة"، وفي القرن الرابع عشر قال أحد أشهر القانونيين في بولونيا الدكتور بارتول بضرورة تسليم إدارات الدولة إلى رجال القانون كونهم الوحدين المؤهلون للعمل فيها[47].

اتجهت أوروبا بهذه المفاهيم " الكفائية" التي تتغذى من مبدأ " تحمل مسؤولية المكان والأفراد " The right man in the right place " إلى انتاج قيم للفرد القادر على إدارة مصالح العامة وفق استعداده وتخصصه، لذلك ارتفع سقف التوقعات عند المجتمعات الأوروبية من مسائلة الكنسية إلى مسائلة السلطة، التي كانت لازلت تحكم بواسطة العناية الالاهية والتكليف الرباني، فكان المخرج من هذا التصور القائم على التكليف السماوي، يقوم على طرح البديل الليبيرالي الذي يدعو إلى حرية المعتقد، حرية التعبير، حرية التفكير، والحرية الشخصية وبذلك تحول الفرد إلى ركن سوسيو- سياسي في بناء الأنظمة الحديثة التي أخذت تتخلص من القانون الإلاهي بعد أن رتبت لنفسها حيز وضعي قام على ثلاث مبادئ رئيسية وهي مبدأ الشرعية الذي يستند إلى سيادة القوانين المتفق عليها وأعلاها

[46]- خليفة حماش، المرجع السابق، ص، 304

[47]- المجرجع نفسه.

الدستور، ومبدأ سيادة الأمة الذي أصبحت فيه مصدرا لكل سلطة أو سيادة، وثالثا مبدأ فصل السلطات الثلاث (تنفيذية، تشريعية، قضائية) كأحد آليات التصدي للاستبداد، والتمهيد لنظرية العقد الاجتماعي التي ستتحول إلى بديل لنظرية العقد الإلاهي التي عمت المشهد السياسي لأوروبا العصور الوسطى، وبالتالي أخذت أوروبا تخرج من حيز المؤسسات الثيوقراطية الموروثة عن الماضي إلى مؤسسات حديثة تقوم على أساس العقل والحرية والقانون[48].

بعد تبلور المعرفة التي تنتجها الجامعة في شكل "كفاءة" سياسية وإدارية ظهرت أيضا في شكل "خدمة" اجتماعية على غرار الأطباء الذين قامت جهودهم على الرعاية الصحية، فتذكر المصادر أنه في مدينة باريس أصبح فيها عام 1550 اثنان وسبعون طبيبا (72) تخرجوا من كلية الطب، بعدما كان المجتمع يعتمد على الخوارق والشعوذة والطرق البدائية لمداواة المرضى، لينتقل دور الجامعة بعدها إلى صناعة " التغيير" الذي يؤسس لضخ حضاري يرفع من "هرمونات السعادة" لدى المجتمع الأوروبي الذي كان يتشكل –سابقا- في صورة الإنسان الضعيف والمتشائم من الدنيا، لذلك تحولت الجامعة إلى مشتلة لإنتاج رواد الحركة الفكرية والعلمية الذين قامت على أكتافهم النهضة الأوروبية، على غرار المفكر الإنجليزي طوماس مور (Thomas More) (1478- 1535) الذي تخرج من جامعة اكسفورد، والمصلح الألماني مارتن لوثر (1483- 1546) الذي تلقى تكوينه في جامعة إرفورت، وعالم الفلك البولوني نيكولا كوبرنيك (1473- 1543) الذي بدأ دراسته في جامعة كراكوفيا، وأكملها في جامعة بولونيا بإيطاليا، وأيضا الفيلسوف بكون (1561- 1626) الذي تخرج من جامعة كمبردج[49].

4.العلم من الغاية المعرفية إلى الغاية الاستثمارية:

اكتسحت سيول المعرفة القارة الأوروبية، التي أخذت مجتمعاتها تتخلص من الجغرافيا المكبوتة التي تتغذى من الميثيولوجيا الاغريقية وتقاليد الأقنان، وراحت تبحث عن الآخر الذي تسكنه مجاهيل " ميتافيزقية" مستندين في ذلك على تركة بحثية تؤكد أن خلف هذه البحار جزر وعوالم أخرى في أرض كروية لا منبسطة، فكانت الرحلات الكشفية التي قام بها كريسطوف كولومبس (1492- 1504)، فاسكو ديغاما (1498)، بيدرو كابرال (1500- 1501)، فرديناند ماجلان (1519- 1521) سبستيان كابوط (1526- 1530)، وغيرها من الرحلات بداية لخروج أوروبا من حالة شلل نصفي نتيجة اعتمادها على مقاربات الحيز التاريخي الروماني الذي تركن فيه حياة اليابسة - حتى بإشعاعها الحضاري- على البحر المتوسط[50].

---

[48]- ستظهر لاحقا كمذهب سياسي – اجتماعي يعرف بالليبيرالية التي أخذت عده أوجه منها الليبيرالية السياسية ، والليبيرالية الاجتماعية والليبرالية الاقتصادية.

[49]–حماش ، المرجع السابق، ص 306

[50]- حمو الحاج ذهبية،" العلوم المعرفية: بحث في النشأة والمفاهيم"، مجلة أبوليوس، المجلد 6، ع.2، ص، 37– 39.

وبذلك فتحت الحركة الكشفية سجل القاموس الجغرافي الأوروبي الذي دونت فيه مجاهيل العوالم على غرار خليج السهول بين تكساس والمكسيك، خليج بنما، ساحل أمريكا الجنوبية، نهر الأمازون، رأس الرجاء الصالح، مالينديي (كينيا)، جزر الهند، وهي الكشوفات التي ربطت غرب الكرة الأرضية بشرقها، بعد العثور على ربعها المفقود (قارة أمريكا) الذي كان مشبعا بالحضارات القديمة على غرار حضارة أولمك (400- 1200- ق م)، حضارة المايا (500ق م- 800 م)، حضارة الزابوتيك (500 ق م- 750 م)، حضارة الزانكا (01- 700م)، حضارة الإنكا (1250- 1532م)، حضارة الأزتك (1430- 1521م)، وغيرها من الحضارات التي لدى شعوبها تاريخ أطول من عمر الممالك الأوروبية[51].

إن أكثر ما يثير في هذه الحركة التاريخية هو تأثرها بالمجاعة النقدية التي كانت تعيشها أوربا ما دفعها (الحركة) إلى الاهتمام بثروات الشعوب، خاصة مادة الذهب التي تحولت إلى هوس سكن الفُعال الأوروبي الذي أصبح يبحث عنها بين الأدغال والأنهار وقمم الجبال، ففي عام 1519 أبحر هيرناندو كورتيز يقود جيشا تعداده حوالي 600 محارب ارسوا بسفنهم على الساحل الشرقي لخليج المكسيك، حيث سيطروا على امبراطورية الأزتك التي أخذوا في مصادرة ثروتها من الذهب، وفي عام 1539 قاد هيرناندو دي سوتو جيشا نحو الساحل الغربي لفلوريدا بحثا عن هذه المادة الثمينة التي دفعت إلى مزيد من التوسع والسعار الإيبيري الإيبيري، الذي خلص إلى واحدة من أغرب معاهدات التاريخ الحديث، -وبدفع بابوي- وهي معاهدة توردیسیلاس.(Treaty of Tordesillas) عام 1494 التي تم بموجبها تحديد نقطة تقع إلى الغرب من جزر الرأس الأخضر بنحو 1500 ميل، وعند هذه النقطة رسم خط وهمي من الشمال إلى الجنوب اقتضى بموجبه أن يصبح كل ما هو غرب الخط لإسبانيا، وكل ما هو شرقه للبرتغال، وفي ذلك كوميديا تاريخية إذ أن البرتغال تقع في الجهة الغربية لشبه جزيرة أيبيريا أما إسبانيا ففي الجهة الشرقية، ومع ذلك فقد رتب الأمر في اتجاهات مغايرة نظرًا لاعتبارات الكشوفات الأولى لدياز بارتولوميو البرتغالي وكريستطوف كولمبس الإيطالي-الإسباني[52].

تدفقت مع هذ الحركة الكشفية المعادن النفسية على أوربا، التي تجاوزت أيضا حياة الأقنان وطعام الأجبان الذي كان ينقل إلى روما لإرضاء أذواق الصفوة والأعيان، حيث غمرها أكل البرتقال واحتساء الشاي، والطهي بتوابل الهند. لقد مهدت هذه الحركة الطريق لعصر النهضة بكل ما فيه من حراك ثقافي وبريق علمي واتساع بحثي وريادة بين الأمم، وتعبيد عمادة العلوم البحرية والفلكية، و ما واكبها من قوة الأساطيل الجرارة التي سُخرت لها كل الموارد من أجل الرفعة المعرفية. كما توسعت التبادلات التجارية وتغيرت مواقع الموانئ الأبرز والطرق الملاحية، وظهر على إثرها

[51]– فرغلي علي تسن، المرجع السابق، ص، 27– 29.

[52] -https://ar.wikipedia.org/wiki/ تاريخ البرتغال

الإنتاج الرأسمالي الضخم الذي تولد معه شكل اجتماعي جديد ساهم في تكوينات طبقية برجوازية أثرت على مجمل أوروبا[53].

واكب هذه التبدلات التاريخية انتقال حركة الاقتصاد من الشرق حيث أغلب الأوطان تدين بالإسلام إلى فضاءات جديدة وبالتالي تخطت الحركة الكشفية الوساطة التجارية التاريخية للعالم الإسلامي، الذي كان يتحكم في مساحات شاسعة، وخطوط تجارة عالمية مثل طريق الحرير، ما جعله يدخل في مشاكل اقتصادية ومالية أثرت على دعم المؤسسات العلمية والمدارس التعليمية، التي فرخت ركودا علميا، لذلك لم تكن مشكلة الحضارة الإسلامية دينية مثل أوروبا في هذه المرحلة بل مشكلة تغير الحركة الاقتصادية والتجارية العالمية[54].

في المقابل كريسطوف كولومبس الذي ذهب ليأتي بهارات إذ به يجد الذهب كأقراط يلبسها الهنود الحمر، وبالذهب الذي أصبح يصل إلى أوروبا أنشأت مؤسسات البحث العلمي والأكاديميات الملكية، التي تحولت إلى " مستثمرات علمية" لخدمة الاقتصاد والأسواق، وهنا تشكلت أحد أهم أسرار التفوق الأوروبي في الفترة الحديثة والمعاصرة وهو **تحوير العلم من الغاية المعرفية إلى الغاية الاستثمارية**، لذلك كانت أوروبا هي الوحدة الترابية في العالم التي ابتكرت شيئ اسمه " براءة الاختراع" الذي جعل من المعرفة استثمارا ومن الحياة مكاسب مادية بعدما تبدلت النظرة إلى العلم وطبيعة المعرفة التي يجب تسويقها[55].

5. شبه الجزيرة الإيبيرية :

التطلع إلى مجتمع المعرفة اكتسح بدوره شبه الجزيرة الإيبيرية، حيث تقع أكثر المجالات خصوبة للحقن الحضاري والتمازج التاريخي الذي تربى بين ضفتين متباينين ذوقا ومعتقدا وسلوكا، حتى أن المؤرخ الاسباني روبرتو لوبيز ذكر بالقول أنه "لا يعرف أبداً متى أو أين ينتهي الشرق أو يبدأ الغرب في ايبيريا"، ومن هذا العمق الجغرافي المفتوح على العالم سطعت أندلسيات المعرفة لتغمر قصور المقاطعات الأوروبية، فكانت البعثات الطلابية تتدفق على الأندلس بأعداد متزايدة حتى بلغت عام924م زهاء سبع مئة طالب وطالبة، وحتى البابا سلفستر الثاني اغترف من العلوم في اشبيليا، و الراهب الفرنسي جربير دي اورياك الذي زار الأندلس في أزهى عصورها في عصر الخليفة المنتصر (960م/976م) ومكث بها ثلاث سنوات (976م/970م) فدرس العلوم الطبيعية وعلم الفلك والرياضيات في برشلونة على يد علماء المسلمين كما تعلم اللغة العربية ,التي كانت له مفتاحا لتأليف كتاب بهذه اللغة شرح فيه استخدام الأرقام

---

[53]-https://mawdoo3.com حركة الكشوفات الجغرافية /

[54]– المرجع نفسه.

[55]- علي حسين ابتسام، سعيد صالح اسراء، "دور البحث العلمي والابتكار المعرفي في تحقيق النمو الاقتصادي المستدام – تجارب دولية مختارة "، مجلة التنمية الاقتصادية، المجلد 6، ع.1، 2021، ص، 38- 45.

العربية الذي تعلمها في الأندلس، وحتى كلية الطب التي أنشأت في مدينة مارسيليا جنوب فرنسا في القرن السابع هجري الثالث عشر ميلادي، فقد دعي إليها أساتذة من مسلمي الأندلس[56].

بقي ربيع الأندلس قائما رغم عواصف التغيير التي أتت على التراب المسلم الذي أخذ يتآكل نتيجة مد الممالك المحلية- المسيحية التي أصبحت تتغذى من مبتكرات الحضارة الإسلامية، فكانت الجامعات التي انشأت في شبة الجزيرة الايبيرية تحصيل امتزاج المعرفة التي تكفر بلونها المتدين، لذلك تأسست العديد من الجامعات على غرار جامعة سالامنكا (Salamanque) عام (1218)، جامعة بلاد الوليد (Vlladolid) عام (1205)، جامعة برشلونة (Barcelona) عام (1450)، جامعة سرقسطة (Saragosse) عام (1474)، جامعة بلنسية (Valencia) عام (1500)، أما في البرتغال فتأسست جامعة لشبونة (Lisbonne) عام (1290)[57]، وغيرها من الجامعات التي تحول فيها الباحث إلى ركن أساس في صناعة العملية التعليمية، من خلال التكفل بدفع راتبه من الخزينة العمومية، وهو ما كانت تكفله الحكومة الإسبانية مع جامعة سالامنكا (Salamanque)، ففي عام 1254 خصص لها ألفونصو العاشر ألفين وخمسمائة (2500) مرابطي ذهبا، وهو مبلغ كان كافيا لدفع مرتبات أد عشر أستاذا، وخمسة موظفين إضافة إلى نفقات أخرى كانت الجامعة في حاجة إليها. وفي أواخر القرن الثالث عشر ارتفع ذلك المبلغ إلى عشرة آلاف (10000) مرابطي في عهد فرديناند الرابع (Ferdinand 4)، ولكي يوفر ملوك إسبانيا المبالغ المالية التي تغطي ميزانية الجامعة، فإنهم كانوا يفرضون ضرائب خاصة على السكان، منها ضريبة " ترثياس" (Tercias)، كان الملوك يجمعونها بإيعاز من المؤسسة البابوية في روما لترتيب أمور الحرب الموجهة ضد المسلمين، لكن كان جزء منها مخصص لتغطية نفقات الجامعة، ويروي أحد الباحثين أن البابا كليمونت الخامس لما علم بذلك ألغى تلك الضريبة فأثر ذلك القرار على توازنات الجامعة، التي أصبحت غير قادرة على دفع مرتبات أساتذتها، مما اضطر الملك فرديناند الرابع إلى سحب مبلغ اثني عشرة ألف مرابطي من خزينته الخاصة، وأرسلها إلى إدارة الجامعة لتدفع مرتبات الأساتذة والموظفين، ولأن الملك كان يدرك أنه لا يستطيع الاستمرار في دفع هذه النفقات مستقبلا، لذلك عقد اجتماعا مع أسقف مدينة سالامنكا كممثل للبابا، حيث جر الاتفاق على توفير هذه الميزانية من خلال ضريبة خاصة يفرضها الملك على سكان المدينة دون تمييز بين مدنيين ورجال دين، وموظفين وتجار وفلاح، ولكن البابا في روما ما فتئ يدرك خطورة الموقف من إلغاء ضريبة ترثياس (Tercias)، لذلك تراجع عام 1309 عن قرار إلغائها، وسمح للملك بجمعها من جديد، لاستغلال عوائدها في تغطية نفقات الجامعة، وعلى هذا المنوال حسب الباحث سارت الحكومات الأوروبية الأخرى في توفير ميزانيات جامعاتها منها مرتبات الأساتذة، بدلا من دفعا من قبل الطلبة[58].

---

[56]- فرغلي علي تسن ، المرجع السابق، ص، 9- 13

[57]- خليفة حماش، المرجع السابق، ص، 270.

[58]- خليفة حماش، المرجع السابق، ص، 281.

كما تحيلنا النظرة الخاطفة عن تعمق المعرفة في شبه الجزيرة الايبيرية فخلال القرن الثالث عشر، أقدم ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم على تشجيع النثر الاسباني المبكر، وتحت اشرافه انطلقت عملية تدوين تاريخ اسبانيا وتاريخ العالم، وفي القرن الخامس عشر اشتهر الكثير من الأدباء والشعراء من بينهم: لوبث دي مندوثا المعروف بماركيز سانتيا، خوان دي منا، وأنطونيو دي نبريخا الذي نشر النحو القشتالي، أما القرن السادس عشر فيعد القرن الذهب في اسبانيا، حيث شاعت النهضة الايطالية في الأدب الاسباني، واشتهر العديد من الشعراء على غرار خوان بوسكان، ومن الذين حافظوا على التقليد القشتالي في نظم الأبيات القصيرة، كركريو سيلقستر، واشتهرت مدرستان شعريتان في اسباني هما مدرسة سالمنكا، وقشتالة، وفي اشبيلية اشتهر خوان دي أركويخو (1567- 1622م)، ومن أشهر الأطباء في القرن السادس عشر: غوميز بيريرا، فرنسيسكو لوبيز، ميغيل سيرفيت، ومن أشهر البحارة المستكشفين: فاسكو نوانيز دي بالبوا، خوان دياز دي سوليس، والبرتغالي ماجلان فرناندو الذي اشتغل تحت التاج الاسباني، اضافة إلى الايطالي كريستوف كولومبس حيث وقع كل من الملكان فرناندو وازابيلا في 30 أفريل 1492 مع كريستوف كولومبس اتفاقية " كمستكشف للجزر والقارات في البحر والمحيط، وبقرار ملكي منح رتبة أمير البحار والمحيطات"[59].

إلى جانب ذلك اجتاحت المطبعة كبعد حضاري شبه الجزيرة الايبيرية التي قدمت – فقط - للمجتمعات المسلمة خلال القرن السادس عشر على طبق نصراني لا يقربه إلى الحواريون، حيث تنوعت أصناف المؤلفات بها بين عامي 1473 و 1500، ثم بين عامي 1501 و 1536، فسجل أنه في الفترة الأولى صد 446 عنوان منها 217 عنوان في اللاهوت و 60 عنوان في الآداب، و 45 عنوان في القانون، و 33 عنوان في الفلسفة و 29 عنوان في البلاغة والتربية و 15 عنوانا في الطب، و 14 في الموسيقى والجغرافيا والرياضيات. أما في الفترة الثانية بين عامي 1501 و 1536 فصدر سبعمائة وأربعة وأربعين عنوانا منها 263 عنوان في اللاهوت و 119 عنوان في الآداب، و 63 عنوان في القانون و 83 عنوان في الفلسفة، و 52 عنوان في التاريخ، و 85 عنوان في البلاغة والتربية، و 23 عنوان في الطب و 14 عنوان في الموسيقى، و 18 عنوان في الجغرافيا ، و 16 عنوان في الرياضيات[60].

طبعا كل هذه الأرقام والمعطيات تؤشر على القابلية إلى المقروئية التي عمت مجتمعات شبه الجزيرة الإيبريرية، التي أصبحت الكلمة المطبوعة بمثابة قوة الحسم لديها، والكتب تموج في أسواقها، لذلك أوصلهم هذا الوضع العلمي الصحي إلى الصين، واكتشاف ربع العالم الذي تمثله القارة الأمريكية، ومعه تبدلت نظرتهم للعالم الخارجي التي كانت حبيسة منطق الصدامات الوسيطية بلونها المتدين، و بتموقعات لم تخرج عن نطاق الجغرافيا القديمة للفنيقيين والرومان.

[59]- https://mawdoo3.com/كريسطوف كولومبس / الموقع العربي .

[60]- خليفة حماش، المرجع السابق، 331-335.

6.علاقة المغرب بالأندلس :

إن العلاقات بين بلاد المغرب والأندلس تجمعها تاريخية مجتمعات البحر المتوسط، التي انصهرت في النموذج الفينيقي- القرطاجي ثم وجهت نحو التصور الروماني، ثم المرحلة الإسلامية التي كان فيها المد البشري المغربي واضح منذ الفتح وصولا إلى التنسج الاجتماعي الذي واكب المشروع السياسي الذي شهده بلاد الأندلس، التي جعل منها مسلمو البلاد المغاربية بعدا جيو-مجاليا لكتلة أمامية على جناح أوروبا الغربي حيث تتدفق مسيحية الصلبان، لذلك تطلبت منهم منحها مناعة خاصة، كثيرا ما استندت إلى الدعم اللوجيستيكي لجيوش البلاد المغاربية، التي كانت تتدفق بمستوى انبعاث المشروع السياسي المغاربي ومدى تطلعه لما وراء البحر وجاهزيته لصون بلاد الأندلس، حيث شكل المرابطون ومن بعدهم الموحدون حواضن مؤسساتية لهذا التصور السياسي الذي جعل من بلاد المغرب والأندلس وحدة إدارية يقطعها البحر[61].

طبعا هذا النموذج الترابي الوحدوي لم يصل إلى هذا النضج إلا بعد مروره على مراحل انطلقت منذ عهد طارق بن زياد وموسى بن نصير الذي بلغ جبال البرانس شمالا طمعا في عبورها وغزو ما وراءها من بلاد مخترقا أوربا شرقا حتى القسطنطينية، وأنه كان يأمل في الاستيلاء على هذه العاصمة البيزنطية بعد أن عجز المسلمون عن غزوها من ناحية الشرق. ولما علم الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك بهذا المشروع لم يوافق عليه وأمر موسى بالعودة إلى دمشق خوفا على أرواح المسلمين من هذه المغامرة الغير محمودة العواقب. وتنفيذا لأوامر الخليفة ترك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز واليا على الأندلس[62].

وفي فلسطين قابله الأمير سليمان بن عبد لملك أخو الخليفة الوليد وولي عهده، وطلب من موسى التريث قليلا لأن الخليفة مريض جدا وصائر لأجله عن جريب، وذلك لكي تؤول إليه الغنائم. ولكن موسى لم يقبل هذا العرض وواصل سيره إلى العاصمة دمشق فبلغها والخليفة يحتضر. ثم ولي سليمان بعد موت أخيه، وكان حاقدا بطبيعة الحال على موسى، فاضطهده وصادر أمواله ونفاه إلى الحجاز، حيث أمضى بقية حياته يستجدي القبائل لسداد ديونه. أما طارق بن زياد فاختفى أثره في المدونات التاريخية ولم يعد يعرف عنه شيئ[63].

في الواقع اصطلح المؤرخون على ترتيب البيت الأندلسي إلى المراحل التالية:

---

[61]- حول تاريخ الأسرة الموحدية والمرابطية يرجى الرجوع إلى
مُحَمَّد علي الصلابي، دولتي المرابطين والموحدين في الشمال الإفريقي، دار المعرفة، بيروت.

[62]- أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1978، ص، 75

[63]- المرجع نفسه.

أولا : عصر الولاة: ويمتد من الفتح العربي حتى قيام الدولة الأموية في الأندلس (91- 138هـ/ 711- 756م)، وفي هذا العصر كانت الأندلس ولاية عربية تابعة للخلافة الأموية بدمشق.

ثانيا: عصر الدولة الأموية: وهو أزهى العصور الأندلسية وينقسم إل قسمين: القسم الأول : من 138-316هـ – 756-929م) وفيه كانت الأندلس إمارة أموية مستقلة سياسيا عن الخلافة العباسية في المشرق منذ عبد الرحمان الأول بن معاوية (الداخل) وصولا إلى عبد الله بن محمد، أما القسم الثاني : من 300-422هـ/ 912- 1031م، وفيه صارت الأندلس خلافة مستقلة سياسيا وروحيا عن الخلافة العباسية بالمشرق، وتداول الحكم فيها عدد كبير من الخلفاء الأمويين، ومنذ عهد الخليفة هشام المؤيد (366هـ- 399/ 976- 1009م) صارت السلطة في يد صاحب الدولة المنصور بن أبي عامر، واستمرت في يد ولديه المظفر ثم عبد الرحمان الملقب بشنجول، وانتهى الحضور الأموي سنة 422هـ/ 1031م)[64].

ثالثا: عصر ملوك الطوائف : (422هـ- 479هـ/ 1031- 1086م) : وهو تحصيل تفكك الحضور الأموي إلى دويلات طائفية ضعيفة متنازعة، اختفى ظهورها بدخول المرابطين من المغرب إلى الأندلس بقيادة يوسف بن تاشفين وانتصارهم على الإسبان في موقعة الزلاقة سنة 1086م

رابعا : عصر السيطرة المغربية: (479- 612هـ/ 1086- 1214هـ) : وفيه تحولت الأندلس إلى ولاية تابعة للمغرب في عصري المرابطين والموحدين، وعاصمتهما مراكش، وقد انتهى هذا العصر بعد هزيمة الموحدين أمام الجيوش الأوروبية المتحالفة في موقعة العقاب سنة 609هـ/ 1212م، وقد تلى ذلك فترة ملوط طوائف أخرى قضى عليها الإسبان ولم يتركوا منها سوى مملكة غرناطة.

خامسا: مملكة غرناطة أو عصر بني نصر أو بني الأحمر، وهو آخر عصر إسلامي في الأندلس ويمتد من سنة 1231 إلى سنة 1942م وهي السنة التي سقطت فيها في أيدي الإسبان[65].

7.تآكل ساحل البلاد المغاربية:

يتوارث المخيال المغاربي –الأوسط- اليوم قصة مفادها أن أحد الملوك الإسبان وبعد انتصاب حكم المسلمين في الأندلس وعلو شئنهم أرسل بجاسوس يترصد أخبارهم، ومن جملة ما نقله إلى ملكه أنه رأى طفلا استطاع بضربة سهم واحد أن يسقط طيرين، أما في السوق فوجد الناس ملتفون حول كتاب نادر، حيث دخل الحضور في مزاد من أجل اقتنائه، عندها أدرك الملك الإسباني من خلال ما نقله له الجاسوس أنه لا

[64]- المرجع نفسه، ص، 76

[65]- أحمد مختار العبادي، المرجع السابق، ص، 77

يمكن غزو المسلمين لأنهم على قوة تبرز في اهتمامهم بالعلم، وباحترافية جيوشهم اسقاطا لدقة تصويب الطفل، ويسترسل المخيال المغاربي في هذه القصة، حيث في آخر عهد المسلمين بالأندلس كان قد أرسل أحد الملوك الإسبان بجاسوس يترصد حال المسلمين الذين وجدهم في مشهد بأحد الأسواق يتزايدون لشراء جارية ذات جمال فائق، لدرجة أن أحد المزايدين طلب شرائها بمقدار ما وزنت ذهبا.

طبعا هذا السرد الأسطوري يعبر عن بسيكولوجية متحسرة تملكت المجتمعات المغاربية بعد سقوط الأندلس بسبب روح الترف التي سكنت إنسانها – حسبهم- وما صاحبها من لعنة مسيحية لا حقت الموريسكيين إلى بلاد المغرب، حتى أن هذه اللعنة بقيت قائمة إلى مرحلة الاحتلال الفرنسي (1830) الذي قررت قيادته النزول عبر ساحل سيدي فرج الذي لم يكن سوى أحد النازحين من بطش الإسبان عقب سقوط غرناطة (1492)، في المقابل ترى الأدبيات الأمريكية أن تاريخية بلاد المغرب هي التي ارتمت في " الفشل انطلاقا من طبيعة التوسعات الإسلامية التي لم تكن سوى جغرافية طالت المجال الممتد من مصر إلى الأندلس، الذي شهد عجزا في تأسيس أنظمة سياسية كانت لا زالت تعتمد على الخيل والسفن في ربط شبكة مصالحها، التي قادها رجال من الصحراء حيث التعصب الديني والرغبة في الغنيمة التي دفعتهم إلى احتلال سكان المدن"[66].

إن التوأمة الترابية بين المغرب والأندلس جعلت من العبء التاريخي وتهمة " الفشل" تترصد الضفتين عقب سقوط غرناطة، رغم أنهما تعاملا مع الآخر المسيحي بطبائع ومزاج مختلف ففي الوقت الذي بدت فيه الأندلس أرضا للتعايش الإثني والثيوقراطي، غلبت على بلاد المغرب الروح المحاربة للعدو التقليدي المتمثل في الممالك المسيحية الإسبانية، الذي كان الانتصار عليها يمنح النفس السياسي الطويل و"جرعة الخلود" للأسر الحاكمة على غرار المرابطين في معركة الزلاقة ، والموحدين في معركة الأرك والحفصيين في صدهم للحملة الصليبية التي قادها ملك فرنسا لويس التاسع سنة 1270، وحتى السعديين كسبوا الهيبة السلطوية جراء انتصارهم في معركة وادي المخازن (985هـ/ 1578م)[67].

قد تبدو منذ الوهلة الأولى أن الغلبة العسكرية الجهادية أو انتكاستها مؤشرا على مدى صلابة المشروع السياسي القائم، وتلميحا لمستوى جاهزيته لامتصاص ارتدادات الآخر –المسيحي- المترصد على التخوم، لكن

---

[66]– جون بول وولف، الجزائر وأوروبا 1500- 1830، ترجمة وتعليق أبو القاسم يعد الله، دار عالم المعرفة، الجزائر، 2009، ص، 22

[67]– حول معركة وادي المخازن يرجى الرجوع إلى :

زين العابدين زريوح، " ذاكرة وادي المخازن 1578 بين المصادر المحلية والأجنبية" رؤى اريخية للأبحاث والدراسات المتوسطية، المجلد1، ع.1، ص 145- 165.

هذه التفسيرات لا تتجاوز قوالب العصور الوسطى التي تركن إلى ثنائية الكافر والمسلم -الذي هو في حالة حرب أبدية مع الأول-، وتتغاضى عن أزمة الغرب الإسلامي التي انطلقت يوم تنكر السياسي للفكر، واتهم الفقيه المفكر ، فكانت نكبة الفيلسوف ابن رشد (520هـ- 1126م/ 595هـ- 1198م) تحصيل هذه المحرقة التي أوقدت النار في كتب ابن رشد، واتهمته بالمروق والإلحاد والخروج عن الدين. وبينما حاصره ذويه وضيقوا عليه حد مصادرة حريته بفرض الإقامة الجبرية عليه في "أليسانا" -قرب قرطبة- استقطبت فكره المجتمعات الأوروبية التي جعلت منه سبيلا في نهضتها، لتتشكل بذلك لعنة استفهامية تطاردنا إلى اليوم، حاول شكيب أرسلان تشريحها في القرن الماضي في كتاب عنوانه : لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم[68] ؟ هل لأنهم تخلوا عن ايمانهم ؟ أم تنكروا لعلمائهم وعلومهم ؟ إن هذه العلة المزمنة قد تطورت إلى شلل نصفي – نادر- تملك الأمة الإسلامية بعضه حي لأن فيه السياسي وصاحب الوصفة الفقهية وبعضه الآخر ميت لأن فيه الباحث- المفكر، بينما تهاوي بلاد الأندلس في يد الممالك الإسبانية منها قرطبة(633هـ/ 1236م) أكثر بلاد الله كتبا ومولد ابن رشد يطرح التساؤل عن دافعية المشروع الجيوبوليتيكي التوسعي لهذه الممالك المسيحية على حساب المسلمين في الأندلس هل حفزته غنيمة المال أم غنيمة الحضارة والأفكار ؟ خاصة وأن هذه الممالك ستعيش طفرة فكرية عالمية مع حركة الكشف الجغرافي خلال القرن الخامس عشر

إن المنشور الذي أصدره أبو يوسف يعقوب منصور الخليفة الموحدي ضد ابن رشد يعبر عن تلك المرحلة وارتداداتها حيث ورد فيه : " وقد كان في سالف الدهر قوم خاضوا في بحور الأوهام، وأقر لهم عوامهم بشفوف عليهم في الأفهام.....فخلدوا في العالم صحفا ما لها من خلاق..... بعدها عن الشريعة بعد المشرقين.....يوهمون أن العقل ميزانها والحق برهانها.....ونشأ منهم في هذه السمحة البيضاء شياطين إنس.....فكانوا عليها أضر من أهل الكتاب.....فلما أراد الله فضيحة عمايتهم وكشف غوايتهم، وقف لبعضهم على كتب مسطورة في الضلال، موجبة أخذ كتاب صاحبها بالشمال، ظاهرها موشح بكتاب الله وباطنها مصرح بالإعراض عن الله، لبس منها الإيمان بالظلم....."[69].

لقد كان كافيا تشكل الوحدة المقدسة بين مملكتي أراجونا وكاستيل، يحركها احساس الملكة ازبيلا (ملكة قشتالة) بثقل الإرث الديني الكاثوليكي، لتسقط غرناطة (1492) ضمن مشروع أسبنة (نسبة لإسبانيا) الأندلس، الذي كان يتطلع أيضا إلى جعل البحر المتوسط بحرا للروم[70] لذلك انطلقت حملة مبكرة للسيطرة

---

[68]- شكيب أرسلان، لماذا تأخر المسلمون ؟ ولماذا تقدم غيرهم ؟ مؤسسة هنداوي لنشر المعرفة والثقافة ،.2012

[69] - https ://hespress. com. ابن رشد

[70]- كمال فيلالي، تاريخ المغرب الحديث من فتح القسطنطينية إلى سقوط قسنطينة 1453- 1837، أساطير مؤسسة، هجرات، مؤسسات وثورات، دار ألكسندر للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، 2016، ص، 47.

على الجيوب الساحلية للبلاد المغاربية فاحتلت البرتغال مدينة سبتة سنة 1415 وفي سنة 1581 تم تتويج فيليب تحت اسم "فيليب الأول" ملكا على البرتغال، وسارع إلى توحيد مملكة إسبانيا والبرتغال وأطلق على الإمبراطورية الجديدة "الاتحاد الإيبيري". وخلال هذه المرحلة، التي استمرت 60 عاما، تم دمج المستعمرات البرتغالية في إسبانيا، وأصبحت مدينة سبتة مأهولة بالإسبان.وفي 1640، أعلنت البرتغال استقلالها، لكن سبتة بقيت تحت سيادة إسبانيا، وفي العام 1668 تنازل الملك البرتغالي، ألفونسو السادس، عن المدينة لصالح ملك إسبانيا، كارلوس الثاني، بموجب معاهدة لشبونة، أما مدينة مليلة التي كانت واقعة بين سلطتين متنافستين (الزيانيين والمرينيين) وبعد انتهاء الملوك الكاثوليك من استعادة غرناطة، بدأ سكرتير الدولة الإسباني، هيرناندو دي زافرا، بجمع المعلومات حول المناطق الواقعة على طول البحر الأبيض المتوسط، والحالة المتردية لساحل شمال أفريقيا بنيّة التوسع فيها، وكانت هذه المدينة في الأصل تقع على الحدود بين مملكة فاس ومملكة تلمسان. وقد أدى التناحر بين هاتين المملكتين إلى تأزم الوضع في المدينة، وبحلول عام 1494، طرد السكان المحليون سلطان فاس وجردوه من سلطانه، واستغل الإسبان الفوضى التي دبت داخل مملكة فاس وبتأييد من إيزابيلا، ملكة كاستيل، وفرديناند، ملك أراغون، تم احتلال مليلية في الـ17 من سبتمبر 1497 [71].

توقفت بعد هذه المرحلة عمليات التوسع على الساحل المغاربي بسبب جذب القارة الأمريكية المكتشفة حديثا لكل المغامرين والباحثين عن الثروة والسلطة من النبلاء والجنود هذا في كاستيل، أما في مملكة أرغونة فإن الملك فرديناند وقسما هاما من السكان كان اهتمامهم منصبا على إيطاليا. واستأنف الغزو الايبيري بعد ثمانية سنوات، فبقيادة دون رايمون تم الاستيلاء على المرسى الكبير سنة 1505، الذي أخلي من سكانه مع تحرير العبيد من البرتغاليين والبروفانسيين الذين ألقي عليهم القبض في حملة فاشلة تعود إلى سنة 1501، سيرها البرتغاليون ضد المرسى والباقي منهم كانوا إسبانا وفرنسيين وإيطالي، أما وهران التي ارتبط اسمها بالكاردينال خمينيس أسقف طليطلة الذي كان من أكبر المحرضين على احتلال المرس الكبير ، فقد قاد الحملة بنفسه يشاركه 15 ألف جندي يقودهم بيدرو نافارو الذي دخل المدينة سنة 1509، ليخسر بنو زيان أهم الموانئ المتوسطية[72]، لتتوسع عمليات الغزو نحو بجاية التي احتلت سنة 1510 وفرض على سكانها دفع تكاليف الحرب ودفع ضريبة بانتظام والتكفل بمؤونة الحامية، كما احتل الإسبان مدينة عنابة في نفس السنة (1510) التي تركوا بها حامية، ولم يقتصر نفوذ الإسبان على المدن التي سيطروا عليها بالقوة، بل امتد

[71] - https ://maghrebvoices. com.سبتة ومليلة

[72] – صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي، دار هومة، الجزائر، 2011، ص، 26-34.

ليشمل أغلب الساحل الجزائري، فقد دان لهم أمير تنس منذ 1506، وشرشال 1511، كما احتلوا مستغانم سنة 1511، ولما علم سكان مدينة الجزائر بسقوط بجاية سارعوا إلى ارسال وفد عنهم إلى بجاية ليعلن استسلام مدينتهم وشيوخ متيجة للاسبان، كما وقع مندوبون عن المدينة وثيقة الاستسلام التي يعترفون فيها بالسيادة الإسبانية ويطلقون سراح العبيد المسيحيين، في المقابل اشترط الإسبان أن يسير قائد المدينة سالم التومي إلى إسبانيا رفقة أمير تنس لتقديم الطاعة والهدايا يتبعهما حوالي 130 عبد من العبيد المسيحيين المحررين، لقد أنشأ الإسبان حصنا (حصن البنيون) على الجزر الصغير المقابلة لمدينة الجزائر لضمان الرقابة ووصول الضريبة[73]، وامتد الغزو الإسباني ليشمل مدن تونسية وليبية، لكن هذا الغزو الإيبيري لم يتوغل إلى الداخل واكتفى بالمدن الساحلية تحميه برا قبائل متحالفة[74]، وذلك لثلاثة أسباب أولها تاريخي يسعى إلى إعادة البحر المتوسط إلى "الحضن اللاتيني الروماني" بعدما سيطر عليه المسلون لعهود، والسبب الثاني اقتصادي كانت تسعى من خلاله الممالك الاسبانية إلى تأمين المحطات الساحلية والسيطرة على خطوط التجارة البحرية، خاصة وأن الدور المركنتلي (البرجوازي) كان بارز الأثر من خلال تدخل الطبقة التجارية في السياسة العامة، على غرار تجار مدينة ملاقا، وبرشلونة، وفلنسيا الذين كان لهم نفوذ في البلاط، أما السبب الثالث فيعود إلى التقلبات العالمية التي أحدثتها حركة الكشف الجغرافي حيث امتص العالم الجديد بغموضه وثرواته ومغامراته وتطلعاته -ودون مزاحمة- أي مشروع توسعي توغلي في بلاد المغرب التي أصبحت تصنف في الأبجديات الأوروبية بالعالم القديم لذلك يبدو أن الشعور الديني الذي أشهر ضد هذه البلاد هذه المرة كان وسيلة وسيطية (تعتمد تضاد المسلم والكافر) كثيرا ما أججت المشاعر في العلاقة بين العالمين المسلم والمسيحي، لذلك وظفتها الطبقة البورجوازية خلال القرن السادس عشر لتحقيق أغراض جيو- اقتصادية تساير المشهد النهضوي الذي أصبحت تعيشه أوربا[75].

[73]- المرجع نفسه .

[74]- على غرار قبائل بني عامر التي تحالفت مع الإسبان بعد احتلالهم لوهران، حيث تحولوا إلى قوة خلفية محاربة تحمي بر المدينة. صالح عباد، المرجع السابق، ص، 30، 31.

[75]- جون بول وولف، المرجع السابق، ص، 25

المحور الثاني :

التطور السياسي للجزائر في العهد العثماني

المحاضرة الأولى:

انتصاب الحـــــــــكم : المخـــــــــــاض

المحاضرة الثانية:

المقاطعـــــــــات السياسيـــــــــــة (البايلك)

المحاضـــــــرة الأولى:

انتصاب الحـــــــــــكم : المخـــــــــــاض

1.الجزائر من مدينة القبيلة إلى المدينة الدولة

لقد كان للتنظيمات الإدارية والعسكرية البيزنطية الحضور القوي في ولاية إفريقية الأموية والمقاطعة الطنجية، مما أدى إلى تهميش دور المنطقة التي ستعرف لاحقا بالمغرب الأوسط، أما الجيوش العربية الفاتحة فاتجهت نحو المناطق الداخلية المفتوحة طوبوغرافيا مما سهل من مهمتها في التوغل بعيدا عن كمائن الجبال، حيث أدت هذه الاستراتيجية إلى خلق مجال حيوي داخلي وقاعدة داخلية بجذب زراعي- رعوي يمتد من القيروان وصولا إلى فاس المستحدثتين، حيث ساهم هذا المحور الحيوي في أسلمة المجتمعات القبلية التي عاشت على هذا المحور، إلى جانب إعطاء دور جديد للمدن القديمة الواقعة عليه، بالإضافة إلى تأسيس مدن جديدة كتاهرت وأشير، لكن غياب الثقافة البحرية لدى القبائل العربية الوافدة والكنفدراليات القبلية البربرية أدى إلى تهميش مدن ساحل المغرب الأوسط التي تراجع دورها العمراني مع فقدانها للفاعلية العسكرية والاقتصادية لفائدة مدن الداخل المرتبطة أساسا بالإنتاج الفلاحي وبتجارة الذهب والرقيق، لذلك تحول ساحل المغرب الأوسط إلى مجال مهترئ بعيد عن اهتمامات سلطة الخلافة[76].

بدأ اسم مدينة " جزائر بني مزغنة" في الظهور في النصوص الجغرافية والتاريخية في النصف الثاني من القرن الرابه هجري (10 م) عندما كتب عنها الرحالة التاجر الشيعي ابن حوقل النصيبي (ت بعد 367/ 977م) في كتابه الجغرافي الوصفي الموسوم بـ " صورة الأرض" : " وجزائر بني مزغناي مدينة عليها سور على سيف البحر أيضا وفيها أسواق كثيرة ولها عيون على البحر طيبة وشربهم منها، ولها بادية كبيرة وجبال فيها البربر كثرة وأكثر أموالهم المواشي من البقر والغنم وسائمة من الجبال ولهم من العسل ما يجهز على رمية سهم ما يجهز عنهم والسمن والتين ما يجهز ويجلب إلى القيروان وغيرها ولها جزيرة في البحر على رمية سهم منها تحاذيها فإذا نزل بهم عدو لجئوا إليها فكانوا في منعة وأمن ممن يحذرونه ويخافونه" [77].

تحول الساحل الأوسط إلى فضاء مهترئ بعيد عن اهتمام سلطة الخلافة خلال القرنيين الأول والثاني الهجريين (7و 8م)، لذلك اندثرت اكيزيوم الرومانية (ستعرف لاحقا بمدينة الجزائر) وأثرها الملاحي، ولم يعد إلا مع جزائر بني مزغناي على إثر نجاح السياسة الأموية في الأندلس و دورها في بعث التجارة في الحوض الغربي للبحر المتوسط مع نهاية القرن الـ 02 هـ/ 08م، الذي تأسست خلاله مجموعة من المدن والمراسي من قبل البحارة الأندلسيين، على غرار تنس الحديثة ووهران[78] وما حديث ابن حوقل عن " أسواقها الكثيرة" لمؤشر على دينمايكية انتاجية- تسويقية طبعت المدينة في هذه المرحلة، التي يبدو أنها تحولت إلى ملكية قبلية على صلة قوية بأحوازها حيث سهول متيجة

[76]- دومينو فلاريو، بجاية ميناء مغاربي، ج1، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية، 2014، ص، 183- 187.

[77]– ابن حوقل، صورة الأرض، بيروت، منشورات دار مكتبة الحياة، ص، 77، 78.

[78] - Christophe Picard, *La mer et les musulmans d'Occident au Moyen Age*, Paris, Puf, 1997, p.78-80.

التي توفر منتوجات فلاحية يتم تسويقها في هذه المدينة التي لبست عباءة لغوية عربية عندما سميت بالجزائر وهي جمع جزر وعددها أربعة التي كانت تقع على مرمى سهم من المدينة[79].

قرن بعد ابن حوقل وبالضبط عام 460هـ/ 1068م كتب الجغرافي الأندلسي أبي عبيد البكري تأليف جغرافي هام اعتمادا على " مسالك إفريقية وممالكها" لمحمد الوراق القيرواني (ت. 363هـ/ 974م) تحدث فيه عن مدينة الجزائر كنهاية بحرية للطريق الرابط بينها وبين مدينة أشير التي تقع بجبال التيطري وتعد المعقل التاريخي للزعامة القبلية الصنهاجية[80] حيث كتب يقول : " ومنها إلى مدينة جزائر بن مزغنى وهي مدينة جليلة قديمة البنيان،فيها آثار للاول، وآزاج محكمة تدل أنها كانت دار مملكة لسالف الأمم، وصحن دار الملعب فيها قد فرش بحجارة مكونة صغار مثل الفسيفساء، فيها صور الحيوان بأحكم العمل وأبدع صناعة، لم يغيرها تقادم الزمان ولا تعاقب القرون، ولها أسواق ومسجد جامع وكانت بمدينة مزغنى كنيسة عظيمة، بقي منها جدار مدير من الشرق إلى الغرب، وهي اليوم قبلة الشريعة للعيدين تفصص كثير من النقوش والصور، ومرساها مأمون له عين عذبة، يقصد إليه السفن من إفريقية والأندلس وغيرهما " [81].

إن نص البكري الذي تعود معلوماته إلى القرن 04هـ 10 م يؤكد على استمرار الحياة البشرية بمدينة الجزائر التي بقيت تنسب لقبلية بني مزغنة، كما تعيش حركية اقتصادية وتجارية تربطها مع مدن الأندلس وإفريقية، أما ابن الخطيب الغرناطي (ت. 776هـ/ 1375م) وعبد الرحمان ابن خلدون (ت. 808هـ/ 1406م) فيؤكدان على تجرد هذه المدينة من الطوبونيمي القبلي وهو بني مزغنة، وذلك بعد أن شيد بلكين بن زيري بن مناد منشآت أميرية مثل دار الإمارة والمسجد الجامع، حيث كتب ابن خلدون يقول " ثم اختط ابنه بلكين بأمره وعلى عهده مدينة الجزائر المنسوبة لبني مزغنة بساحل البحر ومدينة مليانة بالعدوة الشرقية من شلف ومدينة لمدية وهم بطن من بطون صنهاجة وهذه المدن لهذا العهد من أعظم مدن المغرب الأوسط"[82]. وباستيلاء الناصر بن علناس على عرش الإمارة الحمادية أعاد تنظيم ممتلكاته إداريا وجمع مدينة الجزائر مع مرسى الدجاج ومتيجة في مقاطعة إدارية واحدة أسندها لابنه عبد الله ثم تداول عليها عدد من أعضاء الأسرة الحاكمة[83].

---

[79]- نور الدين عبد القادر، صفحات من تاريخ مدينة الجزائر من أقدم عصورها إلى انتهاء العهد التركي، مطبعة البعث، قسنطينة، 1965، ص، 31.

[80] - Georges Marcais « Recherche d'archéologie musulmane (Achir) » Revue Africaine, no 310, 1922, p. 21-38.

[81]- البكري، المسالك والممالك، تحقيق جمال طلبة، دار الكتب العلمية، بيروت، 2003، ج2، ص، 247.

[82]- ابن خلدون، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر وما عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، مؤسسة جمال للطباعة، ج6، بيروت، ص، 154 ابن لخطيب، كتاب إعمال الأعمال فيمن بويع من ملوك الإسلام قبل الاحتلال، تحقيق للجزء الخاص بالمغرب من طرف أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني، تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط، الدار البيضاء، 1964، ص، 63- 64.

[83]- ابن خلدون، المصدر السابق، ص، 173

نتيجة للأزمة الديمغرافية التي عرفتها بلاد المغرب بعد ثورة أبي يزيد ومجاعات نهاية القرن الرابع هجري/ العاشر الميلادي[84] فقد أصبحت عرضة لزحف التشكيلات القبلية المستقرة بالصحراء وبتخومها خصوصا زناتة وصنهاجة اللثام التي تغذت بخطابات إيديولوجية دينية في محاولة لإصلاح أزمات إسلام الشمال من خلال الدعوة إلى الرجوع إلى الفروع الفقهية المالكية، ومن بين هذه القبائل الداعية لهذا النمط من الخطاب نجد لمتونة التي تمكنت من تبني خطاب فقهي مالكي وإيديولوجية جهادية لمواجهة نصار الأندلس. لقد حاول هؤلاء المرابطين السيطرة على كافة دار الإسلام الغربية، ووصلوا في زحفهم إلى مدينة الجزائر التي افتكوها من يد الحماديين عام 490 هـ/ 1096م، كما تدل على ذلك النصوص التاريخية والشواهد الأثرية[85]، فقد جددوا على الأقل المسجد الجامع وأضفوا عليه الطراز المرابطي الذي مازال قائما إلى اليوم[86] لكن الوجود المرابطي لم يطل طويلا بعد استرجاع الحماديين للمدينة قبل نهاية القرن 05 هـ/ 11 م، حيث منحت كمقاطعة إدارية واسعة لعبد العزيز ابن الأمير الحمادي المنصور بن الناصر ثم تولاها بعد ذلك القائد بن عبد العزيز[87].إن هذا الاستقرار الذي عرفته مدينة الجزائر طوال فترة الحماديين جعل منها منطقة استقطاب لأمراء الحرب الأندلسيين الفارين من السلطة المرابطية، كما تحولت إلى نقطة مهمة على الساحة المغربية بسبب استقرار الأوضاع الأمنية بها ووقوعها على محورين تجاريين هامين هما الطريق البحري الرابط بين المرية والاسكندرية[88] والطريق البري الساحلي الرابط بين بلاد المغرب الأقصى والمشرق، ويقدم لنا الجغرافي الصقلي الإدريسي توصيفا لمدينة الجزائر في هذه الفترة : " ومدينة الجزائر على ضفة البحر وشرب أهلها من عيون على البحر عذبة ومن آبار وهي عامرة آهلة وتجارتها مربحة وأسواقها قائمة وصناعاتها نافقة ولها بداية كبيرة وجبال فيها من قبائل البربر وزراعاتهم الحنطة والشعير وأكثر أموالهم البقر والغنم ويتخذون النحل كثيرا فلذلك العسل والسمن كثير في بلدهم وربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد والأقطار المجاورة لهم والمتباعدة عنهم وأه2لها قبائل ولهم حرمة مانعة"[89].

في عام 546هـ/ 1151م سقطت مدينة الجزائر في يد عبد المؤمن بن علي زعيم الموحدين في إطار زحف قوى الأطراف لضرب المراكز الحضرية من خلال تبني مشروع ديني توسعي يهدف إلى " إصلاح المجتمع"[90] كما جعلوا من مدينة

---

[84] -Allaoua Ammara « Retour à la problématique du déclin économique du monde musulman médiéval: le cas du Maghreb hammadite XI-XX siécles « The Maghreb Review , 28-1, 2003, p. 2-26.-

[85]- ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس المغرب، تحقيق ليفي بروفنسال و ج س كولان، دار الثقافة، بيروت، 1980، ج1، ص، 347.ابن أبي زرع الفاسي، روض القرطاس في ملوك المغرب ومدينة فاس، ترجمة إلى اللغة الفرنسية بومييه

A.Beaumier, *Roudh el-Kartas , histoire des souverains du Maghreb et annales de la ville de Fés*, imprimerie Royale ; Paris, 1843, p.299.

[86] -Rachid Bourouiba, *Les inscriptions commémoratives des mosqueés d'Algérie*, Office des publications universitaires, Alger, 1984, p.92

[87]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6، ص، 176، 177.

[88]- Norman A.Stifloman, « Un témoignage contemporain de l'histoire de Tunisie Zirit »Hespéris Tamuda XII (1972), p.43.

[89]- الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب، بيروت، ج1، 1989، ص، 258.

[90]- ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس لمطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ فاس، نشر عبد الوهاب منصور، المطبعة الملكية، الرباط، ص، 1999، ص، 305.

الجزائر نقطة انطلاق للقضاء على حركات المعارضة المسلحة في المغرب الأوسط وإفريقية[91] ، لكن بعد انهيار المشروع الإيديولوجي الموحدي في عهد الخليفة المأمون (624- 629هـ/ 1227- 1232م) في ظل ظروف سياسية وسكرية صعبة مرت بها بلاد المغرب والأندلس، بدأ الإرث الموحدي في التفكك بين أربع أسر حاكمة: الحفصيون في تونس، الزيانيون في تلمسان، المرينيون في مراكش ثم فاس، والنصريون في غرناطة. لقد حاولت مدينة الجزائر تشكيل مستقل بعد أن أعلن أحد أعيانها وهو ابن علان من تولي أمرها لمدة أربع عشر سنة قبل أن يزاح من طرف الأمير الزياني أبي حمو الثاني في إطار توسيع ممتلكاته شرقا. وكانت أهم محاولة للاستقرار الزياني بمدينة الجزائر هي تلك التي قادها الأمير الزياني المتمرد أبي زيان محمد الذي أعلن استقلاله بها عام 841هـ/ 1438م، لتصبح عاصمة فضاء يضم سهول متيجة والمدية وملیانة وتنس، لكن هذه المحاولة فشلت بعد ثورة أعيان المدينة عليه وقتله. وبعد سقوط المدينة عدة مرات في يد القوى المتناحرة ببلاد المغرب خصوصا المرينين والحفصيين، تمكن الثعالبة من تشكيل ما يشبه المدية الدولة بعد تراجع المشاريع التوسعية في المنطقة[92].

2.جزائر الثعالبـــة :

لقد زحف الثعالبة كجماعات بشرية وردت من المشرق مع الهلاليين والسليميين تدريجيا إلى المغرب الأوسط واستقروا بمنطقة التيطري التي تركتها منذ زمن بعيد الجماعات الصنهاجية بعدما أسست كيانات سياسية في صبرة المنصورية وقلعة بني حماد وغرناطة. لقد تمكن الثعالبة المدعين الانتساب لنفس الجد (ثعلب بن علي بن بكر بن صغير) من الاستحواذ على سهول متيجة والوصول غلى مدينة الجزائر والتمكن من إدارتها في نهاية الفترة الوسيطة بعد نجاح عائلة سباع بن ثعلب في ضمان تم2اسك الجماعة[93] ليسجل هذا العنصر الوافد مرحلة مهمة تجسدت بانتقال الجزائر إلى نمط المدينة – الدولة المستقلة عن الكيانات السياسية المتواجدة في بلاد المغرب، حيث تعاقب على إمارتها عدد من أعضاء الأسرة الحاكمة، كان من أهمهم سالم التومي الذي وطد حكمهم ونشط حركة المبادلات مع القوى المسيحية خصوصا فلورنسا والبندقية[94] وفي عهده تعرضت مدينة الجزائر للغارات الاسبانية، ليستولي عليها عروج خلال القرن 10 هـ/ 16م لتكمل دورها كعاصمة ساحلية.

لقد كان للدور الثانوي لمدينة الجزائر الوسيطية في بداياتها أثره في التشكل البطيئ للحقل المعرفي المحلي وجعلها في أكثر الأحيان محطة على الطريق الساحلي الرابط بين فاس في المغرب الأقصى ومدينة تونس حاضرة الحفصيين، فلم يكن باستطاعتها منافسة الحواضر المغربية الكبرى خصوصا فاس وتونس وتلمسان وبجاية، بسبب غياب

[91]- ابن أبي زرع، المصدر السابق، ص، 305

[92]- يحي بن خلدون، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد، تحقيق عبد الحميد حاجيات، المكتبة الوطنية، الجزائر، 1980، ج1، ص، 91.

[93]- ابن خلدون، المصدر السابق، ج6. ص، 84.

[94]- علي عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص، 217، 218.

سلطة سياسية محلية ترعى هذا الجانب خصوصا من خلال استقطاب نخب علمية لتوظيفها في الجهازين القضائي والديني، هذه الوضعية الدينية دفعت بالرحالة العبدري إلى التصوير المأساوي للمشهد الثقافي للمدينة عندما زارها في القرن 7ه/ 13 م " ....ولكنها أقفرت من المعنى المطلوب كما أقفر من أهله ملحوب، فلم يبق بها من أهل العلم محسوب، ولا شخص إلى فن من فنون المعارف منسوب، وقد دخلتها سائلا عن عالم يكشف كربه، أو أديب يأنس غربه، فكأني أسأل عن الأبلق العقوق وأحاول تحصيل بيض الأنوق" [95]، لكن بمقارنة هذه الشهادة بمعطيات كتب التراجم سنلاحظ بروز مجموعة من النخب العلمية بداية من القرن 6ه/ 12 م منهم على وجه الخصوص موسى بن حجاج بكر الجزائري (ت.589ه/ 1193م)، وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر العطار الجزائري[96] وأبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر العطار الجزائري[97]، لكن الأشهر في التاريخ الروحي والثقافي للمدينة هو عبد الرحمان الثعالبي (786- 875ه/ 1384- 470م) الذي ارتبط بالذاكرة الجماعية للمدينة، كما اشتهر بعدة مؤلفات منها " الجواهر الحسان" الذي اختصر به تفسير ابن عطية، و" شرح ابن الحاجب" في الفروع الفقهية وكتاب " الأنوار المضيئة الجامعة بين الشريعة والحقيقة" وكل هذه المؤلفات غلب عليها العقل الفقهي المقلد من خلال الشروح، والتعاليق والمختصرات وهي الصفة الغالبة في المشهد العلمي للعالم الإسلامي في الفترة المملوكية في المشرق ةعصر ما بعد الموحدين في بلاد المغرب، لقد جمع عبد الرحمان الث2عالبي بين الفقيه والصوفي، وبذلك بعد السيطرة العسكرية والسياسية للثعالبة على مدينة الجزائر، جاء عبد الرحمان الثعالبي ليربط هذه الأخيرة روحيا بالجماعة الثعالبية[98].

لقد قدم لنا حسن الوزان المعروف بليون الإفريقي (ت.1554) توصيفا لمدينة الجزائر في عهد الثعالبة حيث كتب يقول : " ...وهي كبيرة جدا تضم نحو أربعة آلاف كانون، أسوارها رائعة ومتينة جدا مبنية بالحجر الضخم فيها دور جميلة وأسواق منسقة كما يجب، لكل حرفة مكانها الخاص. وفيها كذلك عدد كثير من الفنادق والحمامات. ويشاهد من جملة بناءاتها جامع ممتاز في غاية الكبر على شاطئ البحر، أمامه ساحة جميلة جدا اتخذت على سور المدينة ذاته الذي تتلاطم عند أسفله أمواج البحر، ويحيط بالجزائر عدد من البساتين والأراضي المغروسة بأشجار الفواكه[99].

3.البحر المتوسط: صراع ورهان:

---

[95]- العبدري، المصدر السابق، ص، 23.

[96]- ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق محمد بن شريفة، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، الرباط، 1984، ج8، قسم 2، ص، 380، 381.

[97]- المقري، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، 1968، ج5، ص، 480- 478.

[98]- عبد الرزاق قسوم، عبد الرحمان الثعالبي والتصوف، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص، 49- 75.

[99]- الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ج2، ط2، 1983، ص، 37

نسجت العلاقة بين بلاد المغرب والمشرق بجسور برية استندت إلى توجهات الخلافة التي كانت تحمل مشروعا توسعا ركن إلى حركة مجتمعية توجت في أكبر صورها بالهجرات الهلالية السليمية وبدفع فاطمي، لكن مع بداية القرن السادس عشر اتجهت رؤى التموقع و توفير المداخيل نحو البحر، حيث استثمرت هذه التوجهات التي مثلها العثمانيون في " المسألة الأندلسية" التي تمت تصفيتها بخلفية مسيحية لذلك وصلت سفنهم غرب المتوسط، عندما أرسل السلطان بايزيد الثاني بكمال راس سنة 1486، فقام هذا الأخير بالهجوم على السواحل الإسبانية والإيطالية وجنوب فرنسا وسردينيا، وكورسيكا ومالطا، ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين واليهود إلى بلاد الأناضول[100] ثم كرر كمال رايس الإغارة على سواحل إسبانيا عام 1510 منطلقا من السواحل المغربية وقد رافقه في هذه الحملة بيري رايس، حيث كان الرجلان قبل هذه الفترة يشتغلان في غرب المتوسط لحسابهما الخاص قبل أن يستدعيهما السلطان بايزيد للدخول في خدمته، حيث كان بيري رايس يتخذ من جزيرة جربة بتونس قاعدة له ينطلق منها للإغارة على السفن المسيحية[101].

ومن الأسماء التي برزت خلال هذه المرحلة نذكر أيضا براق رايس وكورت أوغلو مصلح الدين رايس وسنان رايس، حيث جابت هذه الفئة الحوض الغربي للبحر المتوسط في شكل " مؤسسات خاصة" تشتغل لحسابها الخاص من خلال الاستثمار في الوضع العام المضطرب الذي أصبحت تعيشه بلاد المغرب والأندلس فكانت الإغارة وما يترتب عنها من غنيمة سجال هذه المؤسسات التي دخلت أيضا في خدمة السلاطين المحليين، ومع التهجير والطرد الذي تعرض له الموريسكيون في الأندلس في بداية القرن الـ 16 حيث حملوا معهم لواء قضيتهم إلى العالم الإسلامي، وتحولوا إلى محامين ناجحين فأججوا المشاعر الدينية وجعلوا من الاسباني شيئا كريها، لذلك دعوا إلى الجهاد ضده ، عندها تشكلت أحد أهم صور الصدام حول المجالات الحيوية بين الشرق وأوروبا في خضم إعادة التموقع الجيواستراتيجي في عالم بعد العصور الوسطى، لكن يبدو أن اكتشاف الإسبان للعالم الجديد الذي اجتذب النبلاء والجنود الكاستليين الراغبين في الثروة والسلطة عبر الأطلنطي، قد امتص النزعة التوسعية لديهم في بلاد المغرب، لذلك عمدوا إلى اعتماد سياسة " الاحتواء" بدل الاحتلال من خلال السيطرة على الموانئ والمدن الساحلية التي يمكن للقراصنة الانطلاق منها للإغارة عليهم، فبجاية والجزائر ووهران والمرسى الكبير كانت إما محتلة من قبل القوات الإسبانية وإما أرغمت على قبول حصون اسبانية في موانئها مع مدافع تستطيع أن تتحكم في كل التحركات، وباستثناء وهران والمرسى الكبير فإن حكومة المدن تركت للأهالي، ومن الواضح أن هذه السياسة كانت تهدف إلى وقف نشاط البحارة القراصنة العاملين ضد الممتلكات الاسبانية أكثر مما كانت مدفوعة بأية اعتبارات دينية[102].

---

[100] - عبد الجليل التميمي " الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين" المجلة التاريخية المغربية، ع23- 24، ص، 191.

[101]- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس 1512- 1543، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2011، ص، 200.

[102] – جون بول وولف، المرجع السابق، ص، 26، 27.

وربما أكثر الشخصيات التي ربطت الصلة بين المغرب الأوسط والمشرق ممثلة في الدولة العثمانية هو الجغرافي المستكشف بيري رايس المولود سنة 1465 بجزيرة جالي بولي (Gallipoli) بالأرخبيل الإغريقي حيث أهم محطات قراصنة البحر، وبتشجيع من السلطان بايزيد خاض غمار الاستكشافات والمغامرات البحرية فحقق انتصارات على ساحل البحر الأدرياتيكي مثل ليبونت (Lepante) وكورون (Coron) ومودون (Modon)...وعلى إثر هذا التفوق الكبير متعدد الأبعاد، عين كمال رايس أميرالا للبحرية ليفتح صفحة جديدة في حوضي البحر المتوسط الشرقي والغربي، حيث كانت له معرفة كبيرة بالإبحار مكنته من نشر خرائط دقيقة على خريطة العالم، إلى جانب كتابه للبحرية (Kitab-i Bahriye) الذي وصف فيه كل سواحل البحر المتوسط وسواحل شمال إفريقيا، كما رسم بدقة أهم المواقع والموانئ على الساحل الجزائري، وبذلك فتحت هذه المرحلة السبل نحو انفتاح العثمانيين على العوض الغربي للبحر المتوسط[103].

4. الإخوة بربروس يؤسسون للتقاليد البحرية في الدولة العثمانية:

تكاد تجمع كتابات الأتراك اليوم على أن خير الدين بربروس هو مؤسس التقاليد البحرية في الدولة العثمانية، لذلك في زيارتي لتركيا (عام 2022) اكتشفت المكانة التي يحظى بها هذا الرجل في الذاكرة الجماعية، حيث على ضفاف مضيق البوسفور يقع قبره إلى جانب مدفن عائلته ومقربيه، وبالقرب منهم يقف تمثال خير الدين، حيث نادرا ما وقعت شخصيا في تركيا على تماثيل لشخصيات تاريخية باستثناء ربما تمثال كمال أتاتيرك بالعاصمة أنقرة، وإلى جانب تمثال خير الدين يقع متحف البحرية، الذي يشكل فيه خير الدين بربروس أهم الشخصيات التاريخية التي مرت على البحرية العثمانية، إلى جانب الراية الخضراء التي كانت مرفوعة على سفنه[104].حتى أن المؤرخ الأمريكي كتب يقول : لقد كان هذا موضوعا جديدا (النشاط البحري) بالنسبة للسلطان العثماني. إن الجيش التركي كان دائما " حيوان الأرض" وكانت انتصاراته قد تحققت عن طريق الجنود المشاة والفرنسان وكان البحر بيئة غير معروفة له" ويستشهد المؤرخ بجان شيسنو (J.Chesneau) حوالي سنة 1540 قائلا إن " الأتراك باستثناء القراصنة كانوا لا يكادون يعرفون شيئا عن البحر، وهم إلى اليوم إذا أرادوا أن يجهزوا حملة بحرية يتوجهون إلى جبال اليونان أو أناضوليا ويأخذون الرعاة، الذين يطلقون عليهم قويا ناري (Gouionari) ويضعونهم في السفن...وهكذا لا ينجح الأتراك أبدا في البحر.....غير أن بربروسة قد غير ذلك بعض الشيئ[105] .

طبعا اختلفت الآراء حول أصل الإخوة بربروس الذي هو اسم افرنجي مستوحى من لحيتهم الشقراء، والرائج أنهم من أصل اغريقي نشأوا في قرية مالا بمتيلان (Mytilène) لسبوس (Lesbos) قديما، إحدى جزر الأرخبيل الإغريقي وإن

[103]- كمال فيلالي، المرجع السابق، ص، 68، 69.

[104]- تربص علمي قادني إلى تركيا في شتاء سنة 2022.

[105] - جون بول وولف، المرجع السابق، ص، 44

كانت أصولهم غير متفق عليها لكن أحمد توفيق المدني استند إلى ايتمولوجية الاسم (الأصول العلمية للتسمية) فعروج من العُروج في ليلة المعراج، لأنه ولد ليلة ذكرى معراج الرسول ﷺ. في الواقع أنجبت كاتالينا (الأم) من يعقوب (الأب) ستة أطفال بنتين وأربعة ذكور هم على التوالي: إلياس، إسحاق، عروج، خير الدين، الذي ورد اسمه في مصادر أخرى الخدر وذلك يعود إلى صعوبة مخاض أمه عند ولادته حيث تضرعت بالسيد الخضر. وفي الوقت الذي توغل فيه إلياس في الفقه والدراسات الإسلامية، وإسحاق اتجه لحرفة النجارة، أما عروج وخير الدين اختارا المغامرة البحرية التي وسمت في المصادر العثمانية بالغزوات[106].

قاد عروج (1464- 1518) هذا النشاط فكان يشرك اخوته في الحملات البحرية التي كانت موجهة أساسا ضد فرق الفرسان، وهي جماعات مسيحية متطرفة اتخذت من بعض الموانئ والجزر في البحر المتوسط، قواعد حربية تعيق نشاط السفن. كانت تلك الجماعات الدينية تنتمي إلى خمس أديرة هي: أديرة فرسان رودس، أديرة جماعة التثليث الكاثوليك، فرسان يوحنا، فرسان مالطا، فرسان كريستوس وسانتا روزا. على إثر إحدى غاراته القرصنية أسر عروج على يد فرسان رودس وسنه لم يتعد العشرين سنة، لكن عروج تمكن من الهروب من إحدى السفن على مقربة من سواحل الإسكندرية، التي كانت تحت حكم المماليك. سقط عروج مرة أخرى في الأسر على مقربة من سواحل زر كرمان التركية، فافتداه أميرها آنذاك " كركود" ابن السلطان بايزيد وأرسل به غازيا[107]، حيث بدأ عروج نشاطه في البحر المتوسط، وتمكن في أول إبحار له من الاستحواذ على ثلاث مراكب مسيحية ضخمة وسفينتين صغيرتين من نوع الغليوطة على مقربة من السواحل الإسبانية، وفي وقت قصير استحوذ عروج على المركب البابوي فذاع صيته في العالم المسيحي تحت اسم بربروسا (Barberoussa) أي صاحب اللحية الشقراء[108]، أما غنائم الغليوطتين فمنحت كغنيمة إلى السلطان الحفصي مولاي محمد (1494- 1526)، وكان ذلك محفزا على توقيع اتفاقية تقضي بالحصول على مركز رسمي لنشاطه القرصني مقابل دفع ضريبة للسلطان قدرت بخمس الغنائم، حيث وافق سلطان تونس على طلب الإخوة بربروس المتمثل في جعل ميناء حلق الوادي قاعدة لهم في نشاطهم القرصني[109]

تحولت هذه المرحلة إلى توجه مؤسساتي نحو " البطولة" و " الكبرياء " انطلقت بوادرها عندما كانوا كغيرهم من البحارة الأتراك يرسون في موانئ المغرب الأوسط، لبيع غنائمهم وإصلاح سفنهم وتعويض خسائرهم بقوات جديدة وقد أشار المهدي البوعبدلي في مقدمة تحقيقه لكتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني إلى أن عروج أن كغيره من الأتراك كثيرا ما يتصل بالشخصيات المحلية والدينية، ومن ذلك أنه قابل الشيخ الولي أحمد بن يوسف الملياني الراشدي في شرق وهران، ما يؤشر على أن عروج كان على تواصل مع السكان المحليين منذ استقراره بموانئ تونس،

---

[106]- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمئة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792، المجلد الخامس، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص، 145، 146.

[107]- يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر، ج2، ديوان المطبوعات الجامعية ، 2007، ص، 11.

[108]- كمال فيلالي، المرجع السابق، ص، 73.

[109]- محمد دراج، المرجع السابق، ص، 207.

ومنه بدأ يظهر هو وأخوه خير الدين في غرب المتوسط ابتداء من سنة 1504،وبالتالي يعد ظهورهما مرحلة من مراحل الاتصال العثماني بفضاء المغرب الإسلامي[110]، لكن بدافعية أكبر ومشروع أوسع توفرت له الظروف على غرار الاضطهاد الديني الذي كان يعيشه المسلمون بالأندلس، والتوسع الاسباني في الجيوب والموانئ المغاربية، إضافة إلى شهية الانتصارات التي كانوا يحققونها ضد العدو التقليدي للمسلمين في تلك المرحلة وهم المسيحين، لذلك صنعت هذه الظروف عوامل للتفكير الجدي في تطوير مشروعهم ليتحول إلى تشكيل كيان متوسطي يتبع الدولة العثمانية وهو ما أشار إليه خير الدين في مذكراته بعدما تمكن هو وأخوه من الاستقرار في جيجل[111] .

5.حصن البنيون : "دركي" على الساحل :

فرض منطق القوة والجبروت الذي فرضه الاسبان على سواحل المغرب الأوسط، جنوح القادة المحليين إلى منطق السلم الذي عادة ما يجر وراءه شروط قاسية، فسالم تومي حاكم الجزائر وبعد سقوط مدينة بجاية عاصمة الحماديين القديمة في يد الاسبان، حيث تسلل الذعر إلى سكان المدينة سارع عندها وبعد موافقة مجلس أعيان المدينة إلى إعلان ولائه للقائد الاسباني " بدرو نافارو[112]، حيث خلص هذا الوضع إلى التزام مدينة الجزائر بدفع إتاوة مالية سنوية للإسبان في بجاية قدرت قيمتها بنفس المبلغ الذي كانت تدفعه مدينتهم لبجاية الحفصية قبل ذلك[113]، إلى جانب اطلاق سراح العبيد المسيحيين الموجودين أسرى في يد سكان المدينة، مع ابداء الطرفين للسلمية وعدم تعرضهم لبعضهما البعض. ولدعم هذا الاتفاق سافر وفد من أعيان مدينة الجزائر - إلى اسبانيا عام 1511، ومعهم 130 من العبيد المسيحيين تم تحريرهم ورفعت القيود والسلاسل عن أيديهم وأرجلهم، وهي الرحلة التي انتهت إلى فرض بناء حصن عسكري على تلال الجزر المقابلة لمدينة الجزائر والقريبة منها بحيث كانت قذائف المدفعية تصل إلى اليابسة بل وتمر فوقها من سور إلى سور حسب توصيف حسن الوزان، وهو ما اضطر سكان مدينة الجزائر إلى إيفاد سفارة إلى اسبانيا رفقة عبد الله حاكم مدينة تنس – الذي أعلن بدوره خضوعه وطاعته تطلب هدنة عشرة سنوات[114].

لقد وضع في الحصن 200 جندي اسباني دورهم مراقبة كل ما يجري من تحركات في البحر دون انقطاع واحبط محاولات السيطرة على مدينة الجزائر من جهتها البحرية، وكانت من مهامه أيضا منع القراصنة من استعمال الميناء كملجأ، أو الانطلاق منه للقيام بأعمال بحرية قرصنية[115]. ويذكر مارمول كاربخال : أن مدينة الجزائر في عهد سالم

---

[110] - أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي، المؤسسة الوطنية للكتاب، 1984، ج1، ص، 131، 132.

[111] – مذكرات خير الدين بربروس، ترجمة محمد دراج، شركة الأصالة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص، 36

[112] – كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر، ترجمة جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، 2007، ص، 23

[113] - يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص، 10

[114] – حسن الوزان، المصدر السابق، ص، 38.

[115] - كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص،25

تومي كانت تمول الحصن حيث كان الجنود قابعين داخله ولا يبرحونه والمدينة هي أقرب ما يمكن منهم، فنزول الجنود إلى المدينة وابتزازهم للسكان بات يشكل اهانة لهم[116].

6.دولة المدينة تستنجد:

كانت لا زالت الذهنية المتدينة التي تصطف وراء الايمانيات المسلمة، تؤطر في الشأن السياسي والتعاملات الدولية التي تحكمها ثنائيات المسلم والكافر، الهلال والصليب، فكانت الحروب المقدسة سجال هذه المرحلة التي كانت بمثابة صدام عالمي بين مشاريع دنيوية وتشريعات سماوية، أنتجت تصورات في التعامل مع الآخر تحكمها الحيطة والحذر، أما الخضوع والابتذال للكافر فيتحولا إلى مذمة، لذلك كان لسالم التومي عدة معارضين ازاء مشروعه القاضي بإعلان الولاء والطاعة للإسبان القابعين على مرمى حجر، ومما زاد من مستوى الاستهجان والمعارضة هو سلوكيات الجنود الإسبان مع السكان المحليين، فعاشت مدينة الجزائر منذ سنة 1510، على صفيح ساخن بسبب تضارب الآراء حول مسألة دفع الضرائب ووجود الحامية الإسبانية قرب المدينة، ويبدو أن سالم تومي في ظل هذه الظروف المتوسطية قد تجنب شرا لا بد منه، عندما ساير الإسبان في مشروعهم التوسعي على ضفاف البحر المتوسط[117].

لقد كانت حرفة القرصنة تجر وراءها مشروع اقليميا يبحث عن البيئة التي تحتضنه، أما الانتصار على الآخر - الكافر - فكان يرفع من أسهم المنتصر في بورصة المسلمين، لذلك تحول الإخوة بربروس إلى أبطال صنعتهم الظروف والبنية الذهنية لتلك المرحلة التي كانت لا زالت تتغذى من مفاهيم العصور الوسطى، ويكفي الانتصار على غير المسلم حتى تتشكل تلك الصورة النمطية التي تحفها القداسة، هو ذلك النموذج الفريد والأسطوري الذي عم المشهد السياسوي في هذه المرحلة، حيث كان الإخوة بربروس قد لجؤوا إلى جيجل بعد طردهم للجينويين مؤسسين بذلك مملكة صغيرة منذ 1541، بعد أن التحق بهم الكثير من الأهالي مقدمين لهم خدماتهم، مقابل تلخيصهم من الكفار، حيث سبقت هذه المرحلة محاولة تحرير مدينة بجاية سنة 1512، وهي المدية التي تم تحريرها بعد المحاولة الثانية سنة 1514، ضمن تصور كان قائما لدى الإخوة بربروس مفاده أن تخليص بجاية من التواجد الإسباني سوف يحرر كامل الشريط الساحلي الممتد من جربة إلى بجاية، وبالتالي قطع الدعم اللوجيستيكي الإسباني بين ضفتي البحر المتوسط الشرقية والغربية التي تفصلهما إيطاليا التي اتخذ منها الإسبان قاعدة لهم، إلى جانب الاستثمار في الرصيد التاريخي لبجاية الوسيطية التي كانت آخر تمثلاتها هي المدينة الإمارة في العهد الحفصي، التي انتقل أشرافها إلى تونس حيث قاعدة خير الدين يطلبون العون للتخلص من الإسبان حيث ورد في كتابهم " إن كان ثمة مغيث فليكن منكم أيها المجاهدون الأبطال، لقد صرنا لا نستطيع أداء الصلاة، أو تعليم أطفالنا القرآن الكريم، لما نلقاه

[116]- مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية محمد حجي، محمد الأخضر، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ج1، ص، 222.

[117]- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص، 25.

من ظلم الإسبان، فها نحن نضع أمرنا بين أيديكم، جعلكم الله سببا لخلاصنا بتسليمه لنا إليكم، فتفضلوا بتشريف بلدنا وعجلوا بخلاصنا من هؤلاء الكفار"[118].

يحيل منطق الوفود والأعيان في بحثهم عن الخلاص، إلى تحكم هذه الفئة في مصائر المدن، انطلاقا من الرغبة في العيش في كنف الحاكم الذي يدين بالإسلام، رغم اختلاف منطلقاته السياسية وتصوراته الايديولوجية، لذلك يبدو أن هذا التصور قد ساد في المدن الساحلية المفتوحة على مختلف الصدامات والصراعات، وبالتالي ليس من محض الصدفة لما أن يسلك سكان الجزائر نفس السلوك، عندما انتهزوا فرصة وفاة الملك الإسباني فرديناند سنة 1516، حتى نقضوا المعاهدة المفروضة عليهم، وامتنعوا عن دفع الخراج، الذي فرض عليهم بعدما تحول سكان الجزائر إلى قراصنة وصاروا يغيرون على جزر ميورقة ومنورقة، وحتى شواطئ إسبانيا، لذلك كانت قلعة البينيون والجزية رد فعل اسباني على ما حدث حسب الحسن الوزان[119]، لكن كانت الفرصة مواتية وأرسلوا "إلى بربروس ليكون قائدا لهم، نظرا لقيمته العسكرية العظيمة وكفايته في محاربة المسيحيين"، رغم معارضة سالم تومي لهذا التوجه الذي لا شك سيؤثر على عرشه هل الجزائر[120].

في المقابل يبدو أن الإخوة بربروس كانوا ينظرون على أن مدينة الجزائر تشكل عمق عسكري يُمكن من كسر المد الاسباني من بجاية إلى وهران وتشتيت قواعده التجارية في حوض المتوسط، لذلك لم يتردد عروج في تلبية دعوة وفد المدينة الذي استقبله في مقره المؤقت بجيجل، حيث أعد عروج ستة عشر سفينة بمدافعها وذخيرتها وأرسلها مع نصف جنوده بحرا ، وأما النصف المتبقي والبالغ عدده حوالي 800 فقد توجه برا إلى مدينة الجزائر بقيادة عروج، وفي الطريق انضم إليه 3000 من رجال القبائل[121]، وفضل عروج التوجه أولا إلى قلعة شرشال التي تبعد بحوالي 150 كلم، فتمكن منها وترك بها حامية ثم عاد إلى الجزائر فدخلها، ولم يلبث أن التحق به أخوه الأكبر إسحاق رايس على رأس أربعة قطع بحرية مشحونة بالرجال والعتاد، ومزودة بخمسة عشر مدفعا بعثها إليه أخوه خير الدين رايس من تونس[122].

7.بناء توازنات جديدة :

تحول الإخوة بربروس إلى منافس قوي للزعيم المحلي سالم تومي، الذي أخذ يفقد في نفوذه وحضوته، لذلك وجد من الضروري أن يحافظ على هذه المكانة، خاصة بعد خيبة الأمل التي عمت أهالي المدينة جراء فشل عروج في

---

[118]- مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية وهيبتها العالمية قبل 1830، المؤسسة الوطنية للطباعة والنشر، الجزائر، 1981، ص، 58.

[119]- الحسن الوزان، المصدر السابق، القسم الثاني، ص، 38.

[120]- المصدر نفسه، ص، 39

[121]- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا، 1492- 1792، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، ص، 158.

[122]- محمد دراج، المرجع السابق، ص، 234، 235.

تدمير حصن البنيون رغم قصفه له لمدة عشرين يوما، إلى جانب السلوك الفظ الذي أبداه الجنود الأتراك اتجاه السكان الذين عمهم السخط والتذمر، وخشية عروج من تنامي هذه الحركة التي تقف في وجه طموحاته عمد إلى قتل سالم تومي بعد أن خنقه في الحمام[123]، ايذانا بتوجه يقود نحو تصفية كل القيادات المحلية والرموز الأهلية، في ظرف أصبح فيه عروج غير مرحب به بعد أن عاود الأهالي التواصل مع الإسبان المتحصنين في قلعة البينيون، واتفقوا معهم على إحراق سفن عروج الراسية في الميناء، وحينما يخرج الأتراك لإخماد النيران، يعمد الأهالي إلى غلق أبواب المدينة في وجوههم فلا يستطيعون دخولها، وفي هذه الأثناء يسارع الجنود الإسبان إلى المدينة بعد أن تفتح لهم الأبواب ، عندها يقتلون عروج وينصبون بدله يحي ابن سالم تومي الذي كان قد لجأ إلى الإسبان في وهران طالبا منهم التدخل لاستعادة ملك والد المغدور[124].

كيف وصلت أخبار الانتفاضة على عروج حسب محمد دراج ؟ المهم أن الأمر انتهى حسب هايدو في ربيع سنة 1517 إلى غدر عروج بأهالي المدينة الذين قصدوا المسجد الكبير لآداء صلاة الجمعة ومعهم عدد معتبر من الجنود الأتراك ومعهم عروج، حيث سارع الجنود إلى غلق أبواب المسجد وأمر عروج باعتقال وقتل عشرين من السكان الأهالي الذين اتهموا بتدبير الانقلاب، حيث عرضت رؤوسهم وأجسادهم في الشارع لترهيب الناس، حتى لا يفكروا مرة أخرى في الانقلاب على الأتراك[125].

إن لجوء يحي بن سالم التومي إلى الإسبان دفعهم إلى تنظيم حملة ضد مدينة الجزائر سنة 1516، حيث أصدر الكاردنال خمينيس أمرا بإرسال خمسة وثلاثون سفينة والتوجه إلى الجزائر، لكن هذه الحملة فشلت، ليعاود الإسبان الكرة في نفس السنة مرسلين أربعين سفينة وهي الحملة التي فشلن بدورها، عندها بدأ مصير مدينة الجزائر يتشكل وفق طموحات عروج الذي أعلن نفسه سلطانا عليها وضرب العملة باسمه وأخذت المناطق المحيطة تدين له بالولاء والطاعة كما أرسلوا له الخراج[126].

إن أكثر الظواهر التفاتة هو جنوح القيادات المحلية إلى الطرف الإسباني على حساب الإخوة بربروس، بل وتجاوز الاسبان إلى مرحلة ترتيب السلطة، فهذا الأمير الزياني يحي الثابتي أيده الإسبان على حساب عمه، مرسلين له دعما عسكريا، وهو ما دفع عروج إلى إرسال أخيه خير الدين على رأس قوة عسكرية إلى تنس التي استولى عليها ، مما اضطر الثابتي إلى الفرار تحت جنح الظلام بمن معه من الجنود الإسبان[127].

---

[123] -Diego de Haedo, *Histoires des Rois d'Alger*, traduite et annotée H.d.De Grammont, Adolphe Jordan, Alger, 1881, p,23,24

[124]- محمد دراج، المرجع السابق، ص، 237.

[125]-Diego de Haedo, *op.cit*, p, 24.

[126]– الحسن الوزان، المصدر السابق، ص، 39.

[127]- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص، 168، 169.

أما تلمسان عاصمة الزيانيين فيبدو أنها أخذت تتهاوى على المسرح السياسي بفعل الهزال الذي أصاب البيت الحاكم، فتحول التنافس بينهم إلى ظاهرة واكبت هذه المرحلة الحرجة التي شهدت تقلبات عالمية بارتدادات داخلية، أثرت بشكل مباشر على الزيانيين الذين حاولوا الحفاظ على إرثهم السلطوي بتفعيلهم لكل آليات المواجهة المشروعة، التي منحت حسب الوثائق الأرشيفية الأفضلية للإسبان على حساب وافد مجهول يتحين الفرصة للانقضاض على السلطة، وهو ما بدى لهم أنه تهديدا لكيانهم القائم منذ قرون، خصوصا وأن لعبة القوة والجبروت أصبح ميدانها البحر الذي باتت يتنازعه الأتراك والإسبان، بينما الزيانيون كانوا بتقاليد برية تجانب كثيرا ميدان البحر[128].

قد يبدو غريبا منذ الوهلة الأولى شيوع ظاهرة تحالف القوى المحلية مع الإسبان ضد الإخوة بربروس، لأن تصورات العصور الوسطى تقود الباحث إلى "أن المسلم تحالف مع الكافر ضد أخيه المسلم" في الوقت الذي كان فيه من المفروض أن يحدث العكس، وهو ما دفع ببعض الباحثين إلى اصدار الأحكام الجاهزة في كل حادثة تتعلق بتواصل السكان المحليين أو قادتهم مع الإسبان فكانوا يصيفونهم هؤلاء الباحثين بالخونة، والمتواطئين والمتآمرين، على غرار سالم تومي، ويحي الثابتي، أبو حمو الثالث[129]، ولا ندري لماذا هذه القسوة على رموز محلية يمثلون تجربة الجزائر التاريخية، مهما كان نوعها ولونها لأنها مراحل لا بد منها للوصول إلى الدولة الوطنية التي تستند إلى تاريخيتها وتجاربها، التي تصنف في مرحلة ما قبل الدولة الوطنية ؟ والملفت أن هذه الأوصاف صدرت من فئات محلية يبدو أن المشروع العثماني ألهمها أكثر من أي مشروع آخر حتى لو كان محليا.

في الوقع لرصد هذه المعضلة وارتداداتها حتى على الكتابة التاريخية، كنا بدورنا طرحنا تساؤلا عن دافعية التجارب السياسية المحلية للتحالف مع الإسبان الذين استأصلوا المسلمين من الأندلس بعدما أشهروا في وجوههم حربا مقدسة استندت إلى محاكم التفتيش ؟ لكن يبدو أن الوثيقة أصدق من العاطفة الدينية، فما أرسلته لي أحد الزميلات التي تتردد على الأرشيف الإسباني يقدم مقاربات للتوافق القائم بين الأسر الحاكمة البربرية (على غرار الحفصيين والزيانيين) والإسبان، حيث جاء في أحد الوثائق السبعة التي أرسلتهم لي هذه الزميلة، وهي عبارة عن مراسلة ..... جاء فيها " بسم الله الرحمان الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، الحمد لله والشكر لله، من عبد الله محمد أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته إلى الملك الأجل .....الشهير الرفيع ملك أرغون وبلنسية ومرسية ؟ برجلون جافمو ابن الملك .....أما بعد فكتابنا هذا إليكم من حضرتنا بتونس ....ونعم الله سبحانه ...مستمر ...بدوام للشكر ثابتة مستقرة والحمد لله حمدا ينذر بالمزيد ويشعر بالجديد من نعمه فالجديد وإلى هذا فقد وصانا كتابكم الخطي عندا على يدي ثقتكم وخديم داركم يبربسوط

[128]- محمد دراج، المرجع السابق، ص، 237.

[129]- على سبيل المثال نذكر محمد دراج، المرجع السابق، ص، 235- 247/ أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص، 169

وعلمنا صوله ومعانيه ونحن عاملون في أمرنا معكم على **ما بيننا من المودة وحفظ العهد والوفاء** به وبعد الافطار لا تتصل بكم الأخبار على جهتهما بل يقول كل صاحب عرض ...وعملنا على ما يوافقكم من حفظ الشرف التي يقتضيها الصلح وكل من يصل من بلادكم الداخلة تحت حكمكم يحمل على الرعاية والاعتناء والآمان وحديث صقلية ومن يقصدها من رعيتكم من جلالكم يتصرفون في ؟ ومن عمارة الأجفان القروانية المضرة للمسلمين، فإذا الحقتهم أذية من المسلمين ....إليكم وتشكوا وقالوا نحن رجالك ورعيتك وضرنا صاحب البحر بحضرة تونس وليس إلا من ؟ كذلك وولد لح؟ عمر ببلادكم جهارا ووصل بأجفانه علامكم ....ربيع الثاني من عام سبعة وسبعمائة." [130]

أما المراسلة الثانية فجاء فيها " بسم الله الرحمان الرحيم، صلى اله على سيدنا ومولانا محمد ﷺ، يعلم من يقف على هذا المكتوب الكريم أنا عبد الله علي أمير للمسلمين إبن مولانا أمير المسلمين سي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين ....بن عبد الحق سلطان راكش وفاس وسجلماسة ودرعة وأسفي وأزمور وسلا ومكناسة وطنجة وسبتى وتلمسان ووهران ومليانه والجزاير وآخر الفتح، وذلك لما وصلنا من كتاب محل الولد السلطان..المرفع سي الحجاج صاحب غرناطة وما إليها من البلاد والأندلسية صحبة رسوله القايد المكرم علي بن كماشة يطلب منا أمضاها عقدة من الصلح على يدي رسوله علي للمذكور ومع السلطان المكرم ولايته دون نظر سلطان أرغون وما إليه من البلاد والجزر على بلاد السلطانيين المذكورين وبلادنا بإسعافها بالإذن في ذلك لمحل ولدنا المذكور وفقنا على مضمون العقد المذكور فانعمنا بإمضاء الصلح المسمى المنعقد على بلادنا الشرقية والغربية وعلى بلاد السلطانيين المذكورين حين ما طلبه السلطان دون نظره المذكور ان نصحح ذلك العقد بكتابنا المضمن التزام الصلح المذكور بشروطه ...امضاء تاما متصلا عاما شاملا في البر والبحر إلى مدة العشرة أعوام المذكورة فيه، لا ينقض رسمه ولا ينسخ حكمه وعلى استثنا ما استثنى تسريحه من الجانبين على ما أسفرت به واستمرت عليه العادة في ذلك، ببلادنا واشهدنا الله عز وجل على ذلك وكتب عليه خط يدنا الصادرة الكتب الملتزمة به عنا توثيقا له واشادة بصحته وحفظه ...وأمرنا بكتب هذا العهد المبارك به في يوم الخامس عشر شهر صفر المبارك من عام ستة وأربعين وسبعمائة للهجرة ، نبينا محمد ﷺ وكتب في التاريخ المؤرخ "[131].

في الواقع تكشف الرسالتين اللتين تعودان إلى القرن الرابع عشر ميلادي عن حالة وصال بين الضفتين، كانت فيهما الأسرة الحفصية أو الزيانية في وضع توافق قوامه المودة والصلح مع مملكة الأراغون حسب هذين الوثيقتين، اللتين تعكسان الوضعية السياسية المسالمة بين ما يوصف في تلك المرحلة بالممالك الإسلامية والمسيحية، التي يبدو أنها ازدادت صلابة بعد المد التركي الذي كان يبحث له عن تموقع في حوض البحر الأبيض المتوسط، لذلك تكشف

[130]- هي سبعة مراسلات حصلت عليها من قبل الزميلة الدكتورة نصيرة عزرودي ، أستاذة التاريخ الوسيط بجامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية. وهي بدورها صورتها من الأرشيف الوطني بإسبانيا.

[131]- نفس مصدر الرسالة الأولى من الأرشيف الإسباني .

التجارب التاريخية في البلاد المغاربية، عن تشكل – دائما- ثغر عسكري في مجابهة الوافد الذي يحمل مشروعا " انقلابيا"، فكانت في الفتوحات العربية منطقة الزاب مركز العلة الذي تصادم مع هؤلاء ، وانته بمقتل عقبة بن نافع الفهري، الذين كان تحصيلا لخرق بنيوي وصل إلى اهانة الفاتحين لكسيلة وهو السيد في قومه، ولم يختلف مصير عروج عن عقبة بن نافع، لأنه اصطدم بالثغر العسكري الزياني الواقع على أسوار تلمسان، فكان حتفه تحصيل اختراق اجتماعي وتصفية للزعامات المحلية بدءا بسالم تومي، وبالتالي ما أقدم عليه عروج في مدينة الجزائر من قتل واهانة للسكان جناه على أسوار تلمسان الذين عانوا من نفس التصرف، ولم يشفع له – حتى- تحالفه مع العالم المتصوف أحمد بن يوسف الملياني الذي "دعى على الزيانيين"، أو تحالفه مع أسرة آل المقراني، لأن تلمسان بفعل تمرسها السياسي الطويل تحولت إلى ثغر عسكري مقاوم لمد تركي انقلابي يوظف حربة الدين، وهو المد الذي تفككت خيوطه نهائيا بعد اصطدامه بآخر الممالك البربرية في البلاد المغاربية وهم المرينيين.

المحاضرة الثانية :

المقاطعـــــــــــات السياسيـــــــــــــة

(البايلك)

1.تشكيل الضلع الغربي على حساب الإرث الزياني :

بمقتل عروج على أسوار تلمسان لم تحسم الأمور بعد للأتراك الذين يكونون قد حسموا أمرهم في جعل مدينة الجزائر مركزا لسلطانهم، حيث عمد خير الدين بربروس أخو عروج إلى ربط مصير هذه المدينة وأحوازها بالدولة العثمانية، خاصة بعد أن فقدت رموزها السياسية الذين تمت تصفيتهم من قبل عروج، وفقدت بذلك توازنتها السلطوية، التي دفعت بأعيان المدينة إلى التشبث بخير الدين عله يحميهم من متآمر كافر، وهم الإسبان، لذلك ورد في مراسلتهم لخير الدين " إنه يتعين عليه البقاء في المدينة للدفاع عنها، وأنه لا رخصة له في ترك الأهالي عرضة للعدو الكافر، وإذا كان يريد الأجر بالجهاد في بلاد الروم، فإن هناك الكثير ممن يقوم به غيره، والمصلحة التامة تقضي ببقائه في مدينة الجزائر لحمايتها"[132].

لقد كان خير الدين المغامر عاجزا على الاستمرار في بناء مشروع سياسي محلي بمقاربات أخيه عروج الذي عمد إلى توظيف السيف في وجه الكيانات والزعامات المحلية، لذلك قرر خير الدين العودة إلى مغامراته البحرية التي يتقنها بعدما تمرس فيها، وأمام الفراغ السياسي الذي أصبحت تعيشه مدينة الجزائر رغب أعيانها في بقائه كزعيم حامي للديار، لكن يبدو أن خير الدين كان مدركا لحجم الهوة الموجودة بين الأتراك والسكان المحليين، إلى جانب منغصات الاسبان، وهو ما يحول دون تركيب حكم محلي قرصني على ضفاف المتوسط، لذلك رأى أنه من الضرورة ولنجاح هذا المشروع البربروسي الواعد عليه أن يرتبط بكيان قوى امبراطورية فرضت جبروتها بلعة القوة والحرب لذلك وجد أن الولاء ودعاء الخطبة للسلطان العثماني وحدهما القادران على إعطاء نفس حمائي لمدينة الجزائر، عندها انتقل الوفد سنة 1519، على رأسه ابن القاضي ممثلا لأعيان المدينة إلى السلطان العثماني، لتقديم قرابين الولاء المديني، ومعهم "هدية عظيمة " وهو الولاء الذي قبله السلطان سليم الثاني التواق في هذه المرحلة -وبعد انتصاره على المماليك- إلى مد امبراطوري في الحوض الغربي للبحر المتوسط، مرسلا بذلك 2000 جندي من قوات سلاح المدفعية (طوبجولر) و4000 من المتطوعين والانكشارية، أما خير الدين القائد المرغوب فأرسل إليه السلطان بالسيف وخلعة سلطانية والسنجق (العلم) وفرمانا يقضي فيه بتعيينه بيلربايا على مدينة الجزائر وما وقع تحت الأتراك من سلطة ونفوذ، كما أذن للسكان في صرف الخطبة والسكة إليه، وقد عاد وفد مدينة الجزائر من اسطنبول عام 1520، وهو التاريخ الذي أخذت تتشكل فيه بوادر مقاطعة عثمانية ستعرف لا حقا بالجزائر أو جزائر الغرب[133].

لقد أصبحت الظروف مواتية لخير الدين كي ينتقل في مشروعه التوسعي -الذي يتوافق والرؤى العثمانية- من المدينة المقاطعة (الجزائر) إلى المقاطعة –المغاربية- الواسعة والمتمردة على القطرية الضيقة، فكان اخضاع تنس –

---

[132]– ابن أبي ضياف، اتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان، المجلد2، وزارة الشؤون الثقافية، ص، 10.

[133]- خليفة ابراهيم حماش، العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من سنة 1798 إلى 1830، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة الاسكندرية، 1988، ص، 30

مرة أخرى- ثم تلمسان بداية هذا المشروع الذي امتد إلى مستغانم وقلعة بني راشد، وبذلك كان الإرث الزياني الذي وقف في وجه عروج، هو الهدف الأول لخير الدين الذي انطلق منه لتحقيق طموحاته السياسية التوسعية التي اتجهت بقوة نحو الدواخل بغية تمتين الساحل.

التف بعدها خير الدين إلى الزعامات المحلية التي باتت تشكل تهديدا لطموحاته، على رأسهم أحمد ابن القاضي أمير كوكو -وحليف الأمس- الذي تحالف مع السلطان الحفصي لصد المشروع التركي في القسم الغربي من المملكة الحفصية، فتحصن ابن القاضي في بيئته وسط أهله وذويه، والتفت حوله قبائل آيت يحي ، أيت بوشايب، وآيت فراوسن، كما يعضده 5000 رجل يحملون السلاح، كما تحالف مع البحارة التركي قارة حسن بعدما وعده بأن يجعله قائدا للأسطول ووالیا على غرب الجزائر، وبذلك تحققت شروط القوة لدى ابن القاضي والتي مكنته من تحقيق انتصار نوعي على قوات خير الدين، ودخوله إلى مدينة الجزائر التي حكمها لعدة سنوات اختلفت المصادر فيها بين ثلاثة إلى سبعة سنوات، (1520- 1527)[134]، كما رسم تحالف مع الإسبان حسب أحد الوثائق، في المقابل عمد خير الدين إلى التنقل بين جيجل وجزيرة جربة، عمد خلالها إلى توثيق صلته بأمير قلعة بني عباس المنافس لابن القاضي في بلاد القبائل، كما مد نفوذه إلى مدينة القل ثم إلى قسنطينة وعنابة في الفترة ما بين 1520 - 1522[135]، وبهذه الحركة المدروسة استطاع خير الدين أن يفكك خيوط المد الحفصي في شرق الجزائر ، أما ابن القاضي هذا الزعيم القبلي فلم يجد بيئته التي تحتضنه وتحتضن مشروعه السلطوي الذي لا يقوى على صد التقلبات والتعايش مع الارهاصات التي مصدرها البحر الأبيض المتوسط، حتى أنه منع بعض سكان الأندلس من النزول في مدينة الجزائر، التي بقيت تشكل في المشروع التركي التوسعي العاصمة السياسية والعسكرية لذلك بقي مشروع خير الدين قائما مترصدا لهذه المدينة الساحلية التي استطاع استعادتها بعد انتصاره على ابن القاضي، ثم على حليفه قارة حسن الذي كان يتحصن ضواحي شرشال، غير أن سكان مدينة الجزائر لم يعودوا يتحملون الوجود التركي الذي يختلف عنهم ذوقا وسلوكا ولسانا، فكان أن انتفضوا في وجه خير الدين (سنة 1527)، الذي عمد مثل أخيه عروج إلى توظيف السيف مُعدما كل متردد لهذا التواجد أو متمردا عنه داخل المدينة وخارجها[136].

في هذه الظروف المتقلبة لم تترسخ بعد تقاليد ولاء الأمراء المحليين لخير الدين، حيث فك مولاي عبد الله "الأمير" الزياني الارتباط مع خير الدين رافضا لمدة حوالي ستة سنوات دفع ما عليه من التزام ضريبي، كما قطع الخطبة باسم السلطان العثماني ايذانا بوقف المد الخليفي، والعودة إلى الدعوة إلى السلاطين الزيانيين، في هذه الظروف كان فيه القائد الذي فرضته ظروف البحر (خير الدين)، منشغلا لما يعيشه البر من انتفاضات على الأتراك وصلت حد قطع

[134]- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص، 45.

[135]– شارل بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، ترجمة نبيه أمين، ومنير البعلبكي، بيروت، 1968، ص، 450، 451.

[136]- مذكرات خير الدين بربروس،

الصلة بمؤسسة الخلافة من قبل الزيانيين، لذلك عمد خير الدين إلى توجيه حملة عسكرية ضد تلمسان انتهت بإعدام مولاي عبد الله، وتنصيبه بدله ابنه محمد مقابل قراءة الخطبة باسم السلطان العثماني، وصك العملة باسمه، مع دفع الالتزامات الولاء الجبائي الذي بلغ 90 ألف دوقة ذهبية[137].

2.تشكيل الضلع الشرقي على حساب الإرث الحفصي :

بدأت عملية تصفية الإرث الحفصي من خلال السيطرة على العواصم الأميرية، وهي بجاية التي كانت أول إمارة وقعت تحت النفوذ التركي لوقوعها الساحلي في عمق الأحداث المتوسطية، أما قسنطينة فكانت تقع – إلى جانب بجاية- في الفضاء الأكثر هشاشة بسبب بعدها عن مقر السلطة التي أصابها مرض مزمن وأصبحت غير قادرة على تحكمها في أجنحتها الإدارية، التي بقيت تدار بتقاليد ولائية تستند إلى الأسر "الأرستقراطية البلدية " بلونها الورع والمتدين، فكانت السلطة الحفصية بتونس تتقوى بسلطانها على مدينة قسنطينة ومحيطها بتحالفها مع أسرة بن عبد المؤمن، ذات المكانة الاجتماعية حتى أنها تتربع نفوذا على حي الجابية الذي تملك به مسجدا، كمؤشر على وجاهة مدينية، طبعا خلص هذا التحالف القائم بين الأرستقراطية الأسرية والسلطة الحاكمة إلى تصريف امتياز معنوي إلى أسرة بن عبد المؤمن التي أصبحت تحظى بقيادة أركاب الحج إلى البقاع المقدسة[138].

أما بعد دخول الأتراك إلى المدن الساحلية، فنصبوا أهدافهم نحو الدواخل كبعد حمائي لقواعدهم الساحلية، التي يبدو أن قسنطينة الإمارة -البعيدة- قد شكلت هدفا مبكرا لخير الدين منذ سنة 1517 حسب الكاتب الفرنسي فايسيت، ومارسيي، وهاجمها حسن بن خير الدين سنة 1519، ثم خرجت عن الترك وعادت مرة أخرى إلى حكم الحفصيين، ليستردها الترك سنة 1534، مدعمين حكمهم فيها، ويذكر ابن أبي ضياف " أنه لما بويع الحسن بن محمد الحفصي بعد وفاة والده محمد سنة 1526، خرجت عن طاعته سوسة والقيروان واستولى الترك على قسنطينة وتغلب الأعراب على جل البلاد وفي أيامه دخل خير الدين باشا مدينة تونس"[139]، ثم خرجت قسنطينة عن حكمهم إلى أن استردوها سنة 1567، ثم خرجت المدينة عنهم مرة أخرى سنة 1572، واستطاع الأتراك السيطرة عليها بشكل نهائي، لكن ما يثير في هذه الأحداث هو عدم استقرار المدينة على سلطة تحكمها ؟

في الواقع إن ما حدث في قسنطينة لم يختلف كثيرا عما وقع في باقي المدن التي تتركز فيها ظاهرة الأعيان والأسر المتنفذة ذات السلط الديني، حيث التموقع الذي يضمن لها مصالحها المادية والمعنوية هو الفيصل في ترتيب البيت المديني الذي عاش تجاذبات اسبانية تركية، خاصة في المدن الساحلية التي حسم أمرها جبروت القوة وحد السيف،

---

[137] – قدم المرحوم أحمد توفيق المدني مقاربات عن أسباب انهيار الزيانيين وقوع ارثهم في يد الأتراك، وذلك بعد أن قدم مجموعة من الوثائق الأرشيفية.
أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 227– 246

[138] – فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، 2005، ص، 38

[139]- ابن أبي ضياف، الاتحاف، المرجع السابق، ج.1، ص، 191.

أما الحواضر الداخلية فوقعها تأثر بمد سلطوي ولائي "مسلم" يؤمن بالجباية أكثر من ايمانه بأي شيئ آخر، لذلك كان التموقع مع سلطة معينة سبيل لتحقيق ريع معنوي يحقق الحظوة الاجتماعية والتبجيل الديني.لقد حاولت فاطمة الزهراء قشي في كتابها قسنطينة في عهد صالح باي البايات، تقديم الحجج التي ترفع اللبس السياسي عن أسرة ابن الفقون – المنافس القوي لأسرة عبد المؤمن- التي راعت – حسبها- في مسيرتها الحفاظ على مكانتها المعنوية دون أن تمارس السياسة أو تقحم أفرادها في دهاليز الحكم، وبقيت تمارس في دور الوسيط، وبالتالي حاولت دحض أحد أهم الروايات التي وردت مثلا عند ابن العطار " أن الأتراك دخلوا إلى قسنطينة بإيعاز من أسرة ابن الفقون " بعد الترتيبات التي تمت نتيجة اللقاء الذي جمع ممثل الأسرة يحي الفقون بخير الدين بربروس بتونس سنة 1535، نافية بدورها حدوث هذا اللقاء"[140].

يذكر ابن العطار في كتابه تاريخ قسنطينة الآليات التي اعتمدوها للسيطرة على هذه المدينة، حيث كتب يقول " وخالف سيدي عبد المؤمن وأهل حومة باب الجابية على الترك، وقابلوهم ثلاث سنين إلى أن تحيلوا على الشيخ سيدي عبد المؤمن، وكانت له مشيخة البلد صالحوه ولم يزالوا ينصبون له حبائل المكر والخداع حتى تمكنوا به دعوه لضيافة بقصبة المنصورة فأجابهم وخرج إليهم آمنا فقتلوه وسلخوا جلده وملأه قطنا، وبعثوا به إلى الجزائر ودفنت جثته بمسجده المعروف به اليوم، وكان سيدي عبد المؤمن هو شيخ ركب الحجاز في السنة الرابعة، يتعين للحج ويمضي معه المسلمون هو أمير ركب الحجاز، فلما قتله الترك ردوا المشيخة إلى ابن الفقون، فمن ثم صار يمشي بالركب كما كان الشيخ سيدي عبد المؤمن، وجعلوا له **حرمة عظيمة** فلا يتعدى أحد على حرمته، ولا يقاسون بما يقاس به غيره إلى غير ذلك من المبررات التي جعلت له ولذريته بعده "[141].

إن الوثائق التي وقعنا عليها بدور الأرشيف تكشف عن الريع المادي والمتمثل في العقار الفلاحي الذي استفادت منه هذه العائلة خلال حكم الأتراك العثمانيين، كما وزعوا عليهم الكثير من الأراضي والفحوص، مثل فحص القماص بمساحة 1200 هكتار، الذي منحه لهم الحاج أحمد باي ، وأصبحت العائلة بذلك تجمع بين المال والجاه والعلم، مكنها من سلطة معنوية جعلت حتى من بايات قسنطينة، ولتجنب عقاب السلطة المركزية في الجزائر، يلجؤون لبيت لفقون طلبا للمشورة والحماية مثلما وقع مع صالح باي[142].

[140]- فاطمة الزهراء قشي، المرجع السابق، ص، 40-45

[141]- أحمد بن المبارك بن العطار، تاريخ بلد قسنطينة، تقديم عبد الله حمادي، در الفائز للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة، 2011، ص، 125.

[142]-محمد صالح بن العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك إلى قسنطينة واستلائهم على أوطانه، تحقيق يحي بوعزيز، دار هومة، الجزائر، ص، 83.

بعد سقوط مدينة قسنطينة في يد الاحتلال الفرنسي قام فالي بتوظيف السلطة المعنوية التي تتمتع بها العائلة في المدينة، فعين حمودة بن الشيخ لفقون شيخا للبلد، منصب ترجم حفاظ العائلة على مكانتها كأحد مفاتيح حكم مدينة قسنطينة[143].

وكان مقابل توظيف السلطة المعنوية للعائلة، حرص إدارة الاحتلال في الحفاظ على مكتسباتها المادية، تمثلت خاصة في الأراضي التي امتلكتها في المرحلة العثمانية، منها أراضي أولاد جبارة ببني والبان (جنوب غرب سكيكدة حاليا)، التي انتزعتها منها الإدارة الفرنسية، ثم أعادتها إليهم بموجب قرار 11 ماي 1861، لكن العائلة تنازلت عن القسم المشجر من هذه الملكية، لتعوضها إدارة الاحتلال في النقاط التالية:

1-أراضي أولاد بوحلـــــوت (3465هكتار) وأولاد بوحامـــة (1014هكتار) بميلـــة.

2-أراضـــي أولاد وارزق (2626 هكتار) ببيـــزو(ديـــدوش مـــــراد حالـــــيا)

3-عزلة شعبة القمح (732 هكتار، و75 آر) وعزلـة هنشير الباي (440 هكتار و85آر)

بمجال عامر الشراقة[144].

تحصلت بذلك عائلة الفقون على مساحات من أخصب أراضي صراوات عامر الشراقة بامتداد واحد بلغت مساحته الإجمالية 1173 هكتار و 60 آر، حيث قام لاحقا عمار بن الشيخ لفقون وإخوانه بتسخير السيد قوتيي اوبتار (Gautier Aubeterre)، خبير للأراضي لتقسيم أراضيهم بشعبة القمح وهنشير الباي إلى قطع كبيرة توزعت على أفرادها، وهي الأشغال التي أضفت إلى تقسيمها إلى تسعة قطع تمتد بشكل طولي من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي. وبتاريخ 05 أكتوبر 1882 تقدم بعدها أفراد العائلة إلى الموثق سيكالدي (Ceccaldi)،الذي أجرى لهم القرعة ليعرف كل واحد قطعته التي قدر معدل مساحتها بـ130 هكتار[145].

يتحدث عبد الكريم الفقون صاحب كتاب "منشور الهداية" عن فتنة عظيمة وقعت بمدينة قسنطينة سنة 1567، لما ثار أهلها على الحاكم التركي، ليتدخل الجد (بنفس الاسم) في اخماد هذا التمرد على سلطة يبدو أنها لم تستقر لها الأوضاع بشكل جيد، حيث يقول ورد في منشور الهداية " " وكان ممن لا تأخذه في الله لومة لائم، امتحن زمان الفتنة الواقعة بالبلد سنة خمسة وسبعين، حين وجهه أهل البلد لما قاموا على واليها ، إذ ذاك وجهوه لمحروسة

---

[143]-المصدر نفسه، ص، 147.

[144]- علاوة عمارة، من عالم الدوار إلى البلدة الريفية، تاريخ منطقة بني حميدان من أقدم العصور إلى غاية سنة 1962، منشورات مؤسسة حسين رأس الجبل للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2015، ص، 416.

[145]-Département de Constantine, *Plan du lot attribuée à monsieur Omar Leffegoune sur les Azels des Henchir El Bey et Chaabet El Guemah par tirage au sort entre lui et sesfrères,dresse par monsieur Cecalbi notaire, le 05 octobre 1882.échelle de 0,001 par 10 mètres*.D.R.C.C.

الجزائر دار سلطانها وصحبه[146] أبو محمد عبد الطيف المسبح المذكور وغيره، فلما انصرفوا خلعوا البيعة[147] وصادفهم خبر ذلك بعد استقرارهم بدار السلطنة المذكورة، وبعد أن قضوا مآربهم وما بعثوا من أجله وفرح بهم الأمير[148] فرحا كبيرا وأحلهم دار الكرامة وأنزلهم منزلة قربى "[149]، طبعا هذه الواقعة تعبر عن حالة انسجام ترسخت بين السلطة في الجزائر والأسر المتنفذة في مدينة قسنطينة، وهو ما مهد لتمتين أركان تبعية المدينة للسلطة المركزية التي عمدت إلى تعيين عليها أول باي مدني خلال الحاكم العسكري، وسمحت هذه الظروف بتوسع سلطة الأتراك التي وصلت إلى تخوم الصحراء.

3.إدارة المقاطعات (نظام البايلك):

استندت الإدارة على واقع التوسعات التي حققها العثمانيون على أرض الواقع، حيث تمكن عروج من السيطرة على منطقة الوسط الممتدة من جيجل شرقا حتى مستغانم غربا، ومن حدود البحر شمالا حتى المدية جنوبا، لتتشكل بذلك هوية سياسية عبر هذا المجال الاستراتيجي مزاحمة بذلك الإمارات المحلية على غرار إمارة كوكو، أو الأسر البربرية على غرار الزيانيين في تلمسان والحفصيين في تونس وشرق الجزائر، وأيضا الإسبان الذين يتمركزون على المدن الساحلية، ومن هذا الواقع الجيوسياسي أصبحت مدينة الجزائر ملجأ عسكريا لعروج يدير منها الولاءات السياسية التي تستند إلى الضريبة، وعلى إرث عروج انطلق خير الدين في توسيع نطاق هذا الكيان المتنامي الذي استطاع القضاء على الإرث الزياني جهة الغرب والإرث الحفصي في شرق الجزائر، حيث بقي هذا المجال محل إدارة تستند إلى المقاربات العسكرية، كون الرفض المحلي لا زال قائما يستند إلى انتفاضات وثورات عارمة[150].

لكن منذ عهد حسن باشا ابن خير الدين أخذت تتشكل معالم منظومة إدارية تدير المصالح العامة للسلطة المركزية في الجزائر، لذلك ظهرت منظومة البايلك وهو مصطلح تركي قديم أخذه الأتراك عن المغول والسلاجقة، وأول من تولى إمارة البايلك عند الأتراك هو عثمان ابن ارطغرل مؤسس الدولة العثمانية وذلك سنة 1280[151]، ومصطلح بايلك أصله بكلك وهو مشكل من مقطعين "بك " و "لك"[152] فأما " بك " وتلفظ باي في الأصل

---

[146]- المقصود هنا الجد عبد الكريم .

[147]– المقصود لما انصرف الوفد نحو الجزائر خلع أهل قسنطينة البيعة من العثمانيين.

2 [148]– هو مُحَمَّد بن صالح رايس .

[149]– عبد الكريم الفقون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تقديم وتحقيق وتعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1987، ص، 48.

[150]- على غرار ثورة ابن صخري خلال القرن السابع عشر

توفيق بن زردة، الكنفدراليات القبلية الحدودية ودورها في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني– الحنانشة انموذجا، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، قسنطينة 2013–2014، ص، 86– 94.

[151]- عبد الرحيم بن حادة، العثمانيون، المؤسسات، الاقتصاد والثقافة، اتصالات سبو، الدار البيضاء، 2008، ص، 313.

[152]- خليفة حماش، أهمية المصطلحات التركية في دراسة التاريخ والحضارة الإسلامية" ضمن كتاب تحية وتقدير للأستاذ خليل الساحلي أوغلو، إشراف عبد الجليل التميمي، ج1، زغوان، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، 1997، ص، 145.

فهو لقب أبناء السلاطين الحائزين على لقب الباشوية وذريتهم، ثم استعمل لقبا لمعظم كبار الموظفين والقادة الذين يكلفون بإدارة الولايات ويسمون وزراء الخارج، وقد اعتمده العثمانيون كلقب لحاكم الولاية أو المقاطعة، واشتق منه لفظة " بيكلر بك" التي تعني أمير الأمراء، وهي الرتبة الثانية في رتب الباشوية، وتلفظ " بيلربي" لأن الكاف الفارسية تنطق ياء[153].

وكلمة بايلك صارت اصطلاحا لكل ما هو ملك للدولة، فيقال طريق البايلك، وأرض البايلك[154] ومصطلح البايلك في الجزائر يقصد به حكومة الباي وإدارته، وتعني أيضا كل ماهو عمومي وملك للجميع، وذكر صاحب منشور الهداية مصطلحات منها: القايد، ووالي البلدة، والأمير دون أن يورد لفظة الباي أو البايلك[155]، وهذا يعني أن استعمالها قد شاع في فترة متأخرة من الحكم التركي، كما استخدمتها الوثائق الرسمية الفرنسية في القرن التاسع عشر[156].

والبايلك هو عبارة عن وحدة جغرافية، ومنظومة لتوزيع السلطة، بنظام اقتصادي مستقل، وبنية إدارية ركبت على المجتمع القبلي، بحيث تقاطعت مع الذهنية المحلية وأعراف المجتمعات القبلية، وكان على رأس كل بايلك بايا[157] ، والباي هو الأمير أو ما يساويه في السلطة مع اختلاف مقومات سلطته عن الأمير في الإمارة المستقلة استقلالا ذاتيا أو تاما، وتقوم سلطة الباي على فرق الإنكشارية وعليه فسلطته مكملة لسلطة السلطان الذي يقطن دار السلطان، بينما يقطن الباي دار الإمارة مركز سلطته. كما أن وظيفة الباي ليست وراثية مثل الأمير، وإنما يمنح هذا المنصب لأعلى المتقدمين له، وليس على الباي فيما بعد إلا أن يرسل إلى دار السلطان حصيلة الضرائب مرتين في السنة (الدنوش الصغير) فضلا عن مرة كل ثلاث سنوات شخصيا (الدنوش الكبيرة) ولم يشكل البايات في الجزائر أبدا أسرا حاكمة ولم يسعوا إلى ذلك[158]، وتعد عملية حمل الدنوش إلى مدينة الجزائر والمثول أمام الداي امتحانا عسيرا للبايات ولجاما لتحجيم هامش المناورة لديهم، فدنوش الخليفة (الدنوش الصغرى) ودنوش الباي (الدنوش الكبرى) يفسران مركزية البايلك في نطاق دار السلطان رمز الولاء للداي حاكم الجزائر[159] .إن إرتباط الباي بالداي معنوي بالطاعة والولاء ومادي بالدنوش[160]، ونفس الرابط ظل سائدا بين الباي ورعيته ببايلكه، الولاء بالضرائب وتزويد المحلة

---

[153]– محمود عامر، المصطلحات المتداولة في الدولة العثمانية– مجلة دراسات تاريخية، ع.117–118، كانون الثاني– حزيران، 2012، ص، 371.

[154] -Diran Kelekian, *Dictionnaire turc- français*, Editeur- imprimeur Mihran, Constantinople, 1911, p.273.

[155]– عبد الكريم الفقون، المصدر السابق، ص، 167.

[156] -Ministre de la guerre, *Tableau de la situation des établissement française*, 1838, imprimerie Royale, p.190

[157] -Toufik Benzerda « The Algerian Countryside Between the Beylik Systemand the Reforms of Ahmed Bey 1826-1837", El Mokadima, 112, 2023,p.112- 115.

[158] - Eugène Vayssettes, *Histoire de Constantine Sous la domination turque de 1517-à 1837*, présentation de Oureda Siari-Tengour, Editions Bouchene,2002, p31-33.

[159] - Eugène Vayssettes, *op.cit*, p. 31-33.

[160]- الدنوش Donis بدال ونون خفيفتين وهو اسم مشتق من الفعل " دونمك" ويعني العوة، وبذلك يكون المصطلح هو عودة أو رجوع البايات كل ثلاث سنوات.

في الواقع بنيت منظومة البايلك على المليشيات العسكرية، والمركزية والأعيان، أما عن المليشيات العسكرية فكان أساسها هو فرق الإنكشارية الوافدة من بلاد الأناضول دون اشراك فيها العنصر المحلي، حيث كانت هي أساس النظام السياسي وحجر الزاوية بالإدارة العثمانية بالجزائر، كما كانت هذه الفئة تتولى الغالبية العظمى من المناصب القيادية[161] (تسييس الإدارة للجيش)، ولا يمكن تحصيل الضريبة أو توريدها إلى خزائن الإيالة دون إشرافه (مركزية الضرائب)، فاحتكر القناة الأساسية للاتصال أي مادة الجباية وعملتها وصرفها، ومن هنا كان الأرتباط الوثيق بين هدوء البلاد ووحدة وصلابة الجيش[162]، وبذلك تحول البايلك إلى ملكية لعصبة حاكمة، أما فصل السلطة عن المجتمع فكانت من صميم منظومة البايلك. لقد كانت هذه التوليفة العسكرية تستند إلى الحاميات المنتشرة في عواصم البايلك، وفي المحاور الجيواستراتيجية، حيث كان يدفع إليها نصف الجيش لتأمين الموارد الجبائية ووصول الدنوش كضمان ولاء وطاعة[163] ، كما كانت تستند هذه القوة العسكرية إلى وسطاء اجتماعيين، يتم اختيارهم من الوسط القبلي ودمجهم في شكل مجموعات بشرية تحالفية، يدفع بها في مواطن النبض البايلكي على غرار المحاور الزراعية – الرعوية ومحاور المد البايلكي، على غرار قبيلة الزمول التي كانت في أصلها مجموعات رعوية وفدت من المسيلة، بعد مرحلة جفاف لتستقر على مجرى وادي الكبير ضواحي قسنطينة، ثم جعل منها رجب باي مجموعات عسكرية، تطورت لاحقا إلى مليشيا عسكرية نقلها صالح باي (1771- 1792) إلى سهول عين امليلة، حيث كانت من المهام الموكلة لها فرض الطاعة على القبائل التي رفضت تأدية الضرائب، إلى جانب حماية رحلة باي قسنطينة لتأدية الدنوش، كما أوكل إليها حراسة الطريق الرابط بين قسنطينة ومنطقة الزاب[164].

أما مؤسسة العزل كمنظومة مركزية، فكانت ترجمة لكيان اجتماعي غريب (الأتراك) معزول عن العنصر المحلي، ويمارس في السلطة الجبائية من داخل أسوار القصر من خلال قوى عسكرية متنفذة توزعت بين الانكشارية والمليشيات القبلية المكلفة بمهمة، لذلك كانت أراضي العزل التي توزع على المخازنية أو كبار موظفي القصر في محيط عواصم البايلك كنوع من القواعد الزراعية- الرعوية المتقدمة لحماية السلطة المركزية من القبائل كونها نسيج اجتماعي بمزاج متقلب[165]، لذلك كثيرا ما كان المد البايلكي ينتهي بأراضي العزل التي سنقدم حولها نماذج في حديثنا عن الحياة الزراعية والأنشطة الفلاحية، أما الضرائب فكانت حجر الزاوية في مفهومية البايلك ومن خلالها

خليفة حماش، المرجع السابق، ص، 141.

[161]- وليام شالر: مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر 1816- 1824، تعريب وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص، 42.

[162]- عبد الله العروي، مجمل تاريخ المغرب، ج3، المركز الثقافي العربي، ط1، 1999، ص، 54- 55

[163] -Devoulx Albert, *Tachrifat*, Recueil de notes historique de l'ancienne régence d'Alger, Alger, imp.du gouvernement, 1852, pp, 33-35.

[164]- توفيق بن زردة، "مسار وآليات تعمير الريف الشرقي القسنطيني خلال القرن الثامن عشر"، مجلة جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية، المجلد 3، ع.1، 2019، ص، 657- 660.

[165]- توفيق بن زردة، التحولات الاقتصادي والاجتماعية للبلاد الخلفية لمدينة قسنطينة خلال القرن التاسع عشر – مجال عامر الشراقة انموذجا- رسالة مقدمة لنيل درجة الدكتوراه علوم، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، 2017- 2018، ص، 113- 115.

تتحدد خريطة الولاءات ومدى تحكم السلطة في العمق الاجتماعي القبلي، الذي تدريه من خلال مؤسسة القيادة والمشيخة التي تدعم البعد الإقليمي للبايلك[166].

4. حدود سياسية بتوليفة جبائية (بين الجزائروتونس انموذجا):

طبيعة الوجود العثماني في الجزائر الذي جاء في شكل منظومة استهلاك وليس منظومة تنمية، لذلك كانت الجباية والضريبة ركن قام عليه أوجاق الجزائر، وهو ما انعكس على واقع الحدود السياسية للجزائر التي هي في أصلها حدود لضبط التحصيل الضريبي على القبائل، وفي النموذج الذي نقدمه في هذه المحاضرات سيتناول 2وقائع ضبط الحدود أو التخوم بين الجزائر وتونس خلال القرن السابع عشر، حيث كان يعيش في هذا الفضاء أحد أهم الأسر الاقطاعية الأرستقراطية – الريفية- والتي استطاعت أن تشكل كنفدرالية قبلية كبرى وهي الحنانشة التي كانت موضوع دراسة لي في مرحلة الماجستير[167]، حيث امتد نفوذها على الأطراف الجزائرية التونسية حت سلطة أسرة أحرار الحنانشة، لكن ما هو أصل هذه الجماعات التي سيكون لها دور في تشكل الحدود الجزائرية التونسية ؟

يعد عبد الرحمان ابن خلدون المتوفي سنة 808هـ/1405م ممن لهم باع طويل في التأريخ لقبائل بلاد المغرب الإسلامي ويكاد يكون الوحيد في الساحة مما فرض العودة إليه.فقد نالت قبيلة هوارة البربرية حيزا في مؤلفه كتاب العبر[168] التي أتى على ذكر بعض زعاماتها التي يظهر أنها كانت تنسب إلى حناش، مثل يفرن بن حناش وبعرة بن حناش وغيرهم[169].

أكد ابن خلدون أن هوارة قبل الهجرة الهلالية والسليمية لبلاد المغرب خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، إنما كانت تستقر بنواحي طرابلس وما يليها، لكن بعد هذه الهجرات لقبائل بني سليم وبني هلال انتقلت هوارة بفروعها المختلفة للعيش بأرض التلول من افريقية ما بين تبسة إلى مرماجنة (وطن وادي صراط) إلى باجة فاستقرت بالقرب من تبسة أول عشيرة من هوارة تسمى وينفن ورئاستهم في ذلك العهد كانت في ولد يفرن بن حناش،وإلى جانب تأثير الهجرات العربية في التوزيع الجغرافي لبطون هوارة، فقد أكد ابن خلدون أنها أثرت أيضا في زيهم ولغتهم ونمط عيشهم ويقول عن ذلك "...صاروا في عداد الناجعة عرب بني سليم في اللغة والزي وسكنى الخيام

---

[166]– توفيق بن زردة، المرجع نفسه، ص، 116.

[167]- توفيق بن زردة، الكنفدراليات القبلية الحدودية ودورها في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني، مذكرة مكملة لنيل درجة الماجستير، جامعة الأمير عد القادر للعلوم الإسلامية– قسنينة، 2013– 2014

[168]- عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار مؤسسة جمال للطباعة والنشر ،بيروت،مج6، 1979 ، ص ص، 139–146.

[169]–ابن خلدون،المصدر نفسه ،ص ص،142،143

وركوب الخيل وكسب الإبل وممارسة الحروب وإيلاف الرحلتين في الشتاء والصيف في تلولهم قد نسوا رطانة البربر واستبدلوا منها بفصاحة العرب فلا يكاد يفرق بينهم "[170].

ورد في الشجرة التي أنجزها ابن خلدون عن قبيلة هوارة اسم حناش بن وينفن بن لهاتة بن هوار وإن كان لم يتحدث عن أصول الحنانشة بشكل مباشر ولم يذكرهم بهذا الاسم إلا أن مختلف القراءات أكدت أن القرائن التي قدمها ابن خلدون عن المسمى حناش ومنه جاء اسم الحنانشة، وعن المجال الذي عاشت فيه هوارة ضواحي وادي صيراط وتبسة وهو المجال نفسه الذي عاشت فيه الحنانشة خلال تاريخها الطويل.كلها قرائن قوية أكدت لا محالة أن أصول الحنانشة بربرية من قبيلة هوارة يعودون في نسبهم إلى حناش وجده الأول هوار. وقد حدثنا الزركشي بدوره عن شيخ هوارة الذي يحمل اسم حناش وهو شاب برز في الحرب التي خاضها إلى جانب الموحدين ضد ابن غانية بداية عام621هـ/1224م [171].

حاول ضابط الجيش الفرنسي شارل فيرو[172] في النصف الثاني من القرن التاسع عشر التعامل مع أصول الحنانشة بأسلوب مركز ، طرح فيه مختلف الفرضيات التي استطرد في تحليلها، من خلال توظيف جميع القرائن التاريخية والشهادات الحية التي من شأنها أن تقدم إجابات واضحـــة عن أصـــول الحنانشة حيث أكد في البداية أن الهجرات العربية إلى بلاد المغرب جعلت من معرفة أصول القبائل موضوعا يصعب فك خيوطه كون هذه الهجرات إما دفعت بالسكان الأوائل إلى الانتقال إلى مناطق أخرى وتعويضها بعناصر جديدة، أو بسبب اختلاط سكان بلاد المغرب من بربر مع العرب، ومنه امتزاج العنصرين العربي والبربري وهو ما صعب من مهمة تحديد الأصول[173].

واستدل فيرو في ذلك بمجموعة من القرائن من ضمنها بعض طقوس الديانة اليهودية التي لازالت منتشرة وسط الحنانشة في بداية الاحتلال الفرنسي، كما أن أهالي القبائل الأخرى وفي شتمهم لفرد من الحنانشة كانوا يرددون عبارة تؤكد أصله اليهودي بالقول" حناش بن فناش بن فلاش بن حباش بن شالوم اليهودي"[174].

---

[170]–ابن خلدون، المصدر السابق، ص ص، 142،141

[171]–الزركشي،تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة، تونس، 1966،ص.26

[172]– شارل فيرو هو مترجم الجيش الفرنسي،عمل ضمن اللجان الموفدة للقبائل في إطار تجسيد قانون السيناتيس كونسلت 1863م اهتم كثيرا في كتاباته بالشرق الجزائري حيث نشرت له عدة أعمال بالمجلة الإفريقية ومجلة لاروكاي ،أين سلط فيهما الضوء على تاريخ القبائل مثل زواغة،أولاد عبد النور وتلاغمة وعامر الشراقة والسقنية والزمول...الخ كما اهتم بتاريخ المدن مثل جيجل والقالة، ورغم الخلفية الاستعمارية التي تتجلى في كتاباته إلا أنها تبقى دراسات لا يمكن الاستغناء عنها .

[173]- L.Ch. Féraud,«les Harar seigneurs des Hanencha»,*R.A* ,18,(1874),p.29.

[174]L.Ch. Féraud, *op.cit*,pp.30-32.

حاول فيرو من خلال هذه القرائن أن يمهد لبناء تصور مفاده أن معرفة أصول الحنانشة يستجدي الخوض في البنية الإثنية للقبيلة، فلسانهم العربي في ذلك العهد قد يوحي من جهة إلى سلالتهم العربية وبعض طقوس الديانة اليهودية التي لا زالت تنتشر في بعض أوساطهم قد تشير من جهة أخرى إلى أصولهم البربرية وبالتحديد إلى قبيلة هوارة[175] ؟

لذلك راح في هذا المسعى يسرد في تاريخ قبيلة هوارة و بني هلال وبني سليم، محاولا في ذلك تتبع فروع وتنقلات هذه الأطراف على الرقعة الجغرافية الممتدة من طرابلس الليبية غربا إلى سهول قسنطينة شرقا مذكرا في كل مرة بتأثير الهجرات العربية على هوارة[176].

كما لم يهمل وجهة نظر أهالي الحنانشة لفك غموض أصولهم، خاصة وأنهم قدموا له شجرة عائلية تؤكد نسبهم الممتد إلى الصحابي عمر بن الخطاب ﷺ جاء فيها:خالد الكبير ابن ناصر بن عثمان بن علي بن أبوبكر بن محمد بن ساعد بن جابر بن إبراهيم بن عمر بن بارة ابن محمد بن جابر بن ناصر بن عامر ابن حناش بن عبد الله ابن عمر بن الخطاب[177].

أكد الأهالي لفيرو أن جدهم حناش بن عبد الله الصنعاني اليمني وبعد أن كان يقود عرب بني سليم بالقرب من طرابلس غادروا المنطقة ليستقروا وسط هوارة ضواحي تبسة،ونضرا لنبلهم الديني كمسلمين اعترفت هوارة بسلطتهم عليها، وهنا نصب حناش الصنعاني أول خيمة له بالقرب من جبل لا زال يحمل اسم جبل حناش، الذي يقع بالقرب من قلعة سنان[178] التي لم تكن سوى قلعة صنعان نسبة إلى صنعاء باليمن[179] هذه الشجرة التي ورد فيها إسم حناش الذي ينسب الحنانشة أنفسهم إليه، ويذكر الأهالي أن حناش بن عبد الله الصنعاني اليمني قد جاء مع الفاتحين الأوائل لبلاد المغرب حوالي 66هـ /666م وهناك مكانان يعدان مهد قوتهم لا زالا يحملان اسم هذه

---

[175]–تعامل فيرو كثيرا في تدوينه لتاريخ القبائل مع الأصول، أين كان يستهل كل عمل بتسليط الضوء على هذا الجانب،وللمزيد من الاطلاع حول ذلك يرجى الرجوع إلى بعض دراساته مثل:

L.Ch. Féraud,« Notes historique sur les Tribus de la province de Constantine », *R.S.A.C*, (1869),pp.20-45.
L.Ch. Féraud, «Ferdjioua et Zouara»,*R.A* ,22,(1878).pp.05-25,82-104,161-182,241-258,321-360.
L.Ch.Féraud,«Notes historique sur la province de Constantine(les BenDjellebs)»,*R.A* ,27,(1883),pp.257-266,325-331,441-464.

[176] - L.Ch. Féraud ,Les Hrar , *op.cit*,pp.118-123.

[177]-*Ibid*,p.131

[178]– قلعة سنان تسمى كذلك بقلعة أولاد بوغانم أو مائدة يوغرطة توجد اليوم بالأراضي التونسية قرب الحدود الجزائرية هي جبال معزولة تنتهي بسطح على شكل طاولة مساحته 80هكتار،وترتفع بـ 1272متر وهو حصين توجد به منابع، يرجى الرجوع إلى:

T.Shaw, *Voyage dans la régence d'Alger au 18e siècle* .Traduit de l'anglais par E.Mac Carthy.1830. grand Alger livres. Alger.2006.p.206.

[179]- Féraud Charles Louis .,« les Harar seigneurs des Hannencha » ,*R.A* ,18,(1874),.,p.129

الشخصية وهو جبل حناش، الذي يقع بالقرب من قلعة سنان التي لم تكن سوى قلعة صنعان نسبة إلى صنعاء باليمن مسقط رأس حناش حيث شكل المكانان الحصينان مركزا لمقاومة السكان وملجأ في حروبهم الطويلة.

بعد كل ما تقدم خلص فيرو إلى نتيجة مفادها أن الحنانشة تألفت من مركب إثني متباين جمع بين العرب والبربر حدده في ثلاث عناصر هي:

1- سكان الأوراس وأريافه المجاورة المعروفون بالشاوية [180]
2- هوارة وإخوانهم العداسة وهما فرعان من زناتة
3- عرب بني سليم وبني هلال [181]

في الواقع بنيت المنظومة السياسية العثمانية على الولاء الجبائي، لأن المجتمع الريفي لا يملك ملكة الدعوة على المنابر، لذلك تبقى الضريبة عنوانا للولاء هذه المجتمعات المتقلبة المزاج، لذلك ولاؤها تحكمه الظرفية والزمنية، فتارتا تميل إلى السلطة المركزية في الجزائر وأخرى إلى تونس، رغم نفوذها الذي يصل إلى عمق بايلك الشرق الذي أكد الرحالة على غرار طوماس شو(Thomas Shaw) وديفونتان (Desfontaies) وبايصونال (Peyssonnel)، ومن المتأخرين أحمد الشريف الزهار-لا يحسب من الرحالة (1168هـ/1754 – 1246هـ/1830م)على أنه أغنى بايلك)[182] .

في الواقع تشير إحدى الوثائق الموجودة على مستوى الأرشيف الوطني التونسي والتي تعود إلى سنة 1035هـ/1626م على أن الحنانشة الكنفدرالية دونوا حجة عدلية يعترفون ضمنها بسيادة أتراك تونس عليهم وأنهم يدفعون المطالب المخزنية لباي تونس دون غيره [183].

[180]–مصطلح الشاوية يقصد به رعاة الغنم ويستعمل للدلالة على عناصر من سكان البربر الذين يعيشون حياة نصف رحل ،يرجى الرجوع إلى : حسن الوزان، المصدر السابق، ج1،ص.66.

[181]- L.Ch. Féraud , *op.cit.*,p.29

[182]– أحمد الشريف الزهار، مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (1168هـ-1276هـ/1754م-1830م) ،تحقيق أحمد توفيق المدني ،ط.2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1980.ص.35.

[183]–حافظة 212 ملف 229 وثيقة رقم 17 ،(أ. و .ت)

ومما جاء فيها : "....الحمد لله حضر لمن يشهد بعد جماعة من أعيان البلد المعروف بأرق [184] .... واعترف جميعهم أنهم وآباءهم وأجدادهم السابقين من جملة رعايا صاحب كرسي تونس المحروسة من مدة الحفاصا[185] السابقين إلى ولاية السلطان العثماني، دام عزه ونصره وأصحاب المحال [186]عسكر تونس المحروسة، منهم المرحوم مراد باي بو شواطة والمرحوم رمضان باي والمعظم مراد باي صاحب المحلة في التاريخ [187]لم يزالوا يتعاطون قبض ما ترتب عليهم من الواجبات الشرعية والمطالب المخزنية، وأن صاحب كرسي تونس المذكور هو المتولي الحكم بينهم في قضاياهم، وإذا نزل بهم أمر لجؤا إليه فيه وأن صاحب كرسي الجزائر ليس لهم عليه ولاية ولا عرفوا قط أنه وجه إليهم محلة لخلاص واجب شرعي أو مطلب مخزني منذ عقلوا إلى الآن .... " [188].

إن عملية تركيب الصورتين لما عليه الحنانشة في شرق الجزائر من هيمنتها على المراعي الجيدة ،وما هي عليه بغرب تونس يدرك أنه في هذه المرحلة كان إن - صح التعبير- التراب الجزائري يشكل موردا للمداخيل التي تستقبلها الخزينة التونسية من خلال الضرائب التي تدفعها الحنانشة التي تستغل مراعي وأقاليم تحسب ضمن نفوذ أتراك الجزائر.

إن هذا الوضع لن يبقى على حاله مطولا فكثيرا ما سنسجل أن الحنانشة ستغير من مواقفها ،اتجاه السلطة في البلدين فاليوم ستعارض طرفا لتعترف بالآخر لتدفع له الضرائب، وبعدها يحدث العكس وهكذا استمر شيوخ الحنانشة على هذا النحو، بما يوحي أن وقوعها بين سلطتين اقتضى منها انتهاج هذا النوع من التعامل الذي جعل من المصلحة الاقتصادية على رأس أولوياتها وفي نفس الوقت وبطريقة غير مباشرة ستحافظ على استمرارية العلاقات الاقتصادية بين تونس والجزائر خصوصا في ظل تضاؤل حظوظ هذه العلاقات على مستوى الحكام -[189].

احتفظ الأرشيف الوطني الجزائري[190] والأرشيف الوطني التونسي [191] بوثيقة الحدود التي وقعها الطرفان سنة 1037هـ/1628م، والتي يظهر أنها ليست من نسخ واحد، تتحدث الوثيقة عن معالم الحدود التي كانت محل إجماع

---

[184]– ملجأ طبيعي للحنانشة تقع اليوم جنوب تبسة .

[185]– والمقصود بهم الحفصيين .

[186]– المحلة هي مؤسسة جبائية تعود إلى عهد الموحدين وحافظ عليها الأتراك، وحول المحلة في الجزائر وتونس يرجى الرجوع إلى :
Peyssonnel et Desfontaines ,*Voyages dans la régence de Tunis et Alger* .publié par M.Dureau de la Malle. Gide. Paris.1838.p.63

ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص76./ أحمد الشريف الزهار، المصدر السابق ،ص.45.

[187]– هو مراد كورسو باي مؤسس حكم العائلة المرادية .

[188]–حافظة 212 ملف 229 وثيقة رقم 17 ،(أ. و .ت)

[189]–محمد العربي الزبيري، المرجع السابق، ص.102

[190]– سلمت لنا هذه الوثيقة التي مصدرها الأرشيف الوطني الجزائري في السنة النظرية لمرحلة الماجستير من قبل الأستاذة وداد بيلامي في إطار حصص دعم قدمتها لنا للتعرف أكثر على مسألة الحدود بين دول المغرب الكبير في العصر الحديث.

[191]– الدفتر رقم 2847،(أ.و.ت.)

الطرفين، وبحضور علماء من البلدين أمثال " إبراهيم الغرياني " و" تاج العارفين " و"إبراهيم الجديدي" و"أحمد خوجة"، وقد شكل هذا الصلح الذي جنب الفتن محل اهتمام العلماء آنذاك في الجزائر وتونس التي كانت تربطهم صلات ثقافية واسعة لا يمكن أن تتحكم فيها الحدود الناشئة فقد بعث " إبراهيم الغرياني التونسي" إلى" عبد الكريم الفكون " بقسنطينة برسالة يخبره فيها بتفاصيل الصلح ومن حضره من علماء وأعيان ووفود [192].

لقد كانت كنفدرالية الحنانشة بامتدادها الواسع بين البلدين في قلب صراع الحدود وإن كانت المصادر لم تتحدث صراحة إلى دورها في نشوبه أو حضور شيخها نصر في توقيع المعاهدة، إلا أنها تحدثت على انعكاسات هذه المعاهدة على الكنفدرالية، حيث باتت الكثير من مجالاتها نقاطا لحدود بين بلدين. فقد ورد في وثيقة الحدود أن الاتفاق الأول الذي جرى بين الطرفين و الذي يعود إلى سنة 1023هـ/1614م ورد فيه على أن يكون " وادي سراط " هو الحد الفاصل بينهما فما كان من غربه فهو للجزائر وما كان من شرقه فهو لتونس [193] .برز الصراع من جديد بعد أن عمد أهل تونس إلى قلعة أرق (قلعة سنان)التي كانت حينها مركزا للحنانشة وجعلوا بها نوبة ولم تكن سابقة وبالتالي خرق التونسيون المعاهدة الأولى، لكن هل كان للحنانشة دور في ذلك ؟ المصادر التي اطلعنا عليها لم تجب على هذا السؤال. لكن شكل هذا الخرق بداية لمواجهة جديدة، حيث وجهت الجزائر حملة عسكرية ضد تونس اشترك فيها مراد باي تونس آزره فيها خالد بن نصر الذي استنفر خمسة عشر ألف رجل منهم ألفي فارس [194]وخاضوا معركة " سطارة " قرب مدينة الكاف في 14رمضان 1037هـ/17 ماي 1628م حيث أرغمت القوات الجزائريين التونسيين على إبرام اتفاق جديد لضبط الحدود [195].

ورد في هذا الاتفاق مايلي:

1- يبقى مجرى وادي صراط هو الحد الفاصل بين البلدين في جهة الجنوب.
2- قلعة أرق أو قلعة سنان تخرج منها النوبة ويهدم ما فيها من البناء والعمران ولا يتعاطاها جيش تونس ولا عسكر الجزائر بعمارة وتبقى على حال الخراب.
3- يتواصل تعيين الحدود بين البلدين من وادي ملاق ابتداء من نقطة الأحيرش وقلوب الثيران إلى رأس جبل الحفا ومن هناك إلى البحر.

---

[192]- عبد الكريم الفكون، منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية، تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلاميبيروت 1987. ص ص. 216،217

[193]- الدفتر رقم 2847، (أ.و.ت.)

[194]-Bernard Roy, *op.cit.*,p.185

[195]- Adrien Berbrugger,*op.cit.*,p.406

4- الذين يعبرون الحدود من أي من البلدين لا يتم الإعلان عنهم من طرف الدولة ويعتبرون متخلفين عن بلدهم ويعدون من اختصاص البلد الذي اختاروا الاستقرار فيه فمن دخل عمالة الجزائر وحل غربي وادي سراط يكون خراجه لبايلك قسنطينة ولا يطالبه أهل مدينة تونس والعكس صحيح [196].

إن النص الأخير من الاتفاق يؤكد أن الحدود التي تم ضبطها من قبل البلدين كانت حدودا اقتصادية بطابعها الجبائي أكثر منها حدودا سياسية، كون كل طرف كان يريد ضمان مجال جغرافي معلوم يوجه له محلاته لجمع الضرائب لصالح خزينته. واستمرت بذلك الحنانشة على نفس وتيرتها في التعامل مع البلدين فقد تحصلت من وراء مشاركتها إلى جانب القوات التونسية في حرب 1037هـ/1628م على06 آلاف قفيز قمح وشعير، كما تمكنت في نفس الوقت من التملص من دفع ضريبة تقدر بـ 50 ألف ريال للسلطة بالجزائر [197] وكونها قبيلة موسعة وتعيش التضييق أحيانا من قبل السلطتين فلم تكن تتوانى أحيانا في السطو على القبائل سواء الجزائرية أو التونسية، فقد حدثنا " ابن أبي الضياف " عن إيقاع حمودة باشا باي تونس سنة 1040هـ/1631م بالحنانشة لأنهم كانوا ينهبون أموال التونسيين [198].

وفي رسالتين تعودان إلى النصف الأول من القرن الثالث عشر هجري التاسع عشر ميلادي الأولى بعث بها مصطفى باي قسنطينة لشيخ الحنانشة، والثانية بعث بها أحمد باي لقائد الفراشيش وكافة المشايخ، الرسالتان تؤكدان على استمرار هذا الوضع على حاله، بحيث الرسالة الأولى تؤكد على ما باتت تلعبه الحنانشة من أدوار أكثر وضوحا فيما يتصل برعايتها للمصالح الاقتصادية للجزائر، مع تونس [199] فيما الرسالة الثانية تشير إلى حرص سلطة الأتراك في البلدين على أمن وأرزاق رعاياها في حالة تعدي رعايا الدولتين على بعضهم [200]، وكل ذلك لم يتأت إلا من خلال " الحدود الاقتصادية " التي لم تستقر على حال واحد وتعرف الثبات طيلة حكم الأتراك. وهذا ما جعل أندري نوشي(André Noushi) يصفها بالحدود الغير ثابتة أو المتحركة [201].

5.الثورات المحلية ضد الوجود العثماني (ثورة ابن الصخري نموذجا):

هل كان كافيا لجوء سكان مدينة الجزائر للسلطان العثماني، كي تستقر الأوضاع لهذا الكيان الذي وفد بحلة خليفية؟ في الواقع إن تنسج المجتمع في قالب قبلي عاش ضمن مجالات جغرافية منفعية محدودة النطاق، جعل من

---

[196]– الدفتر رقم 2847،(أ.و.ت.)

[197]-Bernard Roy, *op.cit.*,,p.186

[198]– ابن أبي الضياف، المصدر السابق، ص.36

[199]-H/223/384/01:الوثيقة رقم 113،(أ.و.ت)

[200]-H/223/384/01:الوثيقة رقم 74،(أ.و.ت)

[201]- André Noushi, *Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'en1919*,Essai d'histoire économique et sociale ,PUF/C.N.R.S ,Paris 1961 .p.15.

الانتفاضات عنوان ثلاثة قرون عكست العلاقة بين العثمانيين والسكان المحليين، إن الأحداث التي شهدتها الجزائر تكشف أن المجتمع المحلي المديني أو الريفي انتفض على مراحل ضد التواجد العثماني، وعلى كثرة هذه الثورات خلال الثلاثة قرون انتقت في هذه المحاضرة ثورة شيخ العرب ابن صخري بالزاب يعضده شيخ الحنانشة، وهي الثورة التي وقعت في ضرف لا زال فيه التواجد العثماني لم يجد له استقرارا نهائيا بعد.

في الواقع بتولي الشيخ خالد الكبير لمشيخة الحنانشة (1048هـ/1638م – 1054هـ/ 1644م)كان نفوذ هذه الكنفدرالية في تقلص داخل التراب التونسي، فبعدما كان يمتد إلى غاية " تبرسق " تراجع ليشمل المنطقة الحدودية بين الجزائر وتونس وسيستمر هذا الوضع طيلة القرن الحادي عشر هجري السابع عشر ميلادي، ومرد ذلك هو تمركز الأتراك في البلدين، وسياستهم القائمة على إخضاع القبائل لاستخلاص الضرائب منها، ففي تونس عمل حمودة باشا (1040هـ/1631م –1076هـ/1666م)ابن مراد باي مؤسس الأسرة المرادية على إخضاع الكثير من القبائل الموجودة بالدواخل التونسية، وذلك لتأمين سيطرتة عليها واستخلاص الضرائب منها. ففي الجهة الغربية حيث كان يمتد نفوذ الحنانشة خرج حمودة بقواته وأخضع أولاد شنوف في ما بين1045هـ/ 1636م – و1047هـ/1637م وولى عليها مملوكه القائد" علي الحناشي " الذي كانت فيه فروسية ثم أخضع قبيلة " أولاد بالليل" التي تتعاطى زراعة الحبوب في حوض مجردة الأوسط فسمحوا بآداء الماشية والنقد حسب تعبير صاحب كتاب " المؤنس"، ونفس الشيئ بالنسبة لقبائل شمال البلاد التونسية مثل قبيلة " أولاد حمزة" و" أولاد صولة " ،كما ركز حمودة باشا جهوده في الأطراف الجنوبية الشرقية أين تستقر قبيلة أولاد سعيد [202] وبفضل هذه السياسة أصبح حكام المدن التونسية مثل القيروان وباجة وصفاقص وقفصة والكاف يرسلون ضرائب لحاكم تونس بقيمة 05 آلاف درهم فيما استطاع هو أن يجمع من دواخل تونس 42 ألف درهم يكون نصيبه منها 12 ألف درهم [203].

لقد قاومت هذه القبائل سياسة التوسعات التي أقدم عليها حمودة باشا، أين برز الصراع في شكل نمطين اقتصاديين متباينيين، فالأول الذي يمثله الحكام الأتراك ويسعون من خلاله لمركزة النفوذ السياسي وضمان آليات اقتصادية قارة قوامها المداخيل الجبائية التي مصدرها القبائل المنتشرة ضمن ما بات يعرف بالحدود التونسية بعد اتفاقية سنة 1037هـ/1628م.والنمط الثاني تمثله القبائل والمجموعات المحلية التي تعمل في الحفاظ على استقلاليتها والتخلص من دفع هذه الضرائب التي تثقل كاهلهم [204] بل أن البعض منها قاوم لما رأوه من مآلهم في السلم

---

[202]- ابن أبي دينار، المصدر السابق، ص ص .233-235.

[203]– محمد العدواني، تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله،ط2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005.ص، 221.

[204]– عبد الحميد هنية، تونس العثمانية، بناء الدولة والمجال، دار تبر الزمان، تونس، 2012، ص.142

الاجتماعي، مثل " أولاد بالليل " الذين خضعوا للأتراك وأقروا بدفعهم للضرائب بعدما كانوا أهل حل وعقد في العهد الحفصي [205].

لقد كانت الحنانشة بما يلتف حولها من قبائل تمثل النمط الثاني، الذي يبحث عن الاستقلالية الاجتماعية والاقتصادية، ونستطيع القول أن الحنانشة هي الوحيدة التي استطاعت التصدي لمشروع المركزة الذي دأب على تجسيده أتراك الجزائر وتونس، ومرد ذلك هو القوة العسكرية التي تملكها والشبكة الاقتصادية التي شكلتها والتي قوت من عضدها، فضلا عن موروثها الثقافي الذي جعلها في خانة المدافعين والحاضنين للحركات الدينية التي دأبت على نشر تعاليمها خاصة في الوسط القبلي مثل الشابية التي حاربت من أجلها لسنوات، أو احتضانها لخنقة سيدي ناجي التي أصبحت تشكل مركزا يشع العلم ضمن نطاق نفوذها وتتضح هذه الصورة النمطية للحنانشة بشكل جلي في شخص شيخ الحنانشة خالد الصغير، الذي كان يتوفر على قوة ومهابة مكنته من التصدي لمشروع الأتراك بحيث واصل الولوج في الأراضي التونسية والتعرض للمحلات التي كانت تجوب القبائل، لجمع الضرائب[206] لقد قاوم خالد الصغير مشروعا اقتصاديا بتونس أصبح مزاحما له تجسد في المؤسسة الجبائية التي تعرف بالمحلة والتي باتت تجوب البلاد التونسية في فصلين فتكون وجهتها في الشتاء " بلاد الجريد "، وفي الصيف نحو الشمال الغربي حيث تجني عوائد كبيرة [207].

مقاومة شيخ الحنانشة خالد الصغير لمشروع أتراك تونس، والقوة التي طبعته وإصراره دفعت ببايات تونس إلى تجنب مواجهته بل وإرسال العطايا والهدايا له، حيث يكشف أحد الدفاتر الجبائية أن الهدايا التي كان يقدمها بايات تونس لشيوخ الحنانشة كانت ذات قيمة مالية كبيرة ولا تشمل الشيخ فحسب بل مقربيه وحاشيته، وتتضمن الهدايا حتى مصوغات من الذهب لنسائهم [208]. ويقول صاحب كتاب "المؤنس " في كل ما تقدم " كان خالد المذكور أشهرهم سمعة بين قبائل العرب وله منعة وعدة وقائع مع عسكر الجزائر عمر عمرا طويلا ومارس الحروب وكان يتشامخ بأنفته على تونس ويمتد في وطنها لأنه مجاور لها ويتعرض إلى محلتهم فيستكفون شره، ويهادنونه بالهدايا [209]".

إن خالد الصغير ورغم مقاومته لمشروع " المركزة الاقتصادية "بتونس، إلا أن الكثير من القبائل دانت بالطاعة تحت حملات بايات تونس، الأمر الذي حد من موارد الكنفدرالية، لكن في هذه الفترة كانت البدائل متوفرة بالنسبة

---

[205]– ابن أبي دينار، المصدر السابق،ص.235

[206]– ابن أبي دينار، المصدر نفسه،ص.236

[207]– ابن أبي الضياف، المصدر السابق،ص.120

[208]- الدفتر رقم 2144،(أ.و.ت)

[209]– ابن أبي دينار المصدر السابق، ص.236

لشيوخ الحنانشة فأمام هذا التضييق الاقتصادي كانت الوجهة نحو سواحل البحر المتوسط أين يوجد باستيون فرنسا ضواحي القالة، حيث دخل شيوخ الحنانشة وعلى رأسهم خالد الصغير في علاقات تجارية واسعة مع الباستيون، الذي أصبح يشكل موردا مهما لنشاط سكان الشرق ومصدر ثراء لأسرة الحنانشة الحاكمة بهذه المنطقة التي باتت تنتفع مع القبائل المنضوية تحتها ببيع حبوبها ومنتوجاتها من أصواف وشمع للمركز التجاري الموجود بالحصن [210].خاصة بعد أن هيكل حكام الجزائر نشاطه في الاتفاقية التي تعود إلى سنة 1037هـ/1628م مع فرنسا برعاية "صانصون نابوليون" (Sanson Napoléon) الذي وفد إلى الجزائر، وهي اتفاقية مكملة للاتفاقية الأولى التي تعود إلى سنة 1028هـ/ 1619م، أين كان حكام الجزائر بدورهم يستفيدون من نشاط الباستيون إذ كان القائمون عليه ملزمين بدفع مبلغ مالي يقدر بـ 12 ألف قرش للخزينة وما يقارب هذا المبلغ يوزع على الباشا والكاهية والآغا وعلى بعض أعضاء الديوان [211].

ونظرا لنفس السياسة التي دأب على اتباعها أتراك الجزائر من خلال فرض الضرائب على رعاياهم والتضييق عليهم فقد أقدم مراد باي قسنطينة [212] وبأمر من حاكم الجزائر،على فرض دفع اللزمة ضريبة سنوية على سكان بايلك الشرق، وبأوامر من نفس الباشا أقدم القائد "علي بتشين " على هدم باستيون فرنسا، أين تضررت بسبب هذا الهـدم المصالح الشخصية لشيخ الحنانشة خالد الصغير، وكـان هذا العمل بداية لاندلاع ثورة عارمة سنة 1048هـ/1638م مست بايلك الشرق قادها خالد الصغير وأحمد بن صخري الذي قتل مراد باي أخاه [213].

ترجم شارل فيرو (Charles Féraud) في عدد المجلة الإفريقية لسنة 1866م لمخطوط يعود للأهالي يسرد تفاصيل هذه الثورة العارمة التي تعرف بثورة شيخ الصحراء شيخ العرب " أحمد بن صخري" .كان مراد باي قسنطينة يخيم في شهر صفر 1047هـ/ جوان 1637م جنوب قسنطينة، حيث استقبل الشيخ " محمد بن صخري بن بوعكاز العلوي " شيخ العرب، أين قام بأسره وطلب من الديوان في الجزائر السماح له بقتله لأنه خرج عن طاعة حاكم الجزائر، وقد نفذ فيه مراد باي حكم الإعدام وقتل معه ابنه أحمد وستة آخرين كانوا برفقته حيث قطعت رؤوسهم [214].

سنة بعد هذه الحوادث (فرض اللزمة، هدم الباستيون، قتل شيخ العرب) والتي جعلت من مصالح الطرفين تلتقي فشيخ الحنانشة يريد استرداد مصالحه الاقتصادية التي باتت تتقلص أمام النفوذ التركي وشيخ العرب يبغي

---

[210]-A .Berbrugger, « Note relative à la révolte de Ben Sakhri »,*R.A*, 10 , (1866) ,.,p.347

[211]–معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619- 1830، نشر وترجمة جمال قنان، دار هومة ،الجزائر ،2010.ص.74

[212]– جعل محمد صالح العنتري من فرحات باي هو أول باي على قسنطينة وذلك سنة 1647،يرجى الرجوع إلى:

– صالح العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة ،نشر يحي بوعزيز، دار هومة الجزائر،2005،ص ص.62،61.

[213]-Eugène Vayssettes,*op.cit*,.p.72

[214]-L.Ch. Féraud, « Epoque de l'établissement des Turcs à Constantine» ,*R.A*,10,(1866)p.180

الانتقام لمقتل أخيه، تقاطع مصالح الطرفين دفعتهم للتعاون فيما بينهم تؤازرهما القبائل البدوية الممتدة من أبواب مدينة تونس إلى أبواب مدينة الجزائر، حيث أعلنوا الثورة ضد مراد باي امتدت على رقعة واسعة من الصحراء جنوبا إلى غاية الساحل شمالا [215].

أخذت هذه الثورة بالنسبة لشيخ الحنانشة بعدها الاقتصادي لذلك استهلها بطرد الحامية التركية المتواجدة بمناطق نفوذه و السيطرة على ساحل بايلك الشرق الذي يشكل منفذا طبيعيا لتجارة البايلك مع المحيط الخارجي من خلال موانئه [216]بعد أن طرد إلى تونس كل من قبيلة " أولاد ذياب " ودريد ونهد الموالين للقائد التركي علي بتشين الذي هدم الباستيون، ثم زحف مع شيخ العرب نحو قسنطينة مقر السلطة بالناحية الشرقية أين حاصروها ليمارسوا في ضواحيها حرب اقتصادية تستنزف موارد المدينة.

فأقدموا على حرق الغلال الموجود بالفحص الأبيض بالحامة [217]وإضرام النار في القرى الموجودة في هذه الجهة، حيث امتد لهيبها إلى غاية بساتين "المنية "[218] وفي النقاط الممتدة من قسنطينة إلى "حفرة صنهاجة" [219] ولم يتوانوا في حرق كل القرى التي تتوفر على الغلال ونهبها. ويصور لنا المخطوط الذي ترجم له فيرو (Féraud) حالة هذه الثورة " ...وفي غد ذلك اليوم فزع بخيله ورجاله للفحص الأبيض بالحامة وتلك النواحي وأطلق النار في نوادر القمح والشعير فأحرقها عن آخرها وأحرق ما فيها من الدشر، حتى انتهى الحرق إلى جنة المنيا وأطلق النار من نواحي أخرى، ومن الغد وهو اليوم الثالث أطلق النيران من قسنطينة إلى أن انتهى إلى حفرة صنهاجة ولم يزل يحرق وينهب ومهما سمع بدشرة بها شيئ من الزرع نهبه.."[220].

استطاع شيخ الحنانشة خالد الصغير بمعية أحمد بن صخري أن يربكا النظام التركي بالجزائر لحوالي ثلاث سنوات، حيث اختل النظام وعمت الفوضى كل الإقليم وتعرض الباي مراد لهزائم متكررة مثل هزيمته في معركة "قجال" جنوب مدينة سطيف، واضطر أن يفر بنفسه رغم النجدات الكثيرة التيأرسلها لهالباشا من مدينة الجزائر بإشراف من القائد يوسف والقائد شعبان [221]، وسادت المؤامرات بين الأتراك في هذا الظرف، حيث حاول القائد سليمان الإيقاع بباي قسنطينة الذي كان يريد التفاوض مع شيخ الحنانشة وشيخ العرب وخلص هذا الصراع في

---

[215]-L.Ch. Féraud,*op.cit.*,p.181.

[216]– كان ميناء القل غرب سكيكدة يشكل الميناء الرئيسي لتجارة بايلك الشرق .

[217]– الحامة تقع على طريق سكيكدة وتبعد قسنطينة بحوالي 08 كلم تميزت ببساتينها،ومياهها الحارة، وسيستغلها صالح باي (1771–1792م) في زراعة الأرز .حول الموضوع يرجى الرجوع إلى :

-E. Vayssettes , *op.cit.*,p.139

[218]– المنية تقع على طريق قسنينة سكيكدة وتبعد قسنطينة بحوالي 03 كلم تتوفر على بساتين يتم سقيها بوادي الرمال الذي يخترق المدينة.

[219]– حفرة صنهاجة تقع شمال قسنطينة بين جبل مسيد وبساتين الحامة .

[220]-L.Ch. Féraud, , *op.cit.*,p.181

[221]-E. Vayssettes , *op.cit.*,p.75

الأخير وبعد وساطات إلى رضوخ الحكام الأتراك للشروط التي أملتها الأطراف المنتصرة وتجسدت هذه الشروط في النقاط التالية :

1-كف الأتراك عن الإصرار بالمطالبة بضريبة اللزمة .

2- عودة القوات التركية لمدينة الجزائر .

3-إعادة بناء الباستيون، ويستبدل الأهالي المحاصيل الزراعية بقيمة مالية يدفعون بها اللزمة كون مداخيلهم تراجعت بسبب تحطيم الباستيون[222].

استطاعت الحنانشة بفضل هذه الاتفاقية مع أتراك الجزائر من الحفاظ على مصالحها الاقتصادية التي باتت ترتبط بشكل وثيق بالباستيون، وعاد نشاط الباستيون بعد المعاهدة التي تمت بين الحكومة الجزائرية والسيد دي كوكييل (Décoquille) بتاريخ 18ربيع الأول 1050هـ /07جويلية 1640م وتضمنت بنود الاتفاق 23 بندا، ينظم نشاط الباستيون، أهمها البند رقم 01 الذي منح تسهيلات واسعة للفرنسيين مثل احتكارهم لتجارة بعض السلع كالشمع والجلود مابين القل وحتى القالة والبند رقم 02 الذي يلزم السيد دي كوكييل (Décoquille) بدفع مقابل التجارة التي يمارسها 34ألف دوبل كلزمة سنوية [223]، كما يظهر أن السلطات الجزائرية كانت حريصة في التضييق على تجارة التونسيين الذين كانوا يترددن على الموانئ الجزائرية، وذلك للحد من نفوذ السلطة المركزية بتونس التي باتت في عهد حمودة باشا تبحث عن تأمين مداخيل قارة لخزينتها، فورد في البند رقم 10: يمنع على أي أحد في كل من مينائي بونة والقل أن يبيع الصوف والشمع والجلود لرياس المراكب من التونسيين أو الجربيين[224].

[222]- A.Berbrugger,*op.cit*.,p.345

[223]– وهو يعادل حوالي 515 سلطاني جزائري .أو 2500 قرش اسباني .

[224]– جمال قنان، المصدر السابق، ص ص.320-324.

المحور الثالث :

العلاقات الدولية للجزائر في التاريخ الحديث

الفصل الأول :

علاقة الجزائر مع العالم الإسلامي

الفصل الأول :

علاقة الجزائر مع العالم الإسلامي

1.مع السلطة العثمانية:

إن الحديث عن علاقة سنجق الجزائر بالإمبراطورية العثمانية يستجدي تتبع الأثر التاريخي الذي سيحدد ملامح هذه العلاقة ويقولها بخصوصية معينة، فالإخوة بربروس كانوا في البداية راضين بسلطان تونس كنوع من السيد عليهم أو الحامي لهم، وكان هذا السلطان قد سمح لهم باستعمال موانئه في مقابل سهم من غنائمهم، عندما أدت غاراتهم إلى هجوم أسطول جنوة على حلق الوادي، طلب منهم السلطان الحفصي نقل نشاطهم إلى جزيرة جربة، وفي هذه الجزيرة توصلوا إلى نوع من الاتفاق مع شيوخها بحيث يقوم الشيوخ بتموين أسطولهم وذلك في مقابل أموال يعطونا لهم أو أسهم من الغنائم، وكان النجاح سببا في زيادة حجم أسطول الإخوة بربروس، أما عروج ففقد ذراعه وهو يحاول طرد الإسبان من بجاية، كما أنقذ مدينة جيجل من الجوع وأصبح " سلطانا" عليها، واغتال سالم تومي الذي كان يحكم الجزائر بعدما وضع نفسه على عرشها، مكونا دولة عفوية حسب أحد المؤرخين، ولكن بعد مقتله على أسوار تلمسان عمد أخوه خير الدين بالحاق هذه الدولة النواة بالدولة العثمانية وأعطاها هيكلها السياسي، وساعده في ذلك ظروف المدن المحكومة من قبل أمراء وسلاطين محليين ومن الأقارب، لذلك بوادر المنازعات من أجل العرش كانت طاغية، كما أن هذه المدن كانت مراقبة ومرصودة من قبل الحكام الإسبان في وهران وبجاية وبالتالي كان من السهل إثارة السكان المحليين ضد الاسبان المسيحيين عندما يكون للإخوة بربروس الرغبة في نجدتهم[225].

وبعد مقتل عروج أصبحت مجموعته " المشرقية" الصغير العدد في خطر كبير لأنه كان واضحا أن الإسبان سيهاجمون مدينة الجزائر وأن حكومة " القراصنة" لم تكن مرغوبة من قبل البلدية (الحضر)، ولا من قبل أمير كوكو، أما السلطان الحفصي بتونس فلازال يدافع عن عرشه الممتد إلى شرق الجزائر، لذلك كان الاخوة بربروس يواجهون تهديدات كثيرة ومن جهات مختلفة رغم ما كانوا يلقونه من مساعدات من قبل الموريسكيين الأندلسيين، كلها عوامل دفعت بخير الدين إلى وضع دولته الصغيرة تحت حماية السلطان العثماني، الذي كان في صالحه وصالح امبراطوريته اضافة سنجق (ولاية) خاصة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وتحصيل هذا الولاء هو وصول ألفان من الجيش الانكشاري مع لقبي باشا وحاكم الاقليم الغربي (بيلرباي)، طبعا هذه المليشيا العسكرية المتعددة الانتماء، فيهم حتى من أبناء مسيحيين، تطورت ونمت عن طرق التجنيد من أناضوليا من المجتمع السفلي، ثم من المشارقة، وأيضا المسيحيين الذين دخلوا إلى الإسلام (Renégat) وغيرها من الدولة العثمانية الذين ليس لهم مكان

[225]- جون بول وولف، المرجع السابق، ص، 96، 97.

جيد في الاقتصاد، حيث قاومت هذه الفئات التي جندت في الجزائر كل فرص انضمام الأهالي اليها، لذلك تحولت إلى قوى أجنبية[226].

بقيت الجزائر سنجق عثماني وقاعدة متقدمة لمدها الامبراطوري في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط، لذلك كانت الهدايا التي يرسلها باشوات الجزائر في كل مناسبة تعيينهم في الحكم إلى السلطان العثماني أحد صور هذه العلاقات الولائية، في المقابل كان السلطان العثماني يقابلهم بهدايا، حيث بدأ هذا التقليد الديبلوماسي مع خير الدين الذي أرسل للسلطان سليم الأول أربع سفن تحمل عددا من الهدايا المتنوعة، وبذلك انطلق هذا العرف من الحكام المتلاحقين، حيث كانت تشمل أشياء متعددة تشتهر بها الجزائر بصناعتها وانتاجها، من بينها المنسوجات الصوفية، إلى جانب احتواءها على أشياء ثمينة التي كانت تكلف خزينة الإيالة مبالغ باهضه خصوصا المصنوعة من الذهب الخالص والمرصعة بالجواهر، مثل البنادق والسيوف والسروج، فضلا عن الغلمان والأمات وبعض أنواع الطيور والحيوانات، وكنموذج عن محتوى هذه الهدايا التي كان يرسلها باشاوات الفترة المتأخرة من العهد العثماني، فإن هدية عمر باشا (1816) كانت تشمل عددا من الغلمان وثلاثة خيول بسروجها وشكائمها المرصعة بالذهب والأحجار الكريمة، وعدد من البنادق المرصعة بالذهب والمرجان وحلي ثمينة وسط صحن من الفضة الخالصة، وعدد من المسابح المصنوعة من المرجان وثمانية أسود وأربعة نمور وست نعامات وعدد كبير من الببغوات وعشرة أزواج من جلود النمور والفهود، وعدد من الألبسة والأغطية الجزائرية الصنع، علاوة على خمسين أسير أوروبي، وقد قدر قيمتها الباحث خليفة حماش بحوالي خمسة ملايين ونصف فرنك، حتى أن الباب العالي خصص لها في اسطنبول ثلاثمائة من الخدم لنقلها من الميناء إلى قصر السلطان[227] . طبعا هذه العلاقة تحكمت فيها خلال ثلاثة قرون عدة عوامل لكن خلفية تبعية الجزائر للباب العالي بقيت قائمة من منظور السلاطين العثمانيين.

2. مع مصر:

شكلت مصر القاعدة التي انطلقت منها الفتوحات الاسلامية لبلاد المغرب، لذلك أصبحت العاصمة التي تدار منها هذه البلاد التي بقي مصيرها السياسي رهين السلطة في مصر وما تقره الخلافة، ولم تنتهي هذه المرحلة إلا بعد أن برزت القيروان في افريقية، حيث أخذت زمام المبادرة السياسية ببعدها الولائي، الذي لم يخرج عن أطر الشرعية المشرقية حتى بعد تشكل كيانات سياسية محلية، فالحركة الزيرية- الحمادية قد اختارت المشروعية العباسية شكليا لتنعتق من قبضة الفاطميين، إلا أنها لم تلبث أن عادت إلى المشروعية الفاطمية عندما تبين عجزها عن مواجهة الهلاليين، والحركة المرابطية بحكم انتسابها إلى المذهب المالكي السني قد بادرت إلى إفادة رسلها إلى بغداد بمجرد قيامها بحركتها الوحدوية نحو الأندلس، أما الحركة الوحدوية الموحدية فقد اختارت بكل بساطة أن تطمح

[226]- جون بول وولف، المرجع نفسه، ص، 100، 101.

[227]- خليفة حماش، العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من سنة 1798 إلى 1830، رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير، جامعة الاسكندرية، 1988، ص، 153، 154.

هي نفسها إلى حكم الشرق، وأن تقيم مشروعيتها على الإنتساب على الشرف أولا ثم على القرشية عندما صفا الجو لبني عبد المؤمن، وعندما حاول المرينيون التوجه نحو تلمسان في الأول ثم نحو إفريقيا من بعد، نلاحظ أنهم تسلحوا تارة إلى العدنانية وتارة بالاستناد إلى تزكية أشراف المشرق ثم إلى تزكية أشراف المغرب الأقصى فيما بعد، وهكذا حاولت البلاد المغاربية توحيد نفسها عن طريق الانفصال، غير أن هذا الانفصال قد وضع نفسه في إطار ديني يعكس الرغبة في الانتماء إلى دار الإسلام والأمة الإسلامية وبالتالي إلى نفس الأسرة الثقافية[228].

طبعا هذه الخلفية الانتمائية بقيت قائمة خلال الفترة الحديثة، حيث كان المد التركي الذي يلبس عباءة خليفية يفكك في الرموز السلطوية المحلية، إلى أن استأثر بواجهة بحرية هامة أقام في مدنها الساحلية محميات، أصبحت أكثر صلابة بعد الزحف نحو الدواخل، وبذلك تشكلت أحد أهم الإيالات العثمانية التي كانت بخلفية عسكرية وممارسة قرصنية، طبعا هذه الخصوصية تحولت إلى قالب مؤسساتي يضبط تعاملات إيالة الجزائر مع العالم الخارجي، التي بقيت رهينة مؤشرات لتوجهات عامة يمليها السلاطين العثمانيين، لذلك كان الإلحاق الذي عرفته مصر أو الجزائر بالباب العالي متحكم في الفعل الخارجي إلى حد بعيد.

طبعا الأحداث التاريخية التي لاحت في الأفق، كشفت عن ميزاج سياسي موجه تحكم في قرارات السلاطين العثمانيين الذين تعاملوا بمستويات متباينة مع إيالاتها المنتشرة في شمال إفريقيا، ففي الوقت الذي وفروا فيه مناخ النضج السياسي مع التقليص من شروط الاغلاق لبروز أسر تتوارث الحكم على غرار المراديين في تونس والقرمنليين في ليبيا ومحمد علي في مصر، بينما في الجزائر بقي الواقع العسكري هو المسيطر على دواليب السلطة ومخرجاتها، لذلك يبدو أن هاذين القالبين السياسيين (أسري و عسكري) قد تحكما إلى حد كبير في علاقات الجزائر مع مصر، خاصة بعد توجه مصر نحو قولبة حضارية – فرنسية لتدارك حالة التخلف التي كانت تتغذى من القرصنيات والتبعية للعثمانيين، لذلك كان مشروع " المملكة العربية" الذي أشهره محمد علي سنة 1829، مزاحما للمد العثماني الذي تقهقر ككيان امبراطوري في آخر عهده، حيث بات " الصداع القرصني" الذي تملك أوروبا لسنوات ضرورة ملحة للتخلص منه ومن أعبائه، فكان توجه محمد علي نحو السيطرة على الجزائر من صميم مخرجات فك الارتباط مع كيان متهالك، و تصفية قواعده العسكرية التي كانت تزوده بالقوة المالية وتدعمه في حالة الحروب[229].

3.مع سلاطين المغرب:

من الأمور الملفتة في المد العثماني نحو الحوض الغربي للبحر المتوسط، هو توقفه على حدود الوطاسيين في المغرب الأقصى، بحيث لم يتمكنوا من هذا الفضاء الذي هو أكثر استهلاكا للشريفيات، التي يبدو أنها منحته

[228]- محمد القبلي، مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط، دار توبكال للنشر والتوزيع، المغرب، 1987، ص، 14.

[229]- حول مشروع محمد علي لاحتلال الجزائر يرجى الرجوع إلى:

جورج داون، مشروع حملة محمد علي على الجزائر 1829- 1830، ترجمة عثمان مصطفى عثمان، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2010

حصانة "مقدسة" تجاوزت المنظور الخليفي الذي أتى به الأتراك العثمانيون، لذلك يظهر أن التنافس المتدين في مرحلة حاسمة اتسمت بالمد المشرقي المشرعن، قد كان في صالح المغرب الأقصى الذي يملك تقاليد سلطوية شريفية تعود إلى عهد الأدارسة، والتي حالت دون استعداد المجتمع والسلطة لتقبل قالب سلطوي "وافد" يستهلك في الدروشة (الطريقة البكداشية) والعسكرة أكثر من استهلاكه لفنون السلطة. ولا نستبعد أيضا أن الجغرافيا السياسية قد لعبت دورها في صد هذا المد، فجغرافية المغرب الأقصى تقاطعت تاريخيا مع بلاد الأندلس، كما تزاحمت الأحداث التاريخية بينهما كثيرا، وهو ما منح صلابة تحالفية تقاطعت في الكثير من جوانبها في الوقوف أمام الأتراك العثمانيين.

وقد يكون لجوء بعض الأمراء الزيانيين الفارين من تلمسان إلى بني وطاس نوع من الايواء السياسي لهذه الفئات، على غرار أبي حمو الثالث الذي أطاح به عروج سنة 1517، فذهب إلى فاس مستجيرا بسلطانها الوطاسي محمد البرتغالي، مستعينا به لاسترداد ملكه[230]. وعندما أعاد الإسبان أبا حمو الثالث إلى عرش الدولة الزيانية بعد مقتل عروج، لجأ اثنان من اخوته هما عبد الله ومسعود إلى المغرب، فبعث السلطان أبو حمو في طلبهما لكن السلطان المغربي رفض تسليمهما، وخيرهما بين العودة إلى تلمسان أو البقاء، وعلى نفس المنوال سار أبو العباس الوطاسي الذي خلف والده سنة 1526، حيث استقبل بدوره أمراء الدولة الزيانية، دون أن يقحم نفسه في أية حركة سياسية مناوئة يبدو فيها أن السلاطين الوطاسيين أكثر انسجاما مع جغرافيتهم السياسية التي لم يكونوا يتطلعون خارجها، حتى أنهم لم يستجيبوا لدعوة خيرالدين للقضاء على التواجد الإسباني في وهران، خاصة بعد منافسة السعديين لهم الذين استولوا على مراكش ورفضوا الولاء للسلطان الوطاسي[231].

تكشف الجغرافيا التاريخية أن التقارب الوطاسي أو السعدي -الإسباني أقرب وأمتن من التقارب الوطاسي أو السعدي- العثماني، فقد عقدت اتفاقية هدنة بين السعديين في الجنوب والإسبان في 25 أفريل 1537 لمدة ثلاث سنوات، تدعمها المبادلات التجارية بين رعايا البلدين، وعلى نفس المنوال تمت اتفاقية هدنة في 24 جوان 1541،بين الإسبان والوطاسيين سارية لمدة أحدى عشر، رغم ما بدر من أبو حسون الوطاسي الذي أعلن تبعيته للعثمانيين في محاولة منه لصد المد السعدي الذي تحول إلى منافس شرس لسلطانه[232]. أما دعم العثمانيين للسعديين في تحرير حصن سانتا كروز من الاحتلال البرتغالي سنة 1541، فيعد ضمن حروب كسر العظام التي كان يخوضها العثمانيون ضد المد الاسباني والبرتغالي، وهي بعيدة في جوهرها عن أي تحالف سياسي بين العثمانيين وسلاطين المغرب، وبالتالي

[230]- الحسن الوزان، المصدر السابق، ص، 259- 261

[231]- محمد دراج، المرجع السابق، ص، 396، 397.

[232]- المرجع نفسه.

تحكم في هذه العلاقة التي طغى عليها الجفاء والتنافر أحقية الشرعية المشرقية المتدينة التي تنكرت فيها الشريفية للخلافة.

4. مع تونس :

استطاع الأتراك تفكيك النموذج الحفصي على مراحل انطلقت بتصفية أجنحته الأميرية، انطلاقا من بجاية ثم قسنطينة، وصولا إلى تونس التي تهالكت فيها السلطة ودخلها سنان باشا سنة 1574م، حيث انساقت سياسة السلاطين نحو الحاق هذا المجال ببيلربايات الجزائر الذين الزموا السلطة القائمة في تونس على دفع ضريبة سنوية، حيث بقي هذا العرف الديبلوماسي بخلفيته الضريبية قائما إلى سقوط الجزائر في يد الاحتلال الفرنسي، ورغم قيام حكم أسري يميل إلى الانطواء الجغرافي والاستقلالية في الحكم ظهر مع الأسرة المرادية 1628- 1702، ومن بعدها الأسرة الحسينية 1702- 1881، إلى أن أداء المجبى السنوي لأوجاق الجزائر بقي قائما حتى أيضا بعد صدور فرمان يفصل تونس عن الجزائر سنة 1591، وذلك خشية السلطة المركزية في بلاد الأناضول من تغول الجزائر وخروجها عن سلطة الباب العالي[233].

رغم ذلك تجاوزت العلاقات الجزائرية التونسية منظور الجفاء الديبلوماسي إلى علاقات قوية تحكمت فيها بنى المجتمع القبلية أكثر من السلطة، وذلك لعدة اعتبارات أهمها وجود أقوى الكنفدراليات القبلية التي كانت تعيش على الأطراف الجزائرية التونسية وهي الحنانشة التي تحولت إلى وعاء اجتماعي يحاول من خلاله البايات في تونس والجزائر مصاهرته، وهو ما ولد حتى حكام أخوالهم الحنانشة على غرار مراد الثالث باي تونس أواخر القرن السابع عشر، عمق هذه العلاقات أكثر أن السلطة البايليكة هي في عمقها مجمع قبلي مزاحم للسلطة التي تجنح في الكثير من الأحيان إلى التحالفات والمصاهرات، ولتجنب ما هو مستهلك حول هذه العلاقات اعتمدنا في هذا العنصر على مادة وثائقية عثرنا عليها بالأرشيف التونسي، لأن المعرفية الحقيقية بلونها التاريخي تستجدي نبشا بين ثنايا الأرصدة الأرشيفية، التي توفر زادا وثائقيا يؤسس لكتابة مرصوصة البنيان. وبقدر ما تتراءى أمام الباحث في الجزائر خلال المرحلة العثمانية تصورات قبلية تبعث على عدم التفاؤل لغياب الأرصدة أو قصورها في تغطية بعض الأحداث والوقائع التاريخية، بقدر ما يُمكن النبش في دور الأرشيف الوطنية والأجنبية من إكتشاف ما هو ضامر أو غير مستغل من الوثائق، التي بإمكانها أن تؤسس لبعض الدراسات وتغطي بعض الفجوات التاريخية خلال مرحلة الجزائر العثمانية.

لقد كانت تجربتي مع الوثيقة تعود إلى سنة 2006 عندما كنت أتردد على مصلحة أرشيف ولاية قسنطينة، كباحث في التاريخ تخرج من الجامعة ولم يخض بعد غمار الدراسات العليا، حيث كانت هذه التجربة بداية الطريق

[233]- توفيق بن زردة، الجزائر في القرن الثامن عشر من خلال دفاتر الأرشيف الوطني التونسي، آلفا دوك للنشر والتوزيع، قسنطينة، 2021، ص، 11.

نحو ولوج عالم الوثيقة، الأمر الذي رسخ فيا ميولا تعمقت أكثر بعد سنة 2013 عندما شددت الرحال إلى الأرشيف الوطني التونسي، يغمرني حينها الفضول المعرفي، وتنتابني من حين لآخر ريبة الباحث الذي يخشى، افتقاده للمادة المصدرية قصد بناء موضوع في رسالة الماجستير يتصل بالعلاقات الجزائرية التونسية، ووقعت يومها على الدفاتر الإدارية والجبائية، وهي أرصدة أرشيفية ضخمة تضم 4065 دفتر، ناتجة عن الأعمال اليومية للدوائر الحكومية، حيث تسع معلومات كثيرة على أكثر من صعيد، تتعلق في مجملها بمداخيل الدولة التونسية ومصاريفها بجميع أنواعها، احصاء السكان، أداء المجبى بمختف أنواعه، التنظيمات العسكرية والقضايا الحربية، مستلزمات إدارة هياكل الدولة، الأنشطة التجارية، المعاملات المالية، وتنظيم العلاقات الداخلية والخارجية منها العلاقات مع الجزائر،[234] حيث كان الدفتر رقم 2144 أحد هذه الروافد المعرفية التي رسمت ملامح هذه العلاقات بين البلدين (الجزائر وتونس) خلال القرن الثامن عشر.

أطوال الدفتر هي : 47 سم X 19 سم، مجلد باللون الأحمر، حالته جيدة من الخارج، وكذلك أوراقه من الداخل التي يبدو أنها قاومت عوامل الزمن عبر القرون، يبدأ الترقيم الأصلي للصفحات من الرقم 41، وهو ما يرجح على أنه جاء مكملا لدفتر قبله، فيما اعتمد ترقيم تسلسلي جديد للدفتر بقلم الرصاص يبدأ بالرقم 01 الذي يقابله رقم 41 في الترقيم الأصلي، وجاء الترقيم الجديد في أسفل الصفحة عكس الترقيم الأصلي الذي جاء في أعلاها، فيما نجد تسلسل الصفحات سواء الأصلية أو الغير أصلية نجدها فقط على أوراق الدفتر 2المدون عليها، أما الأوراق البيضاء وعددها كان كثيرا تخلل الورقات المكتوبة وجاءت لتعبر على ذلك الانقطاع، فلم تكن تشكل صفحات من الدفتر، وقد اكتشفنا أن خطأ قد وقع في ترقيم الصفحات بقلم الرصاص، حيث انتقل رقم الصفحات من الرقم 231 مباشرة إلى الرقم 241، بدلا من 232، وهو ما يجعل اجمالي صفحاته المدونة هو 376 صفحة، عكس ما قال به مثلا المنصف الفخاخ وهو 386 صفحة [235].

كتب الدفتر بخط مغربي في عمومه مقروء عدا في بعض المواطن، أين تعسر علينا فك بعض الرموز، لمحدودية خبرتنا في التعامل مع هذا النوع من الخطوط، وأيضا لأن تقييده تولاه أكثر من طرف مما جعل بعض نماذجه تميل إلى التعقيد أكثر منها إلى الوضوح، كما تجلت الصعوبة أيضا في قلة زادنا المعرفي بأسماء بعض اللوازم في العهد العثماني كالألبسة وأدوات الزينة وغيرها من الأغراض، كلها عوامل دفعتنا إلى وضع علامات استفهام في بعض المواطن، وإلحاق صور بكل هذه الإحسانات، فاسحين بذلك المجال أمام القارئ الكريم والباحثين قصد تفسير ما غاب أو تعسر علينا.

---

[234]- حول الدفاتر التي تتعلق بالجزائر يرجى الرجوع إلى :

خليفة حماش، كشاف وثائق تاريخ الجزائر في الأرشيف الوطني التونسي، منشورات كلية الآداب والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة– 2016.

[235]- المنصف الفخاخ، موجز الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي، منشورات الأرشيف الوطني التونسي، تونس، 1990، ص، 284

ولم يكن الدفتر على أهميته الإدارية في ذلك العهد يخلو من أخطاء نحوية وتراكيب لغوية سليمة، وصلت في بعض الأحيان إلى استعمال العامية، وقد أوعز ذلك أحد الباحثين إلى " ضعف المستوى الثقافي للموظفين آنذاك منهم من المماليك الذين نشؤوا في خدمة البايات ولم تكن لهم ثقافة كافية، هذا فضلا عن استخدام الأجانب واليهود وخاصة منهم أصيلي القرنة (Livourne) في مصالح الحسابات المالية "[236]، وحتى نحافظ على أصل الدفتر دون تصرف منا، تركناه على تلك الأخطاء لأنها في كل الأحوال تعكس منظومة العمل الإداري في ذلك العهد، وهو ما قد يعزز من رصيد بعض الدراسات التي تبحث في هذا النوع من الموضوعات.

لم يفصح الدفتر عن مكنونه من خلال مقدمة غابت عن صفحاته الأولى بعكس مثلا الدفتر رقم2145 [237]، بل يستشف موضوعه من لفظ " إحسان " وبالجمع " إحسانات " التي ترددت في جل صفحاته كعناوين رئيسية مثل"إحسانات حظرة الجزاير المحروسة" " إحسانات أهل قسنطينة " "إحسانات أهل تلمسان " "إحسانات أهل تقرت" ...إلخ. كما لازم مسمى إحسان كل شخص كان قد استفاد من قيمة مالية مثل 100,00 ريال إحسان ليوسف أخو باشا الجزاير، 60,00ريال إحسان لسي محمد بن نعمون كاتب باي قسنطينة، 70,00 ريال إحسان لموسى وكيل الحرج...الخ. وكلها قرائن تجعل من موضوع الدفتر هو " الإحسان "[238] ببعده السياسي وليس الديني كما قد يتصوره البعض.

في المقابل وجدنا أن مسمى " هدية " استعمل بالخصوص عند تقديم هدايا عينية لكبار الموظفين بقصر داي الجزائر ولباي قسنطينة والمحيط المقرب منه، إلى جانب باي التيطري، وشيوخ بعض القبائل.كما سجلنا حالات جاءت بمسمى " الخارج" وأخرى بمسمى " معروف" كما وقفنا على عينة فريدة جاءت بمسمى " صدقة " هي " صدقة للشيخ إبراهيم الخنقي " نسبة إلى خنقة سيدي ناجي (بسكرة)، ومرد هذا التنوع في استعمال المسميات إحسان، هدية، معروف، صدقة، الخارج وإن طغى عليها مسمى إحسان، تليها الهدية دافعه حرص بايات تونس على نسج شبكة من العلاقات مع الجزائر بعناوين " ديبلوماسية " أكثر تنوعا.

لقد جاء الدفتر رقم 2144 منقولا عن دفاتر أخرى كون عبارة " نقل " وردت في أكثر من مناسبة، وهو يغطي الفترة الممتدة مابين 1170هـ/ 1756م – 1192هـ/ 1779م، به كما أسلفنا بيان بالإحسانات التي جاء جلها في شكل مبالغ مالية أغلبها بالريال التونسي كان قد وزعاها ولدي مؤسس حكم الأسرة الحسينية بتونس حسين بن علي 1116 هـ/ 1705 –

---

[236]- المنصف الفخاخ، المرجع السابق، ص، 27

[237]- جاء في مقدمة الدفتر مايلي " برنامج الدفتر المبارك: إن شاء الله تعالى المشتمل ما احتوت عليه أزمة بيت خزنة دار خاص بالإحسانات الحسنة والعوائد المستحسنة والصدقات السنية المدخرة إن شاء الله في كنوز حسانات مولانا ومحل جدوانا صاحب أمرها وصاحب سعادتنا، بعين الخيرات ومجري الصدقات ذو الحلم المشهور ولواء العدل المنشور الحامي لوطننا افريقية وساير الثغور المعظم والأسد الضرغام سيدنا ومولانا الباشا علي باي بن حسين باي أيد الله سلطانه وحمدناه بحسن سيرته....وتبين كل ذلك على ترتيب السنين أولها سنة 1181هـ ..." .

[238]- وردت في الدفتر حالة استثنائية من الصفحة 359- 362، تتحدث عما خرج من رواتب .

1152 هـ/ 1740م وهما محمد باي (1170هـ/ 1756م- 1172هـ/ 1759م) ومن بعده علي باي (1172هـ/ 1759م – 1196هـ/ 1782م) وزعاها على سكان سائر البلاد التونسية، الجزائر، والمغرب، إضافة إلى العديد من الأقاليم المجاورة لتونس، وقد تزامن حكمهما في الجزائر مع الداي بابا علي (1167هـ/ 1754م - 1180هـ/ 1766م) والداي محمد بن عثمان (1180هـ/ 1766م – 1205هـ/ 1791م) [239].

في الواقع واجهتني مطبات بخصوصيات سياسية سلطوية، أخذت بعدين أولها تماهي الحدود بين الجزائر وتونس رغم الاتفاقية الموقعة بينهما سنة 1628، وثانيهما مدى نفوذ دايات الجزائر جنوبا في الفضاء الصحراوي، فإذا ما أخذنا بالأول نجد أن الشعور المتوارث بالوحدة الدينية في الفضاء المغاربي، إلى جانب طبيعة القبائل البدوية التي عاشت على أطراف البلدين حيث اعتادت البيئة المفتوحة والفضاء الغير مكبل، عاملين أضعفا إلى حد كبير المشروع السياسي لدى الجزائر وتونس، والمتمثل في ارساء دعائم المركزة وتحييد المجال السلطوي، لذلك أنتج هذا الوضع تخوما وردت في بعض الوثائق الأرشيفية باسم " الحدادة" فكانت انعكاسا صادقا لدولة المجموعات لا للدولة الترابية، حيث قام فيها (دولة المجموعات) الولاء الطوعي للقبائل أو اكراههم من قبل السلطة المركزية محل الولاء للوطن بمفهومه الترابي والمؤسساتي، لذلك كان لزاما علي تصنيف الجماعات القبلية الحدودية التي كانت تدين بولائها للسلطة في الجزائر خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر، خاصة وأن بعضها استقبل هدايا وإحسانات بايات تونس. وعلى نفس المنوال حددنا التخوم الجنوبية للجزائر انطلاقا من المراكز العمرانية والجماعات انطلاقا من تقديمها لفروض الطاعة للسلطة المركزية من خلال دفعها للضرائب المادية والعينية.

في الواقع وعلى تنوع الأرصدة الأرشيفية التي تظهر من حين لآخر حول الجزائر خلال القرن الثامن عشر، تميز الدفتر رقم 2144 بمادة خبرية واحصائية سمتها الدقة والغزارة، برزت من خلال تلك القوائم الطويلة والمفصلة بأسماء مختلف الأشخاص الذين استقبلوا الهدايا والإحسانات، على مستوى الجماعات الريفية أو المراكز الحضرية والعمرانية، مع التفصيل في جرد وظائفهم، وصفتهم الإدارية أو العائلية، ودوافع استقبالهم للإحسان من قبل باي تونس، مع مسميات الكثير من الهدايا وأسعارها، ومن المفارقات أن كل ذلك الجرد كان وفق تواريخ مضبوطة باليوم

[239]- ظهر خلاف بين حسين بن علي وابن أخيه علي، سببه أن حسين بن علي الذي لم يكن له حينها أبناء فعين ابن أخيه علي وليا للعهد، لكن حسين وبعد أن رزق بأولاد تراجع عن قراره الأول وفضل تقديم ابنه الأكبر محمد الذي ولد سنة1122 هـ/ 1711م وليا للعهد، وحاول ارضاء ابن أخيه بمنحه لقب الباشا ، لكن علي باشا غضب من عدول عمه عن قراره، ودخل الطرفان في صراع أجج من الانقسام داخل تونس من خلال بروز تيارين: باشي موالي لعلي باشا و حسيني موالي لحسين بن علي، وزاد الشرخ بعد الحروب المتواصلة التي انتهت بانتصار حسين بن علي أواخر سنة1141 هـ/ 1728م ، فلجأ علي باشا إلى الجزائر واستقر بها إلى حدود سنة1148هـ/ 1735م ، وهي السنة التي انتصر فيها علي باشا على عمه واستولى على الحكم، بعد أن وجه ضده حملة عسكرية بدعم من قوات الأتراك بالجزائر، ولم تنتهي الحروب بينهما إلا بقتل علي باشا لعمه سنة 1153هـ / 1740م ، والتجأ أبناء حسين بن علي إلى الجزائر، فيما أصبحت علاقات علي باشا مع أتراك الجزائر متوترة بعد أن توقف عن دفع الإتاوة السنوية منذ سنة1158هـ/ 1745م ، مما دفع بأتراك الجزائر إلى توجيه حملتين ضده الأولى سنة1159هـ/ 1746م ، كان مآلها الفشل والثانية سنة 1169هـ/ 1756م انتهت باحتلال مدينة تونس وقتل علي باشا، الذي نصب محله محمد بن حسين بن علي (1170هـ/ 1756م-1172هـ/ 1759م)، ومن بعده أخوه علي باي (1172هـ/ 1759م – 1196هـ/ 1782م) الذين اعترفا بسيادة الجزائر على تونس مستأنفين دفع الإتاوة السنوية .

والشهر والسنة، وهو ما جعل الدفتر أقرب إلى النصوص الإخبارية التي دونت بحرص ملفت، جوانب مهمة من تاريخ الجزائر على المستوى المحلي، وعلى صعيد علاقاتها الخارجية مع تونس، ومع بعض دول حوض المتوسط.

لقد تفرد الدفتر في عمومه بتدوين التاريخ السياسي، والاجتماعي، والاقتصادي للجزائر في الفترة الممتدة ما بين 1170 هـ/ 1756م- 1192 هـ/ 1778م، حيث يتسنى للقارئ أو الباحث أن يستخرج مادة غزيرة حول تاريخ الكثير من الجماعات الريفية، أمثال الحنانشة بفرعيهما نصر ومنصر، أولاد سيدي يحي بن طالب، آل المقراني، بني جلاب، أولاد سيدي عبيد، النمامشة، أولاد ماضي، أولاد بوضياف...إلخ، وأيضا المراكز العمرانية على غرار قرية جلال (خنشلة)، خنقة سيدي ناجي، تقرت، مسيلة، والحضرية مثل الجزائر، تلمسان، مليانة، قسنطينة وعنابة[240].

كما شكل الدفتر أيضا رصيدا لشبكة العلاقات الاجتماعية القائمة في جهاز الحكم في الجزائر، وكذلك الجماعات الريفية، ومن المفارقات أيضا أنه شكل معجما غنيا بالأسماء المستعملة في تلك المرحلة، والشخصيات التي تداولت على السلطة وتفرعاتها، إلى جانب أسماء الوظائف، المراتب، الألبسة بأنواعها والنقود المستعملة في تلك المرحلة. فإذا ما أخذنا ببعض الأسماء المتداولة خلال النصف الثاني من القرن الثامن عشر حسب الدفتر - والملفت أن الكثير منها تحول إلى ألقاب عائلية خلال المرحلة الاستعمارية- نذكر منها: بوزيان، مزيان، زروق، طراد، زواغي، هباش، قرون، بوعكاز، شوالة، البرج، السايح، بركات، عبيد، المناعي، جلاب، وفي الكنى مثل بوغرارة، بوقفة، بونوارة، بوعلاق، بوحفص، بوترعة، والنسبة على غرار المتيجي، التلمساني، الجزايري، الوغليسي، البجاوي، الصفاقسي، القسمطيني، الزميرلي، الكريتلي، القبايلي، المجاني، الدريدي، البليلي، المجاني، الحناشي، القرفي، العمري، الزمولي، السوفي، الأوراسي[241].

أما الوظائف بمختلف رتبها فتزاحمت بدورها بين ثنايا الدفتر نذكر منها: رايس البحر، رايس المرسا، الباشا، الباي، خزندار، باش حامبة، الدولاتي، قائد القصبة، قائد العزيب، وكيل الحرج، بولكباشي، السايس، باش سيار، الآغة، خوجة الخيل، الشاوش، خوجة النوباجية، قايد الدار، باش مقاطعجي، باش سايس، المزوار، وكيل الحوش، قائد العزلة، باش بواب، وهي الوظائف التي وردت غالبيتها بأسماء أصحابها[242].

كما لم يخلو الدفتر من بصمات الظاهرة الصوفية التي ترجمت في ذكر بعض الزوايا وشيوخها، التي انتشرت بالجزائر وحضيت بهدايا من قبل البلاط التونسي، مثل زاوية عبد الرحمان الثعالبي بالجزائر العاصمة، زاوية الشيخ محمد بن علال بقرومة (ضواحي البويرة)، زاوية سيدي علي بن امبارك (القليعة)، وزاوية سيدي أحمد بن يوسف

[240]- توفيق بن زردة، إحسانات بايات تونس لبايات وأعيان وقبائل بايلك قسنطينة 1756- 1778، وثائق من الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي، الدفتر رقم 2144، دار الأقصى للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015، ص، 12.

[241]- توفيق بن زردة، المرجع نفسه، ص، 13

[242]-توفيق بن زردة، الجزائر في القرن الثامن عشر، المرجع السابق، ص، 14.

بمليانة، ومن المرابطين ورد اسم محمد بن عبد العظيم بن بني ورتيلان، المرابط ابن سيدي مبروك بقسنطينة وغيرهم كثير. أما العلماء والصلحاء فتزاحمت أسماؤهم خاصة في خنقة سيدي ناجي ضواحي بسكرة، مثل الفقيه سي محمد الخنقي، سي مبارك السايغ، سي بلقاسم بن عبد الحفيظ.وطبعا ظاهرة الأشراف لازمت بدورها الظاهرة الصوفية حيث وردت أسماء بعضهم في مدينة الجزائر وقسنطينة، التي حضيت فيها أيضا عائلة الفقون بتولي أفرادها منصب شيخ ركب الحج، حيث وردت بعض أسمائهم في الدفتر مثل سي بدر الدين الفقون، وابنه عبد الكريم[243].

أما إذا انتقلنا إلى الأشياء العينية التي قدمت كهدايا لكبار الموظفين في قصور الدايات والبايات، إلى جانب شيوخ الجماعات الريفية فكانت غنية جدا في الدفتر، منها الألبسة التي قُيدت بأسمائها وقيمتها، وثمن تصنيع بعضها، وهو ما يعطي قيمة اقتصادية إضافية للدفتر، بامكانها أن تفتح شهية الباحثين في هذا المجال، الذين سيجدون أيضا ضالتهم في أنواع السكة المتداولة في تلك المرحلة على غرار المحبوب، الريال، والسلطاني، وقيمة التعامل بين كل عملة.

وربما أكثر ما يثير الذهول في الدفتر رقم 2144 هو سرده بطريقة غير مباشرة للكثير من الأحداث السياسية والعسكرية التي عاشتها الجزائر بين 1170 هـ/ 1756م- 1192هـ/ 1778م، وهي الأحداث التي وصلت أخبارها للبلاط التونسي من قبل رسل جزائريين على غرار البشارة التي أتى بها المسمى سعيد بن البرج لباي تونس عن تولية صالح باي على قسنطينة (1185هـ/ 1771م)، وبشارة أخرى تحدثت عن انهزام الإسبان على يد الجزائريين سنة 1189هـ/ 1775م (حملة أورلي)، إلى جانب ظاهرة الأسرى الجزائريين في الكثير من الدول الأوروبية على غرار اسبانيا، مالطا، قرطاجنة وغيرها من الأحداث التي جاءت بين ثنايا الدفتر، الذي لم يخلو أيضا من تدوين تاريخ الحراك الاجتماعي والنشاط الاقتصادي الذي كان قائما بين الجزائر وتونس خلال النصف لثاني من القرن التاسع عشر، حيث وردت فيه مادة غزيرة ومفصلة عن الظاهرتين، على غرار رحلات الحج التي كانت تخترق التراب التونسي، أو رحلات الجزائريين إلى اسطنبول، وبغداد انطلاقا من الموانئ التونسية، إلى جانب حركة التجارة التي كانت تمارسها الرعية بين البلدين، حيث شكلت القبائل الحدودية على غرار الفراشيش، أولاد بوغانم، وشتاتة من الطرف التونسي وقبائل الحنانشة، النمامشة، أولادي سيدي عبيد من الطرف الجزائري شكلت مجتمعة بنية جغرافية بخلفيات جيواستراتيجية تداخلت عبرها المصالح الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية بين البلدين[244].

[243]- توفيق بن زردة، إحسانات بايات تونس، المصدر السابق، ص، 15

[244]- توفيق بن زردة، الجزائر في القرن الثامن عشر، المرجع السابق، ص، 14.

الفصل الثاني :

علاقة الجزائر مع العالم الأوروبي والأمريكي

1.مع اسبانيا:

شكلت اسبانيا خلال القرن السادس عشر الواجهة الأوروبية المتحاملة على الضفة الجنوبية للبحر المتوسط، لما باتت تشكله هذا الأخيرة من بعد جيو-جغرافي يخدم الاقتصاديات الاسبانية وتجارتها البحرية التي تعمقت في المحيط الأطلسي بعد اكتشاف القارة الأمريكية، لذلك تحول صراع التموقع مع القراصنة المغامرين إلى لعبة كسر العظام، التي لم تنتهي أطوارها إلا بعد تحرر وهران خلال النصف الأخير من القرن الثامن عشر، حتى أن أحمد توفيق المدني خصص كتابا كاملا لهذه العلاقات عنونه ب " حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792" ضمنه تسعة عشر فصلا بدءا بالفصل الأول الذي جاء بعنوان "صبغة العدوان الإسباني وأسبابه المباشرة" وصولا إلى الفصل الأخير الذي جاء بعنوان " فصل الخطاب وتصفية الحساب"[245].

ربما أكثر الوقائع صداما بين الطرفين هي حملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 1541، حيث ينتصب الحكم التركي، حيث أراد من خلالها أن يقضي على التواجد العثماني الذي تدعم نشاطه البحري وكثرت اغاراته على السواحل الأوروبية في إيطاليا وسردينيا وجزر البليار، في مقابل انتصارات الأتراك البحرية حقق الإسبان انتصارات برية، على غرار استمالتهم للسلطان الزياني في تلمسان، والحفصي في تونس، لذلك كانت بالنسبة اليهم دولة المدينة (الجزائر) التي تحولت إلى قاعدة لانطلاق الغارات البحرية الهدف الذي سيمنح لشارلكان السيطرة على الحوض الغربي للبحر المتوسط، ويؤمن له الطرق البحرية بين شطري امبراطوريته، كما يمكنه من فرض حصار محكم على فرنسا من الجنوب، وبالتالي اخضاعها لسلطانه[246]، كما يبدو أن رسالة محمد بن محمد ابن القاضي أمير كوكو إلى شارلكان قد أعطته دافعية لهذه الحملة على مدينة الجزائر، ومما جاء فيها: ....صاحب الشهامة والإقدام والضرب بالأسنة والحسام، الأهر الأجود العماد.....وهذه مدة طويلة ننتظر قدومكم معه أقدمكم الله في ساعة الخير ولا خفي عنكم ما وقع بيننا وبين عدونا في الصيفمن القتال مدة تزيد عن شهرين، وظننا ورودكم على الجزائر مع غيبته (خير الدين) وتتقطع مادته وتريحون الناس منه، ولم يرد الله ذلك، هو الآن يطلب صلحنا، وأبينا القتال كل وقت بيننا وبينه، وعليكم بالجد والعزم والنهوض والحزم ..."[247]

يقدم أحمد المدني في وثيقة أرشيفية وقع عليها في أرشيف سيمانكاس الإسباني تعود لسنة 1533، تتضمن قوة الجزائر في هذه المرحلة: يحكم الجزائر في هذه المرحلة حسن آغا، وينوب عنه في حالة غيابه حاج باشا ويوجد بمدينة الجزائر 1800 تركي، أما في بقية البلاد فيتوزعون على النحو التالي: في تنس 25، شرشال: 30، المدية: 150، جيجل: 20، القل: 20، قسنطينة: 300، وهكذا يوجد حوالي 2600 تركي، كما توجد بمدينة الجزائر نحو 3000 عائلة

[245]– أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492– 1792، دار عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.

[246]– أحمد توفيق المدني، المرجع نفسه، ص، 251

[247]– المرجع نفسه، ص، 281، 282.

عربية و300 عائلة يهودية، أما القوة التي بين يدي حسن آغا فتشمل 700 تركي وألف فارس وألفي رجل من العرب، إلى جانب المدفعية التي وردت مفصلة في هذه الوثيقة[248].

في المقابل كان جيش شارلكان يتكون من خيرة المقاتلين، وقد شارك فيه كل نبلاء إسبانيا وألمانيا وإيطاليا بإرسال متطوعين، والبابا يوحنا الثالث أرسل مع الجيش حفيده كولونا، ورهبنة مالطا القوية والعنيفة أرسلت مائة وأربعين فارسا وأربعمائة رجل، فكان الجيش الشارلكاني يبلغ 24 ألف رجل، وألفي فارس، أما الأسطول فكان يشتمل على أربعمائة وخمسين سفينة نقل، وخمس وستين سفينة حربية كبرى، فكان عدد البحارة في مجموعها يبلغ 12 ألف رجل تحت قيادة أندري دوريا نفسه[249].

تحرك الأسطول الضخم من مرسى ماهون يوم 18 أكتوبر سنة 1541، ووصل الجزائر يوم 20 أكتوبر، وعلى ضفة وادي الحراش أخذ ينزل جنده إلى البر، ومعهم شارلكان محاطا بالأشراف والنبلاء، وجعل من مقر أركان .حربه عند " الحامة" شرقي مدينة الجزائر، ورغم المعارك البرية التي خاضها الطرفان، لكن العاصفة البحرية والأمطار الغزيرة التي تهاطلت قد حسمت الأمر بعد أن تحطم لشارلكان 150 سفينة، لينسحب من هذه الحملة التي فشلت في اقتحام مدينة الجزائر[250].

طبعا هذه الواقعة الصدامية سمحت للأتراك العثمانيين من تمتين تواجدهم في القواعد التي أسسوها والتي منها انطلقوا في تأسيس كيان جغرافي تابع للسلطان العثماني، حيث تبع هذه المرحلة تدفق المدد العثماني الذي مكن خير الدين ومن جاء بعده من التأسيس لجغرافيا سياسية ملحقة بالباب العالي، حيث بقيت هذه الجغرافيا قرابة الثلاثة قرون مخترقة بالتواجد الإسباني في وهران الذي لم تفكك أركانه إلا سنة 1792، ليجعل العثمانيون من هذه المدينة الساحلية عاصمة لسلطة البايلك التي كان مقرها بمدينة معسكر[251]. أما من نتائج التمكن من وهران هو توقيع اتفاقية مع الإسبان تضمنت حسب محمد بن علي سحنون في كتابه " الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني " ما يلي:

1 يتخلى الإسبان عن وهران والمرسى الكبير كما كانا في عهد الباي بو الشلاغم من حيث التحصينات والمدفعية

1. يلتزم الإسبان بدفع 12 ألف سلطاني لحكومة الداي سنويا
2. يفتح المرسى الكبير للتجارة الإسبانية وحدها دون غيرها من البلدان
3. كل سفينة إسبانية ترسوا في ميناء المرسى الكبير تدفع 55 ريالا ، 40 منها لبيت المال والبقية لقائد الميناء.

[248]– أحمد توفيق المدني ، المرجع السابق، ص، 252، 253

[249]– كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص، 91، 92

[250]– أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص، 270– 272.

[251]– صالح عباد، المرجع السابق، ص، 171، 172

4. بامكان الإسبان أن يشتروا كل سنة ألف حمولة من القمح بسعر السوق دون أي تدخل من الباي.
5. تعطى للسكان مهلة أربعة أشهر لإخلاء مدينة وهران والمرسى الكبير
6. سحب كل الفرق العسكرية المحيطة بوهران وإيقاف كل العمليات العدائية[252]

2.مع فرنسا:

قد تكون أكثر المواضع إثارة ونحن نتحدث عن علاقات الجزائر الخارجية هو حديثنا عن علاقتها بفرنسا، لأن هذه الأخيرة ستتحول إلى كيان مستعمر، بعد مرحلة غزو كانت فيها الأوضاع الداخلية للجزائر متهالكة، وفاتها الكثير للتموضع في أسباب النهضة والحضارة، لذلك تحولت فرنسا إلى دولة مفترسة تنكرت حتى لديونها الخارجية مع الجزائر، ووقوف هذه الأخيرة في محنتها التي تعرضت لها بعد أزمة الجوع التي عاشتها نتيجة الحصار الذي فرض عليها من قبل الدول الأوروبية عقب حروب نابوليون بونابارت، حيث وصلت هذه العلاقات بين البلدين إلى مرحلة صدام وأزمة عميقة ترسخت بين الأجيال إلى اليوم.

ورغم هذه المرحلة الاستعمارية التي كادت تأتي على الأرض والإنسان، إلا أن الفرد الجزائري اليوم لازال يتحدث عن ذلك العنفوان الذي يتملك تاريخه في علاقته مع فرنسا، حيث كان فيها مدفع بابا مروزق الذي رمي به أعضاء الوفد القنصلي الفرنسي خلال القرن السابع عشر، شاهدا على هذه المرحلة "الذهبية" حتى أن الفرنسيين بعد احتلالهم للجزائر عمدوا إلى أخذ هذا المدفع الذي يسمونه بالمدفع القنصلي ونصبوه في أحد المدن الفرنسية ووضعوا فوقه "الديك الفرنسي" لإهانة تاريخية هذا المدفع ومن يمثله. وطبعا هذه المرحلة كانت تحصيل حصار فرنسي طويل على السواحل الجزائرية (1827- 1830) كان الغرض منه انهاك القوى المحلية، وكسر البنى القرصنية التي كانت تشكل أحد أهم مداخيل الجزائر ، وعنوانا لفرض منطقها في التعاملات الخارجية ومع الدول التي ترتاد سفنها حوض البحر الأبيض المتوسط. في الواقع تكشف الدراسات التاريخية أن العلاقات بين إيالة الجزائر وفرنسا أخذت مستويات متباينة خلال الثلاثة قرون، وهي العلاقات التي بدأت مبكرا خلال النصف الأول من القرن السادس عشر، عندما بني حصن فرنسا (Bastion de France) لأول مرة سنة 930هـ/1524م على بعد حوالي 60كلم شرق مدينة عنابة و10 كلم غرب القالة من قبل الفرنسيين بعد موافقة السلطان العثماني، حيث أصبح يشكل نقطة ارتكاز هامة في المعاملات التجارية مستقطبا القبائل نحوه في اتجاه الساحل الشمالي، خاصة تلك المنتشرة في محيطه مثل مرداس والحنانشة، كون معاملاته باتت تهتم بشراء القمح و الصوف و الجلود و الشمع و ومنتوجات أخرى التي توفرها هذه القبائل وهو ما بات يوفر مكاسب قارة وتجارة على مرمى حجر من نفوذ القبائل الكبرى أهمها الحنانشة [253]،

[252]– صالح عباد، المرجع نفسه، ص، 172، 173.

[253]-L.Ch. Féraud, *Histoire des villes de la province de Constantine ,la Calle,et documents pour servir a l'histoire des anciennes concessions*, Trois couleurs ,Alger,1877.p.92

وذلك بعيدا عن عمق الصحراء وحدود شرق الجزائر و دواخل تونس التي لم تكن أوضاعها مستتبة نظرا لانتشار اللصوصية والحروب التي غدت تخوض غمارها الطريقة الصوفية الشابية [254].

ومع الوقت تعمق نشاط حصن فرنسا التجاري وخاصة مع المجتمعات الريفية التي دخلت في علاقات تجارية واسعة مع الباستيون، الذي أصبح يشكل موردا مهما لنشاطهم التجاري، حيث انتفعوا ببيعهم للحبوب ومنتوجاتهم من أصواف وشمع للمركز التجاري الموجود بالحصن [255].خاصة بعد أن هيكل حكام الجزائر نشاطه في الاتفاقية التي تعود إلى سنة 1037هـ/1628م مع فرنسا برعاية "صانصون نابوليون" (Sanson Napoléon) الذي وفد إلى الجزائر، وهي اتفاقية مكملة للاتفاقية الأولى التي تعود إلى سنة 1028هـ/ 1619م، أين كان حكام الجزائر بدورهم يستفيدون من نشاط الباستيون إذ كان القائمون عليه ملزمين بدفع مبلغ مالي يقدر بـ 12 ألف قرش للخزينة وما يقارب هذا المبلغ يوزع على الباشا والكاهية والآغا وعلى بعض أعضاء الديوان [256].

ونظرا لنفس السياسة التي دأب على اتباعها أتراك الجزائر من خلال فرض الضرائب على رعاياهم والتضييق عليهم فقد أقدم مراد باي قسنطينة [257] وبأمر من حاكم الجزائر، على فرض دفع اللزمة ضريبة سنوية على سكان بايلك الشرق، وبأوامر من نفس الباشا أقدم القائد "علي بتشين " على هدم باستيون فرنسا، أين تضررت بسبب هذا الهـدم المصالح الشخصية لشيخ الحنانشة خالد الصغير، وكـان هذا العمل بداية لاندلاع ثورة عارمة سنة 1048هـ/1638م مست بايلك الشرق قادها خالد الصغير وأحمد بن صخري الذي قتل مراد باي أخاه [258].

ترجم شارل فيرو (Charles Féraud) في عدد المجلة الإفريقية لسنة 1866م لمخطوط يعود للأهالي يسرد تفاصيل هذه الثورة العارمة التي تعرف بثورة شيخ الصحراء شيخ العرب " أحمد بن صخري" .كان مراد باي قسنطينة يخيم في شهر صفر 1047هـ/ جوان 1637م جنوب قسنطينة، حيث استقبل الشيخ " محمد بن صخري بن بوعكاز العلوي " شيخ العرب، أين قام بأسره وطلب من الديوان في الجزائر السماح له بقتله لأنه خرج عن طاعة حاكم الجزائر، وقد نفذ فيه مراد باي حكم الإعدام وقتل معه ابنه أحمد وستة آخرين كانوا برفقته حيث قطعت رؤوسهم [259].

---

[254]– العدواني، تاريخ العدواني تحقيق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، 2005، ص ص.17-183

[255]-A .Berbrugger,*op.cit*.,p.347

[256]–معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619- 1830، نشر وترجمة جمال قنان، دار هومة ،الجزائر ،2010.ص.74.

[257]– جعل محمد صالح العنتري من فرحات باي هو أول باي على قسنطينة وذلك سنة 1647،يرجى الرجوع إلى:

– صالح العنتري، فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة ،نشر يحي بوعزيز، دار هومة الجزائر،2005،ص ص.62،61.

[258]-Eugène Vayssettes,*op.cit*,.p.72

[259]-L.Ch. Féraud, « Epoque de l'établissement des Turcs à Constantine» ,*R.A*,10,(1866)p.180

سنة بعد هذه الحوادث (فرض اللزمة، هدم الباستيون، قتل شيخ العرب) والتي جعلت من مصالح الطرفين تلتقي فشيخ الحنانشة يريد استرداد مصالحه الاقتصادية التي باتت تتقلص أمام النفوذ التركي وشيخ العرب يبغي الانتقام لمقتل أخيه، تقاطع مصالح الطرفين دفعتهم للتعاون فيما بينهم تؤازرهما القبائل البدوية الممتدة من أبواب مدينة تونس إلى أبواب مدينة الجزائر، حيث أعلنوا الثورة ضد مراد باي امتدت على رقعة واسعة من الصحراء جنوبا إلى غاية الساحل شمالا [260].

لم تنتهي هذه المرحلة إلا بعد خضوع الحكام الأتراك للشروط التي أملتها الأطراف المنتصرة وتجسدت هذه الشروط في النقاط التالية :

1-كف الأتراك عن الإصرار بالمطالبة بضريبة اللزمة .

2- عودة القوات التركية لمدينة الجزائر .

3-إعادة بناء الباستيون، ويستبدل الأهالي المحاصيل الزراعية بقيمة مالية يدفعون بها اللزمة كون مداخيلهم تراجعت بسبب تحطيم الباستيون[261].

استطاعت الحنانشة بفضل هذه الاتفاقية مع أتراك الجزائر من الحفاظ على مصالحها الاقتصادية التي باتت ترتبط بشكل وثيق بالباستيون، وعاد نشاط الباستيون بعد المعاهدة التي تمت بين الحكومة الجزائرية والسيد دي كوكييل (Décoquille) بتاريخ 18ربيع الأول 1050هـ /07 جويلية 1640م وتضمنت بنود الاتفاق 23 بندا، ينظم نشاط الباستيون، أهمها البند رقم 01 الذي منح تسهيلات واسعة للفرنسيين مثل احتكارهم لتجارة بعض السلع كالشمع والجلود مابين القل وحتى القالة والبند رقم 02 الذي يلزم السيد دي كوكييل (Décoquille) بدفع مقابل التجارة التي يمارسها 34ألف دوبل كلزمة سنوية [262].

في الواقع إن تاريخ علاقات الجزائر الفرنسية تكشفه أيضا البعثات الديبلوماسية، إلى جانب السفراء والقناصل الممثلين لفرنسا في الجزائر آخرهم هو القنصل دوفال الذي معه تأزمت هذه العلاقات، أما ما نشره المرحوم جمال قنان من دراسة بعنوان " معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619- 1830" فيؤكد على تجذر المعاملات بين الطرفين وتشعبها على أكثر من صعيد، وما أشرنا إليه من نشاط الباستيون على أرض الجزائر هو تتويج لهذه الاتفاقيات والمعاهدات التي أخذت أيض طابع المعاهدات لإقرار السلم بين الطرفين مثل معاهدة السلم التي تمت في عهد الداي شعبان سنة 1692، ومعاهدة السلم التي تمت سنوات 1718، 1719، 1724، 1732، 1745، 1748، 1764، 1790، ومما

[260]-L.Ch. Féraud,*op.cit.*,p.181.
[261]- A.Berbrugger,*op.cit.*,p.345

[262]– وهو يعادل حوالي 515 سلطاني جزائري .أو 2500 قرش اسباني .

ورد في الاتفاقية الأخيرة نذكر " فإن البحارة سيقومون بعملياتهم على بعد ثلاثين ميلا من الشواطئ الفرنسية وباعتبار أن هذا الاشتراط كان مصدر نزاعات متكررة، فقد تم الاتفاق بين الطرفين على إلغائه ومن الآن فصاعدا فإن حدود هذه الحصانة سواء بالنسبة للسفن الجزائرية أو بالنسبة لأعدائهم تكون على مرمى المدفع من الشواطئ الفرنسية أو على شواطئ جزيرة كورسيكا، سوء توجد مدافع على الساحل أو لا توجد، بحيث أنه داخل هذا النطاق المحدد الجديد فإن بحارة الإيالة يكونون في مأمن من أعدائهم "[263].

3. مع الولايات المتحدة الأمريكية:

مع اكتشاف القارة الأمريكية خلال القرن الخامس عشر حدث تحول نوعي في مسار الحضارة الأوروبية التي أخذت تتغذى من الجغرافيا المكتشفة حديثا، وتتقوى بثرواتها الطبيعية، والتي سرعان ما تحولت إلى مسار كولونيالي بريطانيا سيطرة على الفضاء الأمريكي، الذي شهد عبر التاريخ تدفق بشري أوروبي سرعان ما وضف السود في أعمال السخرة، حيث تشكل مع الوقت نسيج اجتماعي بمقومات اقتصادية وبنى سوسيولوجية سرعان ما طالبت بالاستقلال عن التاج البريطاني، الذي اعترف بهذ الاستقلال سنة 1783، انتهى إلى تشكيل اتحاد من ثلاث ولايات منذ 1787، يحكمها دستور اتحادي بنظام فيدرالي[264].

وفي ظل تنامي القوة البحيرة الجزائرية التي أصبحت تفرض جبروتها على باقي الدول سعت الولايات المتحدة الأمريكية الى عقد معاهدة مع الجزائر التي كانت اقوى النيابات العثمانية آنذاك حفاظاً على سلامة السفن التجارية الأمريكية في البحر المتوسط. فبعد انتصارهم على الإسبان وعقد معاهدة معهم عام 1783م، أُتيح للجزائريين التحرك بحرية أكبر في البحر المتوسط و المحيط الأطلنطي بعدما فُتح أمامهم مضيق جبل طارق، فاستولى الجزائريون على سفينتين أمريكيتين عام 1785 وزادت حصيلتهم من الأسرى الأمريكيين[265].

أرسلت الولايات المتحدة مندوبا عام 1786 يدعى جون لامب فدخل في مفاوضات مع الداي محمد باشا فوافق الأمريكيون على دفع مبلغ عشرة آلاف دولار مع أن الداي كان قد طالب بـ59464 دولار.ورغم غلق البرتغال لمضيق جبل طارق أمام البحرية الجزائرية و تقديم الحكومة البرتغالية الحماية للسفن الأمريكية إلا أن السفن الجزائرية استطاعت الاستيلاء على 11 سفينة أمريكية في عام 1793 وبلغ عدد الأسرى الأمريكيين 150 أسيرا. وقد أدى هذا الى إحداث إثارة كبيرة في الولايات المتحدة وبذلت المساعي من أجل حل هذه المسألة. فأقر الكونجرس في عام 1794 إنشاء اسطول مكون من 6 سفن أمريكية لاستخدامها ضد الاعتداءات المعادية في البحر المتوسط . ورغم إقرار أسلوب القوة الا أن وزير خارجية الولايات المتحدة الأمريكية الجديد ادمون راندلوف اضطر لتخصيص مبلغ 800

[263]- جمال قنان، المرجع السابق، ص، 388، 389.

[264]- رابح لونيسي " العلاقات الجزائرية الأمريكية عبر التاريخ"، مجلة عصور، المجلد 9، ع.1ص، 20

[265]- قشوان عبد الرزاق " تأصيل العلاقات الجزائرية الأمريكية مطلع القرن التاسع عشر" موقع أكادميا العربية، academia-arabia.com/http

ألف دولار لتحقيق السلام وتخليص الأسرى لدى الجزائر.وفي عام 1795 سافر المندوب الأمريكي جوزيف دونالدسون إلى الجزائر للاتفاق على عقد معاهدة "الصداقة و السلام" بين الولايات المتحدة و الجزائر في 5 سبتمبر 1795 . و تم الإمضاء على المعاهدة رغم تحريض بريطانيا للداي على الاستمرار ضد النشاط التجاري الأمريكي من أجل القضاء عليه من ناحية، وتحجيم دور فرنسا من ناحية أخرى[266].

أما أهم مواد المعاهدة فهي أن تدفع الولايات المتحدة للجزائر إتاوة سنوية مقدارها 12 ألف من الذهب الجزائري مع إمكانية أن يتم الدفع عينيا، كأن يقوم الجانب الأمريكي بإعطاء الجزائر ما تحتاجه من معدات بحرية، و سواري السفن ولوازمها من حبال ، وأخشاب فضلا عن بعض المدافع والبارود على أن يتم حساب أثمانها من الإتاوة السنوية، وفي حالة الزيادة أو النقصان يتم التعويض[267].

وحدث تأخير من قبل الولايات المتحدة في إرسال ما تم الاتفاق عليه مع الجزائر فظن الداي أن الأمريكيين غير جادين في تنفيذ المعاهدة. و أبلغ المندوبين الأمريكيين بضرورة المغادرة خلال أيام وإذا لم يتم التسليم خلال شهر فسيلغي المعاهدة ويعلن الحرب. فلجأ المندوبان الى أحد كبار التجار اليهود من آل بكري للتوسط لدي الداي لزيادة المهلة بعد أن حاولوا استمالة الداي بالوعد بإهداء سفينة إلى ابنته. فوافق الداي على زيادة المهلة إلى ثلاثة أشهر فقط. و وعدت الولايات المتحدة بإرسال اللازم في صيف عام 1797. و في عام 1800م وصلت السفينة الأمريكية جورج واشنطن الى الجزائر تحمل الإتاوة السنوية[268].

استمرت العلاقة بين الجزائر و الولايات المتحدة تسير في ظل معاهدة 1795 م رغم حدوث بعض التوتر بسبب التأخر في إرسال الإتاوة الى الجزائر، أو المعدات الحربية، والذي وصل في بعض الأحيان إلى التهديد والاستيلاء على السفن الأمريكية. وقد ازداد الأمر سوءا عند اندلاع الحرب الأمريكية البريطانية عام (1812 – 1814) الأمر الذي أدى الى توقف التجارة الأمريكية البحرية في البحر المتوسط.

وبعد انتهاء الحرب الأمريكية البريطانية قررت الولايات المتحدة حل مسألة الجزائر بصفة نهائية حيث كانت متأكدة من أنها ستجبر الجزائر على الرضوخ لمطالبها بسبب تدهور الأوضاع الداخلية في الجزائر نتيجة للصراع بين الدايات و الإنكشارية فضلا عن أن الولايات المتحدة حاولت الاستفادة من قرارات مؤتمر فيينا عام 1815 م والذي قررت فيه الدول الأوروبية إنهاء الاعتداءات على السفن في البحر المتوسط. فأعلن الرئيس الأمريكي جيمس ماديسون في عام 1815م الحرب على الجزائر وتم إعداد اسطولين لهذا الغرض.

---

[266]- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص، 59

[267]– المرجع نفسه، ص، 60، 61

[268]- يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص، 60، 61

و بدأت الحرب بين الطرفين في ظل ظروف غير متكافئة، وانتهت بانتصار الأسطول الأمريكي، وجرت المفاوضات لعقد المعاهدة في 30 يونيو 1815م بناء على الشروط التي وضعتها الولايات المتحدة من أهمها عدم دفع الأمريكيين إتاوة سنوية للجزائر. ووافق الداي عمر باشا مقابل رد السفينتين الجزائريتين التي لم تعودا الى الميناء بعد اعتداء الأمريكيين عليهما، وأثناء ذلك كانت الأمور تتطور لصالح الولايات المتحدة حيث قام الأسطول الهولندي – البريطاني بقصف مدينة الجزائر عام 1816م وإجبارها على قبول مطالب بريطانيا مما زعزع من مكانة الجزائر. وأخذ الأسطول الأمريكي يظهر أمام سواحلها مستغلا الهزيمة، ولم يكن لدى الداي قوة تمكنه من مقاومة الأسطول الأمريكي، ولهذا اضطر الى عقد معاهدة مع الولايات المتحدة طبقا لشروطها في 22 ديسمبر 1816م ومن أهم موادها عدم دفع الأمريكيين أية اتاوة للجزائر اعتبارا من ذلك التاريخ، وعدم إعادة السفينتين الجزائريتين. وبعد توقيع هذه المعاهدة لم يحدث بين الولايات المتحدة والجزائر أية أحداث ذات أهمية، ولعل ذلك يعود إلى ازدياد تدهور الأوضاع الداخلية للجزائر مما مكن الولايات المتحدة من زيادة تدعيم وجودها في البحر المتوسط[269].

4.مع دول أخرى (الدانمارك، البندقية، انجلترا)

منطق القوة والجبروت الذي فرضه النشاط البحري الجزائر بات عاملا حاسما للتحكم في علاقات الجزائر مع محيطها الخارجي، ففي عهد الداي محمد عثمان باشا عمد إلى الزيادة في الأتاوات السنوية التي تدفعها كل من هولندا والبندقية والسويد والدنمارك، فقبلت تلك الدول ما عد الدانمارك التي رفضت ذلك وكلفت الضابط كاعس CAAS بقيادة حملة بحرية ضد مدينة الجزائر عام 1770، وعندما وصل إلى خليجها رفع علم السلم كمخادعة وسمح لمراكبه بالدخول إلى الميناء فغدر وشرع في قذف المدينة بالقنابل لمدة 11 يوما، ولكنه لم يتمكن من النيل منها. وفقد كثيرا من رجاله ومراكبه واضطر أن يبتعد عن الميناء وطلب التفاوض لابرام الصلح، فرفض الداي وأمر أسطوله وبحارته بملاحقة المراكب الدانماركية، وهو ما فع بالدانمارك إلى الرضوخ لشروط الداي وقبلت أن تدفع 205 مليون دورو تعويضا عن الأضرار والخسائر التي لحقت المدينة، كما تعهدت بتقديم 44 مدفعا و 500 قنطار بارود و50 شراعا، كما افتدت أسراها بالأموال وقبلت بدفع اتاوة كل سنتين وهدايا مختلفة لرجال الدولة[270].وفي سنة 1763 وقعت الجزائر معاهدة مع البندقية، حيث حددت الرسم على الواردات ب 5 في المائة، وتعفي السلع الحربية من هذا الرسم كما تمنع الاسترقاق[271] .

لكن بعد مؤتمر فيينا (1815) دخلت الجزائر في عزلة خاصة بعد اتفاق أوروبي بالقضاء على القرصنة الجزائرية، حيث تلقى في بداية 1816 اللورد ايكسموث الانجليزي التعليمات بالسير إلى البلاد المغاربية ليطلب تحرير العبيد

---

[269]– يحي بوعزيز، المرجع السابق، ص، 60، 61

[270]– عبد الرحمان جيلالي، تاريخ الجزائر العام، ج3، ط3، الجزائر، 1982، ص، 239- 240.

[271]– صالح عباد، المرجع السابق، ص، 163

الأوروبيين، كما عمد إلى فرض شروط بعد فرض شروط قاسية إلى قصف مدينة الجزائر، التي عجز فيها الجنود الأتراك على صد هذا القصف حيث قتل من الجزائريين حوالي 600 شخص، كما لحقت أضرار كبيرة بمدينة الجزائر وتحطم الأسطول الذي كان راسيا بالميناء، منها 04 بوارج حربية و 5 سفن متوسطة الحجم و 23 زورقا وعددا كبيرا من المراكب التجارية المتنوعة، وانتهت المفاوضلت بين الإنجليز والداي عمر يوم 30 أوت إلى ما يلي:

- انهاء استعباد المسيحيين
- تسليم الأسرى المسيحيين واستعادة الأموال التي قدمت للجزائر منذ بداية السنة كفدية للأسرى
- اعتذار السلطات الجزائرية للقنصل الانجليزي لما لحقه من أضرار

ورغم أن الأتراك عملوا على إعادة بناء الأسطول حيث اشتروا بعض المراكب وبنوا أخرى وأهداهم الباب العالي والمغرب وطرابلس إلا أن هذا الأسطول لم يعد قادرا على ممارسة قرصنة واسعة. وبذلك ولى عهد القرصنة الجزائرية.[272]

[272]- صالح عباد، المرجع نفسه، ص، 217، 218.

المحور الرابع :

الدولـــــــــــــــــــة والمجتمـــــــــــــــــــع

الفصل الأول :

نظام الحكم، الاقتصاد، الأوقاف

الفصل الأول :

نظام الحكم، الاقتصاد، الأوقاف

1.نظام الحكم:

كانت سياسة الأتراك تقوم على اقامة حامية انكشارية في أية مدينة تقع تحت سلطانهم ، إلى جانب ادخال ديوان الانكشارية باعتباره المؤسسة الحاكمة للجيش، وهي المؤسسة التي ستكون في المستقبل أساسا لحكومة الإيالة، إلى جانب ذلك توصل الأتراك وجموع من معهم من جند من المحافظة على خصوصيتهم دون الذوبان في الجموع المحيطة فقط، بل تمكنوا كذلك من تثبيت أنفسهم كنواة نموذجية في المجتمع، بل تحولوا إلى مجموعة مهيمنة بلغتها ومذهبها وللتقاليد التي ينشرونها، كما استطاعوا أن يتمددوا اجتماعيا وذهنيا من خلال عنصر المولدين الذين عرفوا بالكراغلة.

إن أغلب الكتابات التاريخية ذهبت إلى تقسيم مراحل الحكم في الجزائر إلى أربعة وهي : مرحلة البايلربايات (1515- 1588)، مرحلة الباشوات (1588- 1659)، مرحلة الآغوات (1659- 1671)، مرحلة الدايات (1671- 1830)، وهناك من اعتبر الفترة الممتدة حسب خليفة حماش بين سنتي 1512- 1546 مرحلة مستقلة أطلق عليها " عصر الفتح" ليصبح عدد المراحل خمسا[273] ، لكن الأحداث التاريخية تكشف أنه خلال هذه المراحل المذكورة لم تحدث تغيرات في الحكم بقدر ما هي إلى تسميات وألقاب لإداريين جرى تغييرها على غرار اسمي " بايلرباي" و " باشا"، أما اسم " آغا" الذي أطلق على حكام المرحلة الثالثة فيقصد به " آغا الانكشارية" الذي عينه الجيش الانكشاري ليحكم إلى جانب الباشا الذي كان يرسل من اسطنبول خلال نفس المرحلة، وأما "الداي" الذي أطلق اسمه على حكام المرحلة الرابعة فهو الجندي الذي حل عام 1671 محل " آغا" الانكشارية إلى جانب الباشا، وذل حتى عام 1711 عندما تخلص الداي علي من الباشا شارقان إبراهيم الذي أرسله الباب العالي وانفرد بالحكم، وتوقف في نفس الوقت عن حمل لقب "داي" وحمل بدلا منه لقب " باشا" واستمر الوضع على هذه الحال حتى نهاية العهد العثماني في الجزائر عام 1830[274].

في المقابل عمد الباحث خليفة حماش إل تقديم تقسيم آخر لمراحل الحكم في الجزائر والتي حددها حسب مستوى التبعية أو الاستقلالية عن الباب العالي، لذلك قسمها إلى ثلاثة مراحل وهي:

المرحلة الأولى:وتبدأ – حسبه- من تاريخ تأسيس الإيالة سنة 1520 حتى عام 1659 وكانت الجزائر تحكم خلالها من قبل ولاة يعينهم الباب العالي ويرسلهم من اسطنبول.

المرحلة الثانية: وتمتد من عام 1659 حتى عام 1711 وفيها أصبح منصب الباشا صوريا لا يتعدى شاغله الذي كان يرسل من اسطنبول كونه ممثلا للسلطان العثماني لإضفاء شرعية الحكم على النظام الذي كان قائما ف الإيالة،

[273]– خليفة حماش، العلاقات بين إيالة الجزائر، المرجع السابق، ص، 31.

[274] -De Grammont Henri- Delmas, *Histoire d'Alger sous la domination turque 1515- 1830*, Bouchene, paris, 2002, p112.

ذلك لأن الجيش الانكشاري جرده من معظم سلطاته وسلمها لممثل عنه كان في البداية " آغا الانكشارية" وأصبح في عام 1671 هو " الداي" ويمكن أن يطلق على هذه المرحلة – حسبه- مرحلة الحكم الثنائي .

المرحلة الثالثة: وتمتد من عام 1711 حتى نهاية الحكم العثماني في الجزائر ، وفيها توقف إرسال الولاة من اسطنبول وأصبحوا يعينون من قبل الجيش الانكشاري في الجزائر واقتصر دور الباب العالي على ترسيمهم في مناصبهم دون أن يكون لهم أي نفوذ في اختيارهم[275] .

في الواقع إن أكثر ما يلفت في موضوع نظام الحكم العثماني في الجزائر، هو الجغرافيا السياسية التي تحكمت في هذا الموضوع، وذلك يعود لطبيعة هذه الفئة الحاكمة التي هي بتقاليد عسكرية تركن إلى النشاط البحري أكثر، وهو ما جعل من منظومة الحكم بإرهاصات " مائية" طيلة حوالي قرنين، ولما شحت موارد البحر مع بداية القرن الثامن عشر توجهت هذه الفئة نحو الدواخل، حيث العمق الاجتماعي المحلي الذي يعيش على الفلاحة والرعي، عندها نشطت مؤسسة المحلة التي كانت تجوب القبائل من أجل جمع الضرائب وتحصيل المجبى الفصلي الذي تضمن من خلاله منظومة الحكم توازناتها الداخلية والخارجية، لذلك انقسم نظام الحكم في اعتقادنا على مرحلتين الأول كان تحصيل انجذاب بحري نشطت فيه القرصنة التي وفرت مداخيل كبيرة للإيالة، وفرضت منطق القوة والجبروت على الدول البحرية في أوروبا والعالم الخارجي، أما بحلول القرن الثامن عشر تبدأ المرحلة الثانية بعدما شحت موارد البحر فاتجهت هذه المنظومة الاستهلاكية نحو الدواخل فنشطت منظومة البايلك وفعلت أكثر الفرق العسكرية وقبائل المخزن بغية تحصيل ضريبي وافر ومضمون، وهو ما ترجمته في اعتقادنا كثرة الثورات المحلية، مثل ثورة ابن الأحرش سنة 1808، والتي أدت إلى مقتل عثمان باي قسنطينة[276].

2.النظام المالي والضريبي:

كان بين المال هو العصب الأساس لنظام الحكم في الجزائر، لذلك اكتسب " الخزناجي" أهمية كبيرة ومرموقة لأن يكون الشخصية الثانية في جهاز الدولة، حيث أوكل إليه التصرف في ودائع الخزينة ومراقبة سك العملة، وتحديد قيمتها، وكان يشتغل تحت أمرته مجموعة من الموظفين على غرار المكتابجي صاحب سجلات الدولة والدفتر دار أو وكيل الحرج الكبير المكلف بتسجيل مصادر دخل الخزينة ووكيل الحرج الصغير الذي يعود إليه تسجيل غنائم البحر ورسوم الجمارك، إلى جانب أمين السكة ومساعديه من اليهود وهما العيار والوزان[277].

[275]- خليفة حماش، المرجع السابق، ص، 33.

[276]- الصالح العنتري، مجاعات قسنطينة، تحقيق رابح بونار، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص، 56.

[277]- ناصر الدين سعيدوني ، المهدي بو عبدلي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص، 26، 27.

هذا وكان إصدار العملة يتم بأمر من الداي وبإشراف الخزناجي وقد امتازت العملة الجزائرية آنذاك بتنوع مادتها واختلاف قيمتها، فهناك العملة الذهبية كالسلطاني وهناك الفضي مثل زوج بوجو أو دورو بالإضافة إلى الموزونة وزوج موزونة وريال درهم المعروف ببدقة شيك، أما النقود البرونزية والنحاسية فمنها الخروبة ودراهم صغار ، ونصف دراهم صغار، ومن الملفت في الظاهرة المالية في الجزائر هو مزاحمة العملات الأجنبية للعملة المحلية وذلك بسبب انفتاح الجزائر على المحيط الخارجي، ومن العملات المزاحمة للعملة المحلية نذكر الدوكة، القرش، الدولار، الريال، الأسبر ، سكة البندقية، وفرودار البرتغال ونقود المغرب الأقصى مثل السلطاني والبندقي والدرهم والموزونة[278].

لقد قدر بعض الرحالة والقناصلة الذي عملوا في الجزائر ودائع الخزينة بحوالي أربعين مليون قرش وحددها وليام شالر بمائة وثلاثين مليون قرش مستعمل، أما سلطة الاحتلال الفرنسي وبعد احتلالها للجزائر فقدرتها ب: 4868452794 فرنك. أما مصادر هذا المداخيل فهي متنوعة ومصدره خاصة:

1.غنائم العمليات الحربية وبالخصوص النشاط البحري.

1. مساهمة البايلكات السنوية والفصلية (الدنوش)
2. ضرائب القطاع الفلاحي والمغارم التي كانت تفرض على سكان الريف
3. رسوم سكان المدن وعوائد النقابات المهنية والطائفية.

طبعا تأثرت هذه المداخيل بالظروف والتقلبات التي مرت بها الجزائر خلال ثلاثة قرون، ففي فترات بلغ عدد الأسرى 25 في المائة من سكان مدينة الجزائر أي ما يقدر بحوالي 35 ألف نسمة، حيث تطلب فداء هؤلاء الأسرى أموالا ضخمة تحصلت عليها الجزائر من فناصل ومبعوثي الدول الأوروبية ومن البعثات الدينية والمسيحية، فمثلا إسبانيا كانت ملزمة سنويا بدفع 60 ألف قرشا مقابل إطلاق عدد من رعاياها المحتجزين بالجزائر يتراوح ما بين 200 و 300 أسير، لكن مع الوقت تناقص النشاط البحري ولم يعد عدد أسرى يتجاوز ألفي أسير في النصف الأول من القرن الثان عشر وخمسمائة في نهاية هذا القرن. أما إذا أخذنا النموذج الثاني من المداخيل وهي الدنوش فكل المصادر تعتبر أن بايلك قسنطينة هو من اغنى البايلكات وبلغت قيمة الدنوش التي يقدمها أوائل القرن السابع عشر حوالي 120 ريال بوجو وفي أواخر القرن الثامن عشر قدرت ب 228000 قرش، وفي الربع الأول من القرن التاسع عشر أصبحت تعادل 60 ألف قرش قود أو دولار اسباني[279].

---

[278]- حول النظام المالي ف الجزائر يرجى الرجوع إلى:

ناصر الدين سعيدوني، النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية 1800- 1830، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

[279]- ناصر الدين سعيدوني، المهدي بو عبدلي، المرجع السابق، ص، 27-31

وكما أشرنا في العناصر السابقة حول منظومة الحكم التي تقوم على الريع الضريبي وهو ما دفع بها مع مطلع القرن الثامن عشر إلى التوجه نحو الداخل بعد تناقص مداخيل النشاط البحري، حيث قامت منظومة ضريبية على أساس وضيعة العقار الفلاحي وطريقة حيازته وكيفية استغلاله، إلى جانب طبيعة علاقة السكان بالحكام، فالملكيات الخاصة كانت تأخذ عليها ضريبة العشور والزكاة التي كانت تحدد بالجابدة (10 هكتار)، بحيث يؤخذ على كل جابدة صاع من القمح وصع من الشعير، وقد قدرت في بايلك الشرق ب 20762 صاع من الحبوب نصفها قمح. أما أراضي البايلك فيرفض عليها الكراء (الحكور) أو نظام التويزة (تسخير الرعية)، ومرات توزع كإقطاع لذوي النفوذ أو المخازنية مقابل رسم سنوي لا يتجاوز 4 ريالات عن كل جابدة، أما النوع الثابت من الضريبة فيؤخذ من الأراضي المشاعة (أرض العرش) وهي ضريبة اللزمة أو المعونة والتي بلغت ببايلك قسنطينة حوالي 35700 ريال بوجو، بالإضافة إلى الضرائب التي كانت تفرض على قبائل الرعية مثل ضيفة الباي، حق البشارة، وحق البرنوس.وإلى جانب الريف فرضت أيضا في المدن منظومة ضريبية مثل الرسوم التي كانت تفرض على النقابات المهنية والدكاكين التجارية، ورسوم الطوائف العرقية والاقليات الدينية، ورسوم المرسى وحقوق الجمارك، إلى جانب ضرائب أخرى مثل رسوم الحانات (الخمارات) المنتشرة في مدينة الجزائر، وضريبة المومسات التي يتولى المزوار استخلاصها، وهي تبلغ في مدينة الجزائر ما يناهز 24 ألف فرنط سنويا، إلى جانب عمليات المصادرة والتغريم، ففي سنة 1792 وبعد مقتل صالح باي قسنطينة صودرت ثرواته، حيث بلغت من الضخامة ما جعلها تماثل ودائع خزينة الجزائر، فقدرت بحوالي 60 مليون فرنك، وفي سنة 1801 أطلق سراح سي حسن باي التيطري مقابل التنازل عن ثرواته التي قدرت ب: 102000 سلطاني ذهب بالإضافة إلى ما كان يمتلكه من جواهر وعبيد وملابس وأثاث[280].

3.النظام العقاري (الفلاحي)

شهدت المنظومة العقارية الفلاحية تنوعا في العقار الفلاحي الذي تحكمت في نوعه عدة عوامل منها قربه من المدن عواصم البايلك، طبيعة النسيج الاجتماعي الذي يعيش عليه هل هو من قبائل المخزن المتحالفة مع السلطة أو من قبائل الرعية، لذلك سنحاول فيما يلي تقديم قراءات عن نوعين من العقار الفلاحي سادا بقوة خلال المرحلة العثمانية ، الأول يتمثل في الأرض المشاعة، والثاني يتمثل في أرض العزل كنموذج لأراضي البايلك التي بنت من خلالها السلطة الحاكمة تفوقها وحصانتها

في الواقع تعد أرض العرش أرضا مشاعة، والبايلك هو صاحب الأرض الحقيقي،لأن مذهب الدولة العثمانية الرسمي، هو المذهب الحنفي،الذي يعتبر أراضي الدولة كلها أراضي سلطانية، وبالتالي فالأقاليم التي يهيمن عليها العثمانيون، لا تعود الأرض فيها لمن يفلحها، فالفلاحون يحملون صفة حق الانتفاع فقط، ويدفعون للدولة حق

[280]– ناصر الدين سعيدوني، المهدي بوعبدلي، المرجع نفسه، ص، 32-35.

الكراء(الحكر) الذي كان في صيغة ضرائب، والحكر في حقيقته ماهو إلا استمرارا لضريبة الخراج الإسلامية، باعتبار أرض العرش تتماشى قوانينها مع وضعية الأرض التي فتحت صلحا[281].

تميزت أرض العرش عادة باتساع مساحتها، فيطلق عليها اسم "البلاد"، أما حدودها فهي مؤقتة بسبب الاقتطاعات الدورية التي يقوم بها البايات على هذا النوع من الأراضي، قصد تكوين عزلات، في نفس الوقت لم تكن مقيدة بسجلات أو عقود بل كانت تدار وفق العرف شأنها في ذلك شأن حدود القبائل، حيث كان لكل دوار مساحته المعينة، والحدود المعترف بها من طرف الجميع تشمل قمم الجبال، والأودية والطرقات[282].

وكان الإشهار الجماعي داخل القبيلة(الرأي العام) كافي ليثبت معرفة أين تتواجد قطعة كل عائلة[283] لذلك غاب تقييد هذا النوع من المعاملات في نصوص كتابية، كما لم تكن توضع حدود بين القطع الفلاحية، لأنها ستشكل في هذا النوع من الأراضي، حاجزا أمام الفلاحة الجماعية، ولا شك أن تجزئتها ستقضي لامحالة على أهم أساس للعيش الجماعي[284] الذي مثل البناء العام لممارسة مختلف الأنشطة [285]، لأن الأرض وحدها دون حدود تسمحتبالحياة ضمن شروط العمل الجماعي،لذلك لخصها أندري نوشي (Nouschi André) في ثلاثة ركائز أساسية هي : 1.الحقول المفتوحة 2.القدرة على العمل 3.الجماعة[286].

وقد كان البايات يقومون بالاقتطاع الدوري من هذا النوع من الأراضي بغية تشكيل نوع آخر من العقار الفلاحي الذي كان يوزع على المخازنية أو كبار الموظفين في القصر، وللتدليل على هذه العملية سنعرض أحد النماذج لقبيلة عاشت ضواحي مدينة قسنطينة وهي قبيلة عامر الشراقة، حيث تسنى لنا من خلال الرصيد الأرشيفي لتجسيد قانون السيناتيس كونسلت (Sénatus-Consulte22 أفريل 1863)، الموجود بالمديرية الجهوية لمسح الأراضي بقسنطينة تتبع عمليات الاقتطاع من أرض عرش عامر الشراقة، التي كان قام بها بايات قسنطينة، بشكل دوري قصد تشكيل عزلات يوزعونها على كبار الموظفين والمقربين والمخلصين[287]،وهي سياسة درجت عليها سلطة البايلك، منذ أن أرسى صالح باي مؤسسة العزل[288].

---

[281]- جميلة معاشي، الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق من القرن 10هـ إلى 13هـ (16 -19م)،دراسة اجتماعية سياسية، مذكرة ماجستير في التاريخ ،جامعة قسنطينة، السنة الجامعية، 1990-1991، ص، 34.

[282]-ناصر الدين سعيدوني، المصدر السابق،ص.64

[283]-A. Nouschi, *op.cit*,p.85-89.

[284]- Gaid (Mouloud),*Chronique des beys de Constantine*, OPU, Alger,1975., p.45-49

[285]Tayeb Chentouf,*Etudes d'histoire de l'Algérie (18e et 19e siècle*),OPU, Alger,2004, p.43

[286] -A. Nouschi, *Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'en1919*,Essai d'histoire économique et sociale ,PUF/C.N.R.S,Paris 1961.,p.89.

[287]- Eugène Robe,*Essai sur l'histoire de la propriété en Algérie*, imprimerie De Gagand, Paris,1848,p.12,13.

[288]- أحمد سيساوي، البعد البايلكي، المرجع السابق، ص، 25

حيث أمدتنا احدى الخرائط بآخر ملامح حدود أرض عرش عامر الشراقة، التي أحاطت بها العزلات من الجهات الثلاث باستثناء الجهة الجنوبية، كمؤشر على تآكل أرض العرش وتقلصها على مراحل[289] بفعل الاقتطاع الذي قام به سبع بايات في المرحلة التي نهتم بدراستها.

كما ثبت لدينا أن الاقتطاع من أرض عرش عامر الشراقة كان يتم وفق آليات أهمها تتبع سلطة البايلك للأراضي التي تقطعها الأودية خاصة وادي بومرزوق ووادي مهيريس، وأيضا الأراضي الأقرب من مدينة قسنطينة، لأن العزل في أصله كان يحمل أبعاد جيواستراتيجية لسلطة البايلك، لذلك بلغ الاقتطاع مداه في الجهة الشمالية الغربية في مجال عامر بعمق حوالي 16كلم من مدينة قسنطينة وصولا إلى وادي بومرزوق[290].

وجاءت الأرقام بعد السنوات الأولى للاحتلال الفرنسي، لتؤكد أن المساحة العامة لمجال عامر الشراقة الموروثة عن المرحلة العثمانية قدرت بـ 31890هـ، 20 آ[291]، اقتطع منها مختلف البايات من عهد طوبيل باي (1808- 1811)إلى عهد أحمد باي آخر بايات قسنطينة (1826-1837)[292] هذا الأخير الذي تمت في عهده أكبر عملية اقتطاع بمساحة5003هـ 95 آر مسجلة بذلك أعلى نسبة قدرت بـ 31.72%وفي الجدول التالي رصد شامل لعمليات الاقتطاع من أرض العرش من 1808 إلى 1837:

[289]-*Tribu des Ameurs Cheraga*,échelle: 1/40000. D.R.C.C.

[290]-*Ibid.*

[291]- أول من اقتطع من أرض عرش عامر الشراقة مشكلا عزلة بمساحة 1171 هـ، 70آ هو الباي صالح (1771-1792) .

[292]- نتيجة للاضطرابات التي شهدها البايلك انقطعت عملية الاقتطاع من أرض عرش عامر الشراقة في عهد كل من الباي قارة مصطفى، أحمد باي المملوك، مُحَمَّد باي الميلي، الذين حكموا مجتمعين سنة 1818، إضافة إلى عهد ابراهيم الكريتلي 1822 1824 .للمزيد من التفاصيل حول فترة حكم هؤلاء البايات يرجى الرجوع إلى:

-E. Vayssettes,*op.cit*, p.205- 209, 218-223.2

تطورعمليات اقتطاع البايلك من أرض العرش1808-1837[293]

الباي	مساحة الاقتطاع	النسبة	مساحة أرض العرش بعد الاقتطاع
طوبيل باي 1808-1811م	601 هـ، 08 آ	02.19%	26961 هـ، 18 آ
نعمان باي 1811-1814	3908هـ، 95 آ	14.49 %	23052هـ، 23آ
تشاكر باي 1814-1818	1906 هـ، 75 آ	%08.27	21145 هـ، 48 آ
إبراهيم الغربي1819-1820	484 هـ، 73 آ	02.29 %	20660 هـ، 75 آ
أحمد المملوك 1820-1822	3525 هـ، 75 آ	17.06%	17135هـ
مناماني 1824-1826	1363 هـ، 85 آ	07.95 %	15771 هـ، 15 آ
أحمد باي 1826- 1837م	5003هـ 95 آ	%31.72	10767 هـ، 20 آ

أما أراضي العزل فهي من أراضي البايلك (الدولة) وأجودها نوعية، وقد شكل منها البايات خط اقتصادي وحزام اجتماعي على أبواب مدينة قسنطينة وأول فضاء منتج للحبوب للبايلك[294]. ويعود تأسيسها إلى صالح باي (1771-1792)، الذي أرساها كمؤسسة وقائية قائمة بذاتها في بايلك قسنطينة الذي قسمة إلى قطاعين شرقي وغربي يفصلهما وادي الحمام[295]، وجعل كل قطاع تحت إشراف قائد جبري يخضع لقائد الدار[296].كان الغرض من أراضي العزل خلق قاعدة اجتماعية واقتصادية متحالفة مع سلطة البايلك[297] في محيط مدينة قسنطينة، حيث انتشرت

[293]-*Procès–verbal, terreArch des Ameurs Cheraga*,procès-verbaux du Sénatus -Consulte,Tribu des Ameurs Cheraga, n° 14.D.R.C.C.

[294]- أحمد سيساوي، المرجع السابق، ص، 111.

[295]- هو وادي حميميم الذي يقع بقبيلة سلاوة الخرارب ، وينبع بسهول تيفاش ليصب في الوادي الشارف.

Gouvernement général de l'Algérie, Service cartographique, *Limites administratives, de la région de Constantine*, carte dressée par ordre de M. Robert Lacoste ministre de L'Algérie, échelle :1/400000.

[296]- أراضي الجوابرية هي الأراضي التي يفرض عليها العشور .

E. Vayssettes, *op.cit*, p.178.

[297]- احمد سيساوي، المرجع السابق، ص، 25.

بطول إشعاع حوالي 40 كلم[298]، على مساحة تجاوزت ستين ألف هكتار، استغل منها 12 ألفا لإنتاج الخضر والفواكه و 48 ألف هكتار في زراعة الحبوب ورعي الحيوانات[299].

وقد كشف لنا الرصيد الوثائقي للمرحلة الاستعمارية عن امتداد حزام العزل الذي شكله البايات من الضفة الشرقية لوادي بومرزوق انطلاقا من أراضي عزل قبيلة السقنية التي بلغت مساحتها 1396 هكتار و06 آر[300]، مرورا بعزلات عامر الشراقة التي وصلت إلى الصومعة (الخروب حاليا) ثم ينعطف هذا الحزام شرقا عبر امتداد مجرى وادي مهيريس، الذي يخترق عمق عامر الشراقة ليصل إلى قاعدة عزل وادي الزناتي التي تشكلت من 62 عزلة[301] ثم ينحني جنوبا إلى قبيلة سلاوة الخرارب التي توزع بها سبعة وأربعون عزلة، تمتد على وادي الشارف ووادي حميميم ، ثم يتجه حزام العزل غربا عبر سهول تاملوكة[302] ليشمل مرة أخرى عزلات عامر الشراقة، مثل البشبشية وصولا إلى عزلة بن جنين بقبيلة بحيرة طويلة[303] ثم يتوغل في عمق صراوات عامر وصولا إلى وادي بومرزوق، وبهذا أنتجت السلطة البايلكية من أراضي عزل عامر الشراقة خطا إنتاجيا في عزل السهول[304] قصد تزويد البايلك بمادة الحبوب، وبنسيج اجتماعي حليف[305].

4.الأوقـــــاف:

من الأشياء الملفة خلال مرحلة الجزائر العثمانية هو قوة مؤسسة الوقف التي تحولت إلى نظام متكامل وثقافة نظامية أطرت إلى حد كبير الأملاك العقارية، وقدمت خدمات كبيرة للمجتمع، لذلك برزت كنظام شامل تحول مع الوقت إلى قوة حسم وقفت حتى في وجه الاحتلال الفرنسي. وكما هو معلوم فالوقف يتصل بالامتداد الديني الإسلامي الذي يشرعن هذا النوع من التعاملات التي شاعت بشكل كبير في عهد الصحابة والتابعين، وحتى خلال

---

[298]-*Les anciennes tribus de l'est Algérien*, échelle :1/400000.

[299]ناصر الدين سعيدوني و المهدي بوعبدلي، المرجع السابق، ص، 52.

[300]-*Résumé des opérations relatives à la délimitation du tribu des Segnias*, procès-verbaux du Sénatus- Consulte, Tribu des Segnias, n° 259.D.R.C.C.

[301]-*Procès- verbal des Azels composant la zone de l'Oued Zenati,17 mars 1865*, procès-verbaux du Sénatus-Consulte:Tribu des Zenatia, n° 176.D.R.C.C.

[302]-*Procès-verbal, Historique et utilisation des Azels dans la tribu des Sellaoua Kherareb*, procès-verbaux du Sénatus- Consulte: Tribu Sellaoua Kherareb, n° 260.D.R.C.C.

[303]- عزلة بن جنين استفاد منها حوالي سنة 1808 المدعو جنين خادم الباش الكاتب بن كوتشك، تقع في إقليم أولاد دريد على حدود عزلتي سطيطيرة وشعبة القماح جنوبا. منح الاحتلال الفرنسي لاحقا العزلة لمصطفى بن انجليز قائد قبيلة البحيرة الطويلة، الذي وسع تدريجيا من مساحته لتصل إلى 353 هكتار. يرجى الرجوع إلى:

-*Azel Ben Djenin*, procès-verbaux du Sénatus- Consulte:Tribu Behira Thouila, n° 23.D.R.C.C.

[304]- عزل السهول منح للقبائل المستقرة بسهول البايلك مثل دريد والسقنية وعامر الشراقـــة، كمـــا يوجد عزل الجبري وعزل العزيب وعزل الجبل، وحول هذه الأعزال يرجى الرجوع إلى:

جميلة معاشي، المرجع السابق، ص، 183-189.

[305]-L.Rinn, *op.cit*,p.88.

الدولة الأموية والعباسية اللتين اعتمدتا بشكل ملفت على الوقف، الذي تأصل كممارسة في المجتمعات الإسلامية وتحول إلى فعل خير يطلبه الناس ويتفاعلون معه.

ولم تخرج الدولة العثمانية بمؤسساتها ومنظومتها عن هذا الإطار المادي للوقف، الذي برز في أنماط متعددة على غرار الحوانيت، والحمامات والأشجار، والعقارات، والآبار، والأراضي التي حبست للإنفاق في الأعمال الخيرية، والمؤسسات الدينية والتي أوكل التصرف فيها لناظر الأوقاف ومساعدين من الوكلاء والشواش، وقد انتشرت الأوقاف أواخر العهد العثماني وتركزت بالقرب من المدن الكبرى، حتى أصبحت حسب بعض التقارير تغطي ثلاث أرباع الأراضي الصالحة للزراعة بالمناطق الخاضعة مباشرة للبايلك، ونظر للأحكام الشرعية المتعلقة بها والمعاملات القانونية الخاضعة لها، فإنها لم تكن تخضع لأية ضريبة أو رسم، ولم تكن تتعرض لأية مصادرة أو حجز من طرف الحكام[306].

هذا ونشرت الباحثة فاطمة الزهراء قشي " سجل صالح باي للأوقاف 1771- 1792" وهو السجل الذي تضمن أوامر تنظيمية تعكس رعاية هذا الباي لأملاك الوقف حماية للمساجد والزوايا وضمانا لاستمرار خدماتها. فحرص على تطبيقها في أرض الواقع باعتماد تدوين أملاك الحبس في الدفاتر والحفاظ عليها من الضياع بنقلها في أربع نسخ تكون موزعة على أربعة موظفين ساميين أو أربعة مؤسسات، تحفظ الأولى عند وكيل بيت المال والثانية عند شيخ البلد والثالثة عند قاضي الحنفية والرابعة عند قاضي المالكية. كما وضع صالح باي سجلا كبير الحجم جامعا لأملاك المساجد في المدينة وسن سجلات صغيرة يخص كل منها مسجد أو جامع أو زاوية وقد بلغت المائة أو فاقة وكانت بعدد المؤسسات المعنية، وللتدليل على أعمال صالح باي الوقفية نورد بعض مما ورد في العقد رقم 18 مما جاء فيه " الحمد لله....بعد أن خلصت المعاوضة في الأماكن المذكورة أمامه لجميع الوطن المعروف بذراع شنيتي المذكور أمامه ظهر الآن أن ذراع شنيتي حبس على الزاوية الشرقية التي بها ضريح السيد عبد الكريم الفقون، ولما ثبت ذلك فسخت المعاوضة المذكورة ثم بعد أن كان ذلك كذلك حضر من له نظر على الزاوية المذكورة وهو الشيخ البركة السيد عبد الرحمان الفقون وأراد عقد المعاوضة مع جانب الحبس المذكور بأن يعطي لجانب الحبس جميع الثلاثة أرباع على الشياع ونصف الثمن وثمن الثمن وسدسي ثمن الثمن من جميع الدار الشرقية المفتح بداخل رايغة ..."[307].

[306]- ناصر الدين سعيدوني، المهدي بو عبدلي، المرجع السابق، ص، 53.

[307]- سجل صالح باي للأوقاف 1771- 1792، دار بهاء الدين للنشر والتوزيع، قسنطينة 2009، ص، 9، 64

الفصل الثاني:

التعليم، الزوايا، التنظيم الاجتماعي

1.التعليم :

مزيج العسكرة والتصوف (الطريقة البكداشية) الذي طبع الدولة العثمانية جعلها بعيدة عن ممارسة الثقافة والتعليم بطابعه المؤسساتي المحض، وكون وجودها في الجزائر غلب عليه التوسع الضيق، ففي الوقت الذي كان فيه الساحل ركيزة ومكان لتكثيف اجتماعي تركي، كانت الدواخل على غرار الصحراء والأوراس وزواوة لم يكن موجودا فيها إلا ظاهريا، فيما عمدت هذه الفئة الحاكمة إلى اعتماد مبدأ المفاضلة فاقتربت من الأندلسيين والحضر ورجال الدين، خاصة أهل التصوف، أما العمق الاجتماعي الريفي فاختارت له وسطاء اجتماعيين مكنتهم من بعض الامتيازات المادية والمعنوية لإدارة هذا العمق، لذلك تأثرت الظاهرة التعليمية بهذا الواقع الجيو-سياسي المتفاوت.

إن من أكثر الأشياء التفاتا في الحياة التعليمية في الجزائر هو اعتبارها قضية أهلية لا دخل للحكومة فيها، التي نأت بنفسها بخلاف دفع هذه الحياة برصد الأوقاف التي تتخذ عندهم طابعا دينيا كمساعدة للطلبة والغرباء وصيانة المساجد، أما التعليم فكان مقتصرا على الجانب الديني الذي كان شائعا في هذه المرحلة، على غرار تحفيظ القرآن الكريم، وتعليم القراءة والكتابة ومبادئ الحساب والإنشاء وحفظ المتون الفقهية والنحوية والعروضية، أما التعليم في المراحل المتقدمة فكان يعتبر كماليا، ولم يهتم به إلا فئة قليلة من الطلبة ورواد العلم، وكانت هذه الفئة تقصد المساجد الكبيرة والمدارس التعليمية والزوايا في معسكر ومازونة وقسنطينة والجزائر العاصمة، وخنقة سيدي ناجي ضواحي بسكرة حيث كانت توجد بها المدرسة الناصيرية، في المقابل افتقدت الجزائر عبر التاريخ لمدارس ذات جودة وتدريس بمستوى عالي، لذلك كان الطلبة يضطرون – حتى خلال العهد العثماني- إلى الهجرة إلى منارات كبرى مثل القرويين بالمغرب الأقصى والزيتونة بمصر [308].

لقد غاب الطابع المؤسساتي لظاهرة التعليم التي عانت من جفاء تاريخي استمر لثلاثة قرون، في المقابل برزت المبادرات الفردية من حين إلى آخر وخاصة خلال القرن الثامن عشر الذي شهد ازدهارا ثقافيا وتعليميا، بسبب وجود حكام اهتموا بهذا الجانب الحيوي، فخلال هذا القرن تزامن حكم محمد باي الكبير لبايلك الغرب مع حكم صالح باي لبايلك الشرق وأيضا حكم الداي عثمان الذي كان على رأس الجزائر، حيث اهتمت هذه الفئة " النادرة " بالحركة العلمية والثقافية واعطتها دفعا قويا مكنها من تحقيق وثبة نوعية ونشاطا مكثفا، غير إلى حد كبير ملمح هذه الحياة التي عانت من الندرة والشح[309].

ورغم الفقر التعليمي الذي اجتاح المشهد العام إلا أن – بدورها- بعض الحواضر وبسبب استثمارها في زخمها التاريخي استطاعت أن تتحول إلى أقطاب تعليمية، على غرار مازونة التي كانت تتوفر على مدرسة أنشأها بعض

[308]- حول توصيف الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني يرجى الرجوع إلى :
أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر (16-20م)، ج1، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

[309]- أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج5، دار البصائر، 2007، ص، 174

الأندلسيين، وحتى عهد أبي راس الناصر (1823) كانت مدرسة مازونة مقصد الكثير من الطلبة، أما مدن مليانة وتنس وشرشال فأصبحت مركزا للأندلسيين ومبعثا لنشاط تعليمي مكثف تسانده بعض الزوايا المهتة بالتصوف مثل زاوية الشيخ أحمد بن يوسف الملياني. في المقابل مدينة الجزائر التي تحولت إلى قطب سياسي واقتصادي، استقطبت إليها الكثير من العلماء مثل سعيد قدورة، وأيضا الطلبة الذين كانوا يأتونها خاصة من الأرياف، كما اشتهرت المدينة أيضا بجوامعها التي قدرتها سلطة الاحتلال بمائة وثلاثة عشر جامعا بين كبير وصغير. أما في الشرق فتحولت قسنطية إلى مدينة قطب في النشاط التعليمي وقد يعود ذلك لموقعها الوسطي وتبوئها لمكانة سياسة كونها تحولت إلى عاصمة للشرق الجزائري، وإلى جانبها اشتهرت أيضا عنابة بالعلماء والصلحاء والمدارس والزوايا، حيث ساعدها قربها الجغرافي من انتقل الطلبة إلى جامع الزيتونة بتونس[310].

في المقابل تراجعت بعض الحواضر العلمية غرار تلمسان التي كانت تظم حوالي ستين جامعا وخمس مدارس[311]، و وهران التي كانت بدورها تتوفر على جوامع مثل جامع البيطار وجامع الصخرة، وبها علماء على غرار محمد القصار والمفتي أحمد بن العباس وسليمان الحميدي وعبد الرحمان بن عزوز، وأيضا بجاية التي فقدت الكثير من بريقها العلمي والثقافي، وربما يعود ذلك إلى أنها مدن تحولت إلى فضاء للصراعات الاسبانية العثمانية، الأمر الذي دفع إلى هجرتها من قبل العلماء، الذين هجر أغلبهم الجزائر باجملها وذلك لطابع العسكرة الذي غلب على منظومة الأتراك في الجزائر[312]

وإلى جانب المدن التي بعضها ازدهر وبعضها الآخر اندثر، برزت مراكز علمية على أبواب الصحراء امتد بريقها إلى تونس، واستقطبت حتى الطلبة من قسنطينة، وهي خنقة سيدي ناجي التي تقع ضواحي بسكرة، هذه الواحة التي حل بها سيدي المبارك بن قاسم بالأوراس وهو حفيد " سيدي ناجي " دفين " ساحة النخيل " بتونس، أين انتقل أحفاده من بعد وفاته ووفاة ابنه قاسم متجهين غربا تنقلوا خلالها بين أوطان عدة مثل ورقلة وتوقرت وسوف والزاب الشرقي، وجرت كلمتهم في الأوطان المذكورة بالإصلاح، وانتشر أمرهم وجرت لهم العوائد بالزكاة والعشر وظلوا على هذه الحالة أعواما إلى أن انتقلت الولاية إلى " سيدي المبارك "[313].حل حل سيدي المبارك بالخنقة التي استقر بها سنة 1011هـ/1602م يرافقه عدة أتباع ينتمون إلى أعراش وقبائل شتى وفدوا معه منهم " لواتة " و"صدراتة" و"هزابرة" و"طرود" و"زهانة" و"دريد" و"نهد" و"زناتة" و"شيمسات" و"أولاد خيري" وغيرهم واستعان

[310]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص، 180، 181.

[311]- حسن الوزان، المصدر السابق، ق2، ص، 19.

[312]- أبو القاسم سعد الله، المرجع السابق، ص، 180- 182.

[313]- تقع بادس على بعد حوالي 25 كلم شمال زريبة الوادي .

"سيدي المبارك" بهؤلاء الأتباع على تشييد وتعمير "الخنقة "[314] التي كانت قبل ذلك واحة مهجورة يرتادها النعام، ولهذا سميت قديما "مورد النعام " بمحاذاة "وادي العرب"، فعمل على إنعاشها عمرانيا وثقافيا واقتصاديا وأعطاها تسمية تيمنا بجده الأول ناجي فسماها "خنقة سيدي ناجي"[315] وقد بنى بها زاوية يعلم فيها تعاليم الدين الإسلامي أصبحت تستقطب إليها الطلاب من كل البلاد القريبة، وأصبحوا يعودون إليه في كل أمور دينهم ودنياهم، وبعد سنوات من الاستقرار والعمارة توجه سيدي المبارك للأداء فريضة الحج وعند عودته اتجه إلى الاعتزال والعبادة إلى أن توفي سنة 1031هـ/ 1622م[316].

بنشأة خنقة سيدي ناجي بجبل الأوراس وتعميرها أصبحت مركز إشعاع ثقافي وفكري واقتصادي، وباتت تستقطب إليها مختلف الفئات من جميع النقاط والأوطان، وصارت ملجأ حتى للفارين، وتولى تسيير الخنقة بعد سيدي امبارك أحفاده مثل محمد بن محمد الطيب منذ عام1107هـ/ 1696م من أحفاد سيدي المبارك وقد كان فقيها وعالما في الشريعة الإسلامية درس علوم الدين واللغة على أيدي علماء الخنقة وله عدة مؤلفات منها مخطوط بعنوان"عمدة الحكام وخلاصة الأحكام في فصل الخصام" وقد كان دائم التنقل زائرا للعلماء في تونس ومصر والحجاز، حيث تتلمذ على يد الشيخ " علي النوري الصفاقسي " المتوفي عام1118هـ/ 1706م،كما قام بزيارات متعددة إلى كل من الجزائر وقسنطينة وتونس منها ما كان للمجاملة والتهنئة ومنها ما كان للسعي في الصلح أو غيره ،وقد أصبحت الخنقة ملجأ للبايات والولاة وحتى أفراد الجيش الذين كانوا يلتجؤون لدى شيوخها أوقات المحن لكي يتوسطوا لهم لإنقاذ حياتهم أو استرجاع حكمهم أو حل نزاعات فيما بينهم نظرا لما يتمتع به شيوخها من سمعة طيبة وتقدير كبير لدى الحكام الأتراك سواء في الجزائر أو تونس[317] وقد قال عنها الورتلاني لما زارها " أولاد سيدي ناجي قد حازوا المعالي من قديم الزمان "[318].

ونظرا للحظوة والمكانة التي آلت إليها خنقة سيدي ناجي بفضل شيوخها وعلمائها فقد أصبحت قبلة يقصدها الطلبة من كل الجهات من قسنطينة والأوراس والزاب وعنابة وتونس وغيرها،للتتلمذ على يد شيوخها ومنهم من

---

[314]– الكناش وهو مذكرة تاريخية عائلية افتتح التسجيل بها الشيخ مُحَمَّد بن مُحَمَّد الطيب المتوفي عام 1154هـ/ 1741م ويعد الكناش تراثا عائليا لأحفاد سيدي المبارك سجلت فيه كل الأحداث العائلية وأهم الظهائر والرسائل وأحداث المنطقة. ورد في الكناش أن سيدي المبارك رأى رؤيا صالحة ، حيث رأى الرسول ﷺ في منامه وأمره بسكنى مورد النعام ،فذهب تصديقا لهذه الرؤيا إلى خنقة سيار فنزل بها وما أن استقر بها حتى رآه مرة ثانية وقال له "مورد النعام" هو خنقة وادي العرب فارتحل لها .

[315]– في إطار إعدادي لهذا العمل قمت بزيارة ميدانية قادتني إلى خنقة سيدي ناجي التي تبعد بسكرة بحوالي 100 كلم في جهة الشرق وهي تقع في النقطة التي تنتهي فيها جبال الأطلس الصحراوي ،وسميت الخنقة لأنها تقع بين جبلين ،ولا زالت تحتفظ بالكثير من عمرانها ومعالمها التاريخية، إضافة إلى الكثير من القبور والضرائح مثل ضريح سيدي المبارك مؤسس الخنقة وضريح سيدي عبد الحفيظ.

[316]– أثناء زيارتي للخنقة أرشدني الوحيد الذي بقي قاطنا بها مع عائلته إلى البيت الذي كان يتخذه سيدي المبارك خلوة له .

[317]–كريمة بن حسين، المرجع السابق، ص ص.57-59.

[318]– الورتلاني، المصدر السابق، ص.119.

ستصبح له مكانة وصيت في المنطقة الحدودية ومنهم " أحمد التليلي "(1121هـ/1709م –1117هـ/ 1764م)من قبيلة " أولاد تليل " بالبلاد التونسية التي تعود إلى مؤسسها " تليل بن ناصر "[319]أحد مريدي سيدي عبيد الذي عاش جنوب تبسة [320]،حيث كانت وجهته الأولى إلى نفطة نظرا لما كان بها من إشعاع علمي وقد كانت وجهة الجريد مألوفة لدى كل سكان السباسب العليا في إطار علاقتهم الاقتصادية بهذه الجهة فقد تعود أولاد تليل وماجر والفراشيش الذين يعيشون على الترحال والتزود بتمور الجريد وشرقي البلاد الجزائرية في كل شتاء في نطاق الاقتصاد المفتوح [321] وبعد أن تتلمذ في زاوية سيدي سالم بنفطة وفي خريف من سنة1141هـ/1728م انتقل بعدها أحمد التليلي إلى خنقة سيدي ناجي نظرا لما كانت تقدمه من علوم أعمق من تلك التي في نفطة وأيضا بعد لقائه في الزاوية بأحد المختصين في علوم اللغة يدعى الشيخ " عبد القادر الفاسي " الذي مر عليها حيث قرر أحمد تليلي مرافقته إلى خنقة سيدي ناجي التي استقر بها خمس سنوات في زاوية الشيخ " عبد الحفيظ الخنقي " الذي أخذ عنه مختلف العلوم وكان الشيخ قد أعطاه الإجازة لاحقا (1145هـ/ 1733م) ، وعند استقراره بالخنقة وأثناء تجواله الذي قاده إلى الأوراس والزاب وفي بسكرة التقى بسيدي " محمد ابن مشامي " الذي شجعه على إنشاء زاوية بفريانة. وهذا ما دأب أحمد التليلي على تجسيده في أرض الواقع[322].

2.الزوايا والطرق التصوف:

شهد العالم الإسلامي بفعل الانطواء على الذات والانتكاسات السياسية التي شهدها، ظاهرة تدين زهدية ترى في الاقلاع عن الدنيا أحد الحلول التي تمكن النفس من الراحة و تسمح للمسلمين من إعادة المناعة لجسمهم الذي أصابهم الهزل فتكالبت عليهم الأمم، لقد تحول الزهد إلى حلول نفسية لخيبات سياسية واجتماعية، وبات الاسهاب في تحبير الرؤى والاحلام حول قيام الساعة والتلذذ بذكر نعم الجنة واهوال الجحيم، من الأدبيات التي لعبت دورا ايديولوجيا هاما في دعم الاعتقاد في المعجزات وساعدت على انتشار القيم القدرية الداعية الى الخنوع والتسليم، وهو ما يكشف عن اضطرابات عميقة داخل الفضاء النفسي، حتى حصر التدين في الاتكال على الشعوذة ونشر

---

[319]– عادل الطيفي، زاوية سيدي أحمد التليلي بفريانة تطور المؤسسة والعائلة مابين 1730م-1959م، دكتوراه في التاريخ، جامعة تونس الأولى 2000–2001م.ص.26.

[320]- حول حياة سيدي عبيد يرجى الرجوع إلى:

P. Murati, .,« le maraboutisme ou la naissance d'une famille ethnique dans la région de Tebessa », *R.A*,80, (1937),.,pp.256-280.

[321]– عادل الطيفي، المرجع السابق، ص.28.

[322] -Salah Alouani, *Tribus et Marabouts.A'rab et walàya dans l'intérieur de l'Ifriqiya entre le 6e/12e et le12e/18e*,Academic Fernica, Finlande,2010.,pp.173-177.

البدع والدعوة إلى الاعتقاد في الخوارق، وورد في الروايات أن المدفع العملاق الذي استعمل في فتح القسنطينية، أصبح لاحقا يقرب منه الأطفال لإطلاق لسانهم بالحديث[323].

إن عوالم هذ التدين تكيف معها المجتمع الإسلامي، وتكيفت معه لتخترق بذلك المشهد السياسي والثقافي لتتحول إلى ظاهرة فكرية وعقائدية، وظفت حتى في الصراعات العسكرية والتموقعات الجيو- استراتيجية، برزت مثلا في توظيف الإخوة بربروس لتحالفهم مع الولي أحمد بن يوسف الملياني لتفكيك أركان الدولة الزيانية، حتى أن الأساطير تقول أن هذا الولي "دعا على الزيانيين". لقد ازداد توظيف الأتراك لهذه الفئة خاصة منذ القرن الثامن عشر عندما توجهوا نحو الدواخل، فجعلوا منهم وسطاء اجتماعيين استغلال لرصيدهم المليء بالتوقير والتبجيل من قبل الرعية، لكن يبدوا أن الغطرسة الزائدة التي تميزت بها فئة الأتراك خلقت حالة من التوتر والفتور في علاقتهم برجال الزوايا الذين أصبحوا مدافعين عن مصالح الرعية، ووصلت الأمر إلى العداء الصريح بينهما حتى أن صالح باي أنهى حياة أحمد الزواوي شيخ الطريقة الحنصالية بضربة سيف[324].

ولم يحل القرن التاسع عشر حتى انتفضت الطرق الدينية ضد سلطة البايلك، حيث ظهرت عدت انتفاضات من أشهرها انتفاضة درقاوة والتيجانية، ويحدثنا الصالح العنتري عن ثورة الشريف ابن الأحرش الدرقاوي ضد عصمان بن محمد باي قسنطينة، انتهت إلى مقتل هذا الباي في وادي الزهور ضواحي القل بعدما علقت خيوله في الأوحال وهم يلاحقون قوات ابن الأحرش الذي باغتهم وكان ذلك سنة 1804، ويقول العنتري عن آثار هذه الانتفاضة " ...اتلفت فيها خزائن عثمان....وانعدمت الحراثة....وافتقدت الحبوب وقل ما يأتي إلى الأسواق، فحصلت للناس شدة ومجاعة....أشرف فيها الضعفاء على الهلاك، خصوصا بعض جهات القبلة فانهم تشتتوا بسبب الهول في وطنهم"[325].

في بايلك الغرب تزعم محمد الشريف الدرقاوي استمرت بين 1805 إلى 1817، وتسببت في اضعاف قوة البايلك وانهاك الأرياف اقتصاديا، كما أعلنت الطريقة التيجانية ثورتها على الأتراك بالجنوب والغرب الجزائري ابتداء من عام 1818 ووصلو في غاراتهم إلى التل الوهراني. رغم ذلك لم تستطع هذه الثورات أو الانتفاضات أن تفكك أركان الوجود التركي أو تحد من تعديات الحكام، وذلك لعدة أسباب أهمها هو كثرة الطرق الصوفية وتشعب مشاربها الإيديولوجية ومصالحها الظرفية ومحدودية جغرافيتها وأيضا ميولها التي ارتبطت على غالبيتها بجهات خارجية فدرقاوة تركزت في الغرب واشتهرت بميولها المغربية، والشاذلية ظلت محصورة في الجهات الشرقية والجنوبية

[323]– علي الصلابي، تاريخ الدولة العثمانية، دار عالم الكتاب للنشر والتوزيع، 2007، ص، 122.

[324] -Eugene Vayssettes, *op.cit*, p.231.

[325]– الصالح العنتري، مجاعات قسنطينة، المرجع السابق، ص، 48-50

الشرقية وعلى تواصل مع تونس، أما التيجانية فبقيت معزولة في الجنوب بميول نحو الصحراء وبلاد السودان، بينما اتخذت الطريقة الرحمانية عزوفا عن السياسة والتوجه نحو الحياد[326].

لقد بقيت الزاوية والطرق الصوفية متلازمة سوسيو- ثقافية أطرت المشهد العام وقادته نحو مقاربات هوياتية تحفظ للمجتمع توازناته فكان تحفيظ القرآن الكريم وتعليم اللغة العربية، وامتصاص الفوارق الاجتماعية إلى جانب حل الخصومات وايواء الفقراء وعابري السبيل من صميم ما تقوم به الزوايا والطرق الصوفية، التي كانت تمول نشاطاتها من خلال أموال الحبس والأوقاف الإسلامية التي يوقفها عليها بعض الأشخاص والهيئات الخيرية والجماهعات وبعض الحكام، وتتنوع بين أراض زراعية وحقول للأشجار المثمرة والغلال وغيرها، إلى جانب أموال الزيارات التي يقدمها إليها زوارها من الأتباع والمريدين في شكل نقود وبضائع ومواد غذائية وألبسة[327]

3.بنى المجتمع المديني :

موقع الجزائر المنفتح على البحر المتوسط ، إلى جانب الهجرات التاريخية التي عرفتها بفعل عوامل عديدة كلها مسببات أدت إلى تنوع في بنى المجتمع التي تأثرت أيضا بالأحداث السياسية والتقلبات الإقليمية، لذلك شهدت المرحلة العثمانية خارطة اجتماعية ميزت بمواصفات معينة هي انعكاس صادق لتلك المرحلة وما صاحبها من أوضاع، ففي المدن انتشرت مجموعات اجتماعية تختلف بشكل كبير عن عالم الريف، حيث عاش داخل أسوار هذه الحواضر الأقليات التركية التي كانت تتشكل في أغلبها من الجنود الأتراك، الذين يعيشون في الثكنات أو يتوزعون عبر حاميات المدن، التي كان يبلغ عددها حسب دفتر التشريفات الذي نشره البار دوفو خمسة عشر حامية موزعة على وحد وسبعين سفرة منها عشر سفرات بوهران وخمس سفرات في : عنابة، قسنطينة، تبسة، بسكرة، بجاية، تلمسان، معسكر ، مستغانم. هذا وبقيت الفئات التركية محدودة العدد يتراوح بين 10 آلاف و 12 ألف، منهم حسب بعض الاحصائيات 3661 جندي أحصي عام 1821 [328].

طبعا محدودية العدد تعود إلى ذلك الانغلاق الاجتماعي الذي عاشته هذه الفئات جراء عزوفها عن الزواج، أو لجوءها إلى الاجهاض وعدم الاعتراف بالمولدين (الكراغلة) إلى جانب الأوبئة والأمراض التي كانوا يتعرضون لها وهم على ظهر السفن، كلها عوامل كانت ستؤدي إلى تلاشي هذا العنصر، لولا المدد البشري الذي كان يصل من بلاد الأناضول على غرار ما وصل سنة 1818 من جنود بلغ عددهم 234، و بسبب غياب ظاهر الزواج من الجزائريات انتشرت بقوة بيوت الدعارة التي ظهرت في المدن التي كانت تتوزع بها حاميات تركية، ويقي بذلك هذا العنصر يعيش

[326]– ناصر الدين سعيدون، المهدي بو عبدلي، المرجع السابق، ص، 39.

[327]– يحي بو عزيز، مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية، دار البصار للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص، 162، 163

[328] - *Tachrifat: Recueil de Notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger*, imprimerie du gouvernement, Alger, 1852.p.25-28

على حساب الشرف وتحذوه العجرفة والأنفة المبالغ فيها، ويحظى بامتيازات كثيرة على غرار العمل في الجيش والإدارة، لذلك بقي تأثيرهم الديمغرافي أو السلوكي محدود التأثير لم يتعدى بعض أنواع المأكولات والألبسة والفنون[329].

أما عنصر المولدين فظهر نتيجة تزاوج فئة الأتراك بجزائريات وعرفوا بالكراغلة الذي ظهروا بشكل مكثف في المدن حيث تقيم الحاميات التركية، وتتحدث الأرقام على أن متوسطهم العددي كان يتراوح ما بين 4000 و 6000 نسمة، ووصل حتى 9000 نسمة مع نهاية المرحلة العثمانية، حيث احتلوا المستوى الثاني في الترتيب الاجتماعي يمارسون التجارة وفي المهن الحرة ويستثمرون في الملكيات الزراعية بالفحوص، في المقابل حرموا من تبوء المناصب العليا الأمر الذي أدى إلى انتفاضاتهم عدة مرات مثل سنة 1629، حيث لقي الكثير مصرعه، لكن منذ القرن الثامن عشر فتح المجال لذه الفئة لتولي مناصب على غرار مصطفى العمر (1736- 1748) باي وهران، ومنصب باي التيطري محمد الذباح (1768- 1771) ومنصب باي قسنطينة الحاج أحمد باي (1826- 1837) وعندما استهل القرن التاسع عشر ولشيخوخة النظام التركي في الجزائر أصبحت المناصب مفتوحة لهذه الفئة من الكراغلة التي أصبحت لا عبا فاعلا في الحياة السياسية والعسكرية، حيث تمكنوا من الحيلولة دون نهب الانكشاريين لبعض أحياء مدينة الجزائر عام 1808، وأحبطوا خطة الداي الحاج علي باشا الرامية إلى القضاء عليهم واحلال الأتراك محلهم عام 1813، كما تحالفوا مع الداي علي خوجة في اخماد تمرد الانكشارية عام 1817[330].

العنصر الثالث الذي عاش في المدن هم طبعا طبقة الحضر أو البلدية، التي تعد طبقة ميسورة تشتغل في المهن الصناعية، كما تولوا القضاء، وظهر منهم العلماء والفقهاء ، كما اهتموا بتنمية ثروتهم مشكلين طبقة برجوازية لا تستهلك السياسة، بقدر حفاظها على امتيازاتها مثل عائلة الفقون بقسنطينة، وتشكلت طبقة البلدية من العنصر المحلي، والجاليات الأندلسية وجماعة الأشراف، حيث كل فئة منحت للمدن صبغة ثقافية واجتماعية وأيضا اقتصادية زادت من ازدهار المدن، أما مجموعات البرانية فهي الفئات التي وفدت وهاجرت إلى المدن الكبرى مثل الجزائر وقسنطينة وتلمسان وغيرها للاقامة والعمل، حيث تم ترتيبها وفق الحاجة الاقتصادية والانتماء من حيث الأصول، فجماعة بني ميزاب الذين ينحدرون من وادي ميزاب ومناطق الشعانبة وورقلة والقرارة، احتكر أفرادها العمل في المطاحن والحمامات، أما جماعة البساكرة الذين ينحدرون من مناطق الزيبان ووادي ريغ وسوف وتوقرت، فأوكل اليهم احضار المياه إلى المنازل وتنظيف القنوات والمجاري من الأوساخ والقيام بالحراسة في الليل وحمل السلع

[329]- ناصر الدين سعيدوني، المهدي بو عبدلي، المرجع السابق، ص، 92- 94

[330]- حول التمردات التي قام بها الكراغلة يرجى الرجوع إلى :

صالح عباد، المرجع السابق، ص، 119، 120

والبضائع، في المقابل كانت جماعات الوصفان أو الزنوج تتألف من العبيد الذين استقدموا من بلاد السودان للعمل في المنازل وأيضا أعمال البناء والنسيج وصنع القفاف[331].

اشتهرت أيضا عبر المدن جماعة الجواجلة نسبة إلى مدينة جيجل، حيث امتلكوا المخابز، واختصوا في الطبخ، أما جماعة القبائل فهي الفئات التي وفدت من المناطق القريبة من المدن للعمل والاشتغال بالمهن اليدوية والأعمال الزراعية بالفحوص، وتبقى الجاليات اليهودية من العناصر المشكلة للمجتمع المديني، وتعود أصولها إلى اليهود المحليين ويهود الأندلس (السافرديم) الذين قدموا مع مسلمي الأندلس، وما انضم اليهم من يهود ليفورن من الموانئ الايطالية، وقد بلغ عدد هذه الفئة نهاية القرن السادس عشر حوالي 5000 نسمة وفي منتصف القرن السابع عشر ناهز عددهم العشرة آلاف نسمة، عاشت وتعايشت مع المسلمين يمارسون طقوسهم الدينية بكل حرية ويتفاعلون مع انتصارات الجزائريين مثل انتصارهم في حملة شارلكان على مدينة الجزائر سنة 1541، أما اندماج اليهود الأندلسيين فيعود إلى الخلفية الثقافية والاجتماعية التي جاؤوا منها والتي تتشابه مع الأندلسيين، لكن يهود ليفورن أثروا على بنية المجتمع المنسجمة بعد أن اقتحموا عالم المال والسياسة، حيث قامت عدة انتفاضات ضد اليهود انتهت سنة 1805 بمقتل مصطفى باشا الذي كان يتعامل مع التجار اليهود، كما لقي كبير اليهود ومستشار الداي بوشناق مصرعه على يد انكشاري يدعى يحي الذي أجهز عليه وهو يصيح " السلام عليك يا ملك الجزائر" تعبيرا عن تحكم اليهود في مقدرات الجزائر الاقتصادية[332].

4. بنى المجتمع الريفي:

في الوسط الريفي، وبسبب التوسع الضيق للأتراك العثمانيين وقلة عددهم دفعهم إلى توظيف تقاليد محلية في إدارة هذه الجغرافيا الواسعة والتي يرتمي أغلبها في الريف، لذلك بدت في هذا المجتمع قبائل متعاونة مع سلطة الأتراك في شكل وسيط اجتماعي، وأخرى خاضعة، إلى جانب أسر كبرى متحالفة، وأخيرا الممتنعون في المناطق النائية والجبلية[333].في الواقع ظهرت في المجتمع الريفي قبائل المخزن، كحليف استراتيجي يحظى بحماية السلطة، ويتمتع بتخفيضات ضريبية، وقبائل الرعية الخاضعة التي تعرضت لكل أنواع القهر المادي والمعنوي، ثم صنف ثالث قبائل مستقلة، بذاتية إدارية وسلطوية بعيدة عن مركز القرار. وهي تصنيفات عكست تفككا اجتماعيا صارخا في

[331]– ناصر الدين سعيدون والمهدي بو عبدلي، المرجع السابق، ص ، 97–100

[332] -Charles André Julien, *Histoire de l'Algérie contemporaine 1830- 1871*, Edition Chihabe, Alger, p 123-125.

[333]- للتدليل على هذه الفروق الاجتماعية يرجى الرجوع إلى :

ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص، 257–273

عمق الريف الجزائري[334]. وللتدليل على هذا الواقع نستعرض في هذه المحاضرة نموذجا لقبيلة عامر الشراقة التي عاشت ضواحي قسنطينة، متسائلين عن سلمها الاجتماعي خلال المرحلة العثمانية ؟

في الواقع و حتى تتحكم السلطة البايلكية في عامر الشراقة القبيلة، أضعفت روابطها الدموية وفككت بنيتها وذلك بتوظيف " العقار الفلاحي" لكن كيف ذلك ؟

جعلت هذه السلطة من العقار آلية بنت من خلالها السلم الاجتماعي في مجال عامر الشراقة، حيث جعلت من أرض العرش وعاء ترابيا احتضن جماعات الرعية، بينما أرض العزل فضاء بايلكي احتضن جماعات المخزن من نفس القبيلة، فكانت النتيجة كما تحدث عنها الضابط لوي رين (Louis Rinn)عامر الشراقة المخزنية (الحليفة) التي عاشت على أراضي العزل وعامر الشراقة الرعية (الخاضعة) التي عاشت على أرض العرش[335].وبالتالي جعلت السلطة البايلكية من النواة الأولى لجماعات عامر الشراقة في صنف قبائل الرعية مثلتها فرقها التي عاشت على أرض العرش وهم أولاد عبد النبي وأولاد سلطان وأولاد جليلة وأولاد جدي وأولاد الواعر وأولاد ناصر[336]. بخلاف أولاد شرقي الذي جعل منهم البايات قوة عسكرية.

وطبعا قبائل الرعية كانت أضعف الحلقات في السلم الاجتماعي في ذلك العهد، حيث كانت تسلط عليهم كل أنواع الاضطهاد الاقتصادي و السلطوي، فتستخلص منهم الضرائب الثقيلة مثل اللزمة، ويتعرضون للمحلات الفصلية التي تسلب محاصيلهم[337].وبسبب الصلة القوية التي جمعت بين صالح باي وآل المقراني[338]ترتب عنها دفع سلطة البايلك لعناصر من الحشم الحراس الشخصيين لآل المقراني للعيش إلى جانب عامر الشراقة، بعد نقل عناصر منهم يعرفون باسم "أولاد قوام"[339]، ولم نعثر على ما يثبت لدينا أن أولاد قوام كان تصنيفهم من قبائل الرعية سوى ضريبة اللزمة التي كانوا يدفعونها[340] وهي من أنواع الضرائب التي كانت تفرض على هذا الصنف من القبائل.

ومن المفارقات التي مارستها سلطة البايلك على عامر الشراقة، هو تشكيل سلم اجتماعي ثاني لها، بعد ترقية العناصر التي يتم إنتدابها بصيغة مستأجرين أو مزارعين أو مساعدين لفلاحة أراضي العزل إلى صنف قبائل المخزن، فكان بذلك كل اقتطاع من أرض العرش وتشكيل العزل من قبل البايات، هو بمثابة فرصة اجتماعية لعناصر عامر

---

[334]- الدفتر الإداري والجبائي رقم 2144 (أ.و.ت)

[335]- L. Rinn, *op.cit*, p.88,90.

[336]-L.Rinn, *Ibid*, p.90

[337]- ناصر الدين سعيدوني والمهدي البوعبدلي، المرجع السابق، ص، 107، 108.

[338]-Ministre de la Guerre,*T.S.E.F,op.cit*, p.338

[339]-*Origine et historique de la Tribu des AmeursCheraga, op.cit.*

[340]-*Ibid.*

الشراقة تنقلهم إلى درجة أرقى تجعلهم في مصاف القبائل المقربة من السلطة، ويتمتعون بكل أنواع الحماية والتخفيض الضريبي [341].

وبالتالي كانت لعناصر عامر الشراقة الرعية التي عاشت على أرض العرش حظوظ كبيرة للارتقاء إلى مصاف قبائل المخزن، وهو ما دفع بها في اعتقادنا إلى عدم الهجرة والهروب من اضطهاد السلطة ، كون فرص " مخزنتها" كانت قائمة ومفتوحة على كل الفترات التي حكم فيها البايات.

في المقابل شكلت ظاهرة عامر الشراقة الرعية والمخزنية نشازا اجتماعيا في بايلك قسنطينة، عدد منها لوي رين ثلاث حالات فقط من أصل 47 قبيلة مخزنية و13 قبيلة رعية عاشت عبر البايلك، شملت الحالات الثلاث كل من قبيلة عامر الغرابة بسطيف التي انحدرت منها عامر الشراقة، وقبيلة قرفة التي استوطنت حدود وادي الشارف ضواحي قالمة وعامر الشراقة موضوع بحثنا[342].

هذا الشذوذ الاجتماعي، الذي عرفته عامر الشراقة القبيلة، عكس الآليات الفريدة التي أنتجتها سلطة البايلك في التعامل مع البلاد الخلفية لقسنطينة، والتي أفرزت تحلحلا في الروابط، وتحللا بنيويا صنع علاقات غير متكافئة داخل النسيج الاجتماعي الواحد، باعتبار الصلة بين المخزن والرعية في النهاية هي علاقة مُخضع لخاضع ودافع لمستلم أو علاقة آكل بمأكول[343]. هي طبعا سياسة دفعت بالمزيد من عناصر عامر الشراقة للسعي الحثيث قصد الخروج من أضعف الحلقات إلى أقواها، كانت من مؤشراتها دفعها لأولاد دليم (ستة خيم) للتخلي عن عزلة الدليمية التي عاشوا عليها بدوار أولاد ناصر رغم صغر مساحتها والمقدرة بـ 135 هكتار و85 آر، ما اضطرهم للهجرة و العيش ضواحي عنابة[344].

---

[341]– ناصر الدين سعيدوني، ورقات جزائرية،دراسة وأبحاث في تاريخ الجزائر -العهد العثمـــــاني-دار الغـــرب الإسلامـــي بيروت، 2000،ص، 555.

[342]-L.Rinn, *op.cit*,p.88-91.

[343]- ناصر الدين سعيدوني، المرجع السابق، ص،328.

[344]-*Historique des Azels des Caidat des Ameurs Cheraga,op.cit.*

خاتمة:

صفوة القول من خلال هذه المحاضرات التي تناولت تاريخ الجزائر خلال الفترة الحديثة، هو استمرار المد الخليفي المشرقي في صناعة القوالب السياسية المحلية في بلاد المغرب التي دانت بالولاء الجبائي، ضمن سياسة الالحاق التي تحفظ للدولة الامبراطورية توازناتها الاقليمية والدولية، حيث اقتضى الحال خلال القرن السادس عشر تشكيل الإخوة بربروس لجيوب ساحلية قرصنية وجهت أسهمها خاصة حول كل متحرك مسيحي، وهو ما رفع من رصيد هؤلاء الإخوة اللذين سرعان ما تحولت مغامراتهم البحرية إلى مشروع سياسي متنامي، استثمر في حالة الخيبة من مجمعات أسرية تهالكت ولم تعد قادرة على تشييد قيم بقاء تجنبها التلاشي والاضمحلال، لذلك انتقلت مدينة الجزائر من الدولة المدينة برأس ثعالبي مسالم إلى الدولة المدينة برأس تركي قرصني، سرعان ما توجه نحو الداخل لتمتين أركانه البحرية، فكان بذلك تفكيك التجارب الأسرية البربرية نتاج هذا التوجه السياسي، الذي اصطدم بواقع زياني له تجاربه ومقوماته، لذلك كان مقتل عروج على أسوار مدينة تلمسان تحصيل هذا التصادم الذي لم يختلف إلى حد كبير عن تصادم عقبة بن نافع الفهري مع الثقافة المحلية، وبواقع له أصوله وتجاربه فانتهى الأمر بمقتله في موقعة تاهودة، وما أشبه اهانة كسيلة وهو السيد في قومه بإهانة سالم تومي الذي انته الأمر بتصفيته في الحمام، فكان ثمن السادة والأمراء المحليين باهض مع كل وافد مشرقي .

كما تكشف الانتفاضات المحلية ضد التواجد التركي من قبل الحضر مثل حضر مدينة الجزائر وقسنطينة، والأمراء المحليين على غرار ابن القاضي أمير كوكو، والسلاطين الحفصيين والزيانيين، تكشف عن وجود اتفاق ضمني لرفض المشروع السياسي البربروسي الذي سرعان ما تقوى بالسلاطين العثمانيين، ضد المد الاسباني البحري، والامتعاض الداخلي الذي فكك الإخوة بربروس أركانه من خلال المد الخليفي وحد السيف بخلفيته الانكشارية، واللذين سرعان ما تحولا إلى منظومة قائمة على ديوان العسكر الذي أصبح لاحقا أساسا لحكومة الإيالة كسنجق عثماني طيلة ثلاثة قرون.

أستند الأتراك في حكم الدواخل إلى منظومة بايلكية مقتبسة من النموذج الملحي الأميري، وبسبب قلة عددهم السلطوي استندوا إلى آلية الوسائط الاجتماعية (قبائل المخزن) والدينية (الزوايا والطرق الصوفية) لفرض سلطانهم الجبائي، الذي ازداد ضراوة منذ القرن الثامن عشر، بعد أن تراجعت موارد البحر ، حيث تنظمت المحلات الفصلية التي كانت تجوب الدواخل لجمع الضرائب جوهر التواجد العثماني في الجزائر، الذي أسس مع الوقت لمنظومة استهلاك لا لمنظومة تنمية، ضاعت معها الحياة الثقافية والتعليمية التي انحصرت في مبادرات فردية ، خاصة خلال القرن الثامن عشر على غرار صالح باي قسنطينة ومحمد الكبير باي وهران.

في المقابل تشكل في عهد الجزائر الحديثة القالب الجيوسياسي للجزائر المعاصرة، تمثلا في العاصمة وملامح الحدود السياسية، إلى جانب ترسيخ المذهب المالكي في الأوساط الاجتماعية المحلية، مع ارساء لتقاليد فلاحية أمدت أوربا بمادة الحبوب وزودت فرنسا وقت الحاجة، أما العلاقات الخارجية للجزائر فتجاوزت حدود البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، لكن يبدو أن الانقلاب الحضاري الذي امتطت جواده الدول الأوروبية، سرعان ما تحول إلى مد امبريالي عنصري كانت الجزائر أول أهدافه، عندما عمدت فرنسا إلى فرض حصار بحري دام ثلاث سنوات (1827-1830) كان غرضه تفكيك أركان النشاط البحري القرصني، ثم سرعان ما تحول إلى مشروع استعماري هيمني أفقد الدولة العثمانية أحد أهم إيالاتها في الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادروالمراجع:

أولا /الوثائق الغير منشورة

01- المكتبة الوطنية الجزائرية

-المجموعة رقم 1641

الوثائق رقم:130،128،109،108،87،79،72،71،45،44،36،32،18،06.

- المجموعة رقم 1642

الوثائق رقم: 23،19،18،15،25،.29،26

02- مصلحة أرشيف ولاية قسنطينة

- صور لمراسلات أصولها بالأرشيف الوطني التونسي

الوثائق رقم :117،114،113،38 .

03- الأرشيف الوطني التونسي

2009- السجلات الإدارية والدفاتر الجبائية

- الدفتر رقم 01
- الدفتر رقم 1769
- الدفتر رقم 2070
- الدفتر رقم 2144
- الدفتر رقم 2145

ب- ملف العلاقات التونسية الجزائرية تحت رقم :H/223/384/01

04- المديرية الجهوية لمسح الأراضي – قسنطينة –

-Procès – verbaux du Sénatus –Consulte

-Tribu Hannencha. N° 138

-Tribu Ouled Khiar.N° 220

-Tribu Ouillen. N° 179

-Tribu Ouled sidi Yahia ben Taleb. N° 238

-Tribu Ouled Dhia. N° 208

-Tribu Ouled sidi Abid. N° 237

-Tribu Zenatia. N° 176

-Tribu Behira Thouila. N° 23

-Tribu Chiebna. N°107

-Tribu Souarakh. N°264

-Tribu Lakhdar- Aouaoucha. N°150

-Tribu Ouled Ali Achicha. N°186

ثانيا /الـوثائق المطبوعة

01- معاهدات الجزائر مع فرنسا 1619-1830م، نشر وترجمة قنان جمال، دار هومة، الجزائر،2010.

02- كراسات الأرشيف، وثائق من القرنين السادس عشر والسابع عشر ميلادي، الأرشيف الوطني التونسي

2009.

03- Devoulx Albert, *Tachrifat: Recueil de Notes historiques sur l'administration de l'ancienne Régence d'Alger*, imprimerie du gouvernement, Alger, 1852.

04- Plantet Eugène, *Correspondance des Dey d'Alger avec la cour de France (1579-1833)*,Paris.1889,vol.02.

05- De Card Rouard ,*Traités de la France avec les pays de l'Afrique du Nord, Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc*, A. Pédone, Paris,1906.

ثالثا /النصوص المطبوعة

01- ابن أبي الضياف (أحمد،ت 1291هـ/1874م):إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان،تحقيق لجنة من كتابة الدولة للشؤون الثقافية والأخبار، المطبعة الرسمية للجمهورية التونسية، تونس1963. ج. 01-

02- ابن أبي دينار(أبي عبد الله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني،ت 1091ه/1698م):المؤنس في أخبار إفريقيا وتونس،تحقيق وتعليق محمد شمام ، المكتبة العتيقة،تونس،1961.

03- ابن خلدون (عبد الرحمان، ت808ه/1046م):مقدمة ابن خلدون، دار الكتب العلمية،بيروت د.ت.

04- ابن خلدون (عبد الرحمان) : كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار مؤسسة جمال للطباعة والنشر،بيروت،1979، مج.06.

05- ابن عبد العزيز (حمودة،ت 1202ه/1788م) :الكتاب الباشي،تحقيق الشيخ محمد ماضور :قسم السيرة الدار التونسية للنشر ،تونس ،1970.ج1.

06- ابن المبارك ابن العطار(أحمد، ت1286ه/1870م): تاريخ بلد قسنطينة، نشر عبد الله حمادي،دار الفائز للطباعة والنشر والتوزيع، قسنطينة،2011.

07- ابن عثمان (حمدان خوجة،ت مابين 1840 و 1845ه/1256 و1261 م) :المرآة، نشر محمد العربي الزبيري،ط2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ،الجزائر، 1982.

08- الإدريسي(أبو عبد الله بن محمد، ت 560 ه/1165م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق،تحقيقمجموعة من المحققين،مكتبة الثقافة الدينية، مصر،د.ت.

09- الزهار(أحمد الشريف، ت1246م/1830م): مذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (1168ه-1276ه/1754م-1830م)،تحقيق أحمد توفيق المدني ،ط.2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر،1980.

10- الزركشي (أبي عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤ،تبعد 894ه/1489م):تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية، تحقيق محمد ماضور، ط2، المكتبة العتيقة،تونس،1866.

11- العدواني (محمد بن محمد بن عمر، ت النصف الثاني من القرن الـ 11ه/17م): تاريخ العدواني، تحقيق أبو القاسم سعد الله،ط2، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، 2005.

12- العنتري (صالح، ت1286-87ه/1870م): مجاعات قسنطينة، تحقيق رابح بونار الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر،1974.

13- العنتري (صالح):فريدة منسية في حال دخول الترك بلد قسنطينة واستيلائهم على أوطانها أو تاريخ قسنطينة نشر يحي بوعزيز، دار هومة،الجزائر،2005.

14- العياشي (أبي سالم عبد الله، ت 1090ه/1679م):ماء الموائد المشهورة بالرحلة العياشية،المغرب الأقصى،1898،ج.1.2 .

15- الفكون (عبد الكريم، ت 1073هـ/1662م):منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم والولاية تحقيق أبو القاسم سعد الله ،ط1،دار الغرب الإسلامي،بيروت ،1987.

16- الورتلاني (الحسين بن محمد، ت 1193-94هـ/1779م) : نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورتلانية،تحقيق ونشر محمد ابن أبي شنب،مطبعة بيير فونتانا الشرقية،الجزائر،1908 ج1،2.

17- الوزير السراج الأندلسي (محمد بن محمد، ت 1149هـ/36-1737م) :الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة ،نشر دار الغرب الإسلامي،بيروت،1984.

18- الوزان الفاسي (الحسن بن محمد،المعروف بليون الإفريقي، ت 957هـ/1550م):وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر،ط2،دار الغرب الإسلامي،بيروت 1983.

19- مارمول كربخال (ت بعد 978-79هـ/ 1571م):إفريقيا،ترجمة عن الاسبانية محمد حجي وآخرون مكتبة المعارف،الرباط،1984، ج1.

20- مذكرات أحمد باي وحمدان خوجة وبوضربة، نشر الزبيري محمد العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر،1973.

21- هابنسترايت.ج.أو.رحلة العالم الألماني.ج.أو.هابنسترايت،إلى الجزائر وتونس وطرابلس (1145هـ-1732م)،ترجمة ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي،تونس،2008.

22- Rozet.M ,*Voyage dans la Régence d'Alger ou description du pays occupé par l'armée française en Afrique* , Arthus Bertrand, Paris,1833. T.2 .

23- Ministre de la Guerre ,*Tableau de la situation des établissement française dans l'Algérie* , imprimerie Royale, Paris, vol,1 ,(1838),3,(1840)

24- Peyssonnel et Desfontaines ,*Voyages dans la régence de Tunis et Alger* .publié par M.Dureau de la Malle. Gide. Paris.1838.

25- Pierre Dan ,*Histoire de Barbarie et des corsaires des royaumes et des villes d'Alger, de Tunis* ,Paris,1637.

26- Shaw Thomas ,*Voyage dans la régence d'Alger au 18e siècle* .Traduit de l'anglais par E.Mac Carthy.1830. grand Alger livres. Alger.2006.

27- Venture de Paradis Jean Michel , *Alger Au 18 siècle (1788-1790)*.grand Alger livres .Alger.2006.

رابعا /المـراجع

أ- باللغة العربية والمعربة

01- ابن أشنهو عبد اللطيف: التكون والتخلف في الجزائر، محاولة لدراسة التنمية الرأسمالية في الجزائر (1830-1962 م)، ترجمة نخبة من الأساتذة،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ،1979.

02- بن زردة توفيق: الكنفدراليات القبلية الحدودية ودورها في العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الجزائر وتونس خلال العهد العثماني،- الحنانشة أنموذجا- مذكرة ماجستير، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية- قسنطينة، 2013- 2014.

03- بن زردة توفيق: "قرفة في العهد العثماني من جبال الأوراس إلى سهول قالمة"، المعالم، ع.17، 2015.

04- بن زردة توفيق: إحسانات بايات تونس لبايات وأعيان وقبائل بايلك قسنطينة 1192-1170/ 1756-1778، وثائق من الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي، الدفتر رقم 2144، دار الأقصى للنشر والتوزيع، الجزائر، 2015.

05- بن زردة توفيق: "إحسانات بايات تونس لجماعات الحنانشة 1170- 1756/ 1192- 1779 من خلال الدفترين 2144، 2145 بالأرشيف التونسي " مجلة الآداب والحضارة الإسلامية.ع.20، 2017.

06- بن زردة توفيق: "مسار وآليات تعمير الريف الشرقي القسنطيني خلال القرن ال 18"، مجلة الجامعة، مجلد 33، ع.01، 2019.

07- بن زردة توفيق: " الأسماء هوية وانتماء خلال القرن ال 18- بايلك الشرق أنموذجا-"، أعمال ملتقى الألقاب العائلية في الجزائر بين النص والتطبيق والآثار 1873- 1962"، دار الهدى، 2019.

08- بن زردة توفيق: الجزائر في القرن الثامن عشر من خلال دفاتر الأرشيف الوطني التونسي، ألفا للوثائق، قسنطينة، 2012.

09- بن سليمان فاطمة: الايالة التونسية بين القرنين 16م و19م نشأة المجال،دكتوراه في التاريخ، جامعة تونس، 2000-2001.

10- الإمام رشاد: سياسة حمودة باشا في تونس 1782 – 1814م، منشورات الجامعة التونسية،تونس 1980.

11- الإمام رشاد« سياسة حمودة باشا الحسيني في المجال التجاري » ،المجلة التارخية المغربية،02(1974)،ص ص .83- 88.

12- الباهي مبروك: القبيلة في تونس في العهد الحديث (ق16هـ-19م) من بداية بداوة الجمل إلى بداوة الخروف والحوز، السباسب الوسطى مثالا، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية،صفاقس،2005.

13- التميمي عبد الجليل:بحوث ووثائق في التاريخ المغاربي –الجزائر وتونس وليبيا -1816-1821منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني زغوان،1985.

14- إلتر سامح عزيز:الأتراك العثمانيون في شمال إفريقيا،ترجمة عبد السلام أدهم،دار الفرجاني، القاهرة طرابلس، لندن،1991.

15- الجمعية الناصرية للتنمية الثقافية والاجتماعية لخنقة سيدي ناجي في الذكرى المئوية الرابعة لنشأة خنقة سيدي ناجي 1602-2002م، بحوث في تاريخها وسكانها وترجمات للبعض من أعلامها، دار الهدى الجزائر، دت.

16- الحناشي محمد علي: الحياة الدينية والعلمية بمدينة الكاف خلال القرنين 18 و 19 ميلادي، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ ،جامعة تونس، 2004 -2005.

17- الحناشي العربي: الحنانشة وعلاقتهم بالسلطة في تونس من 1640-1740م،شهادة الكفاءة في البحث ،جامعة تونس الأولى،1987-1988.

18- الزبيري محمد العربي:التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة مابين 1792-1830م،المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

19- الشابي علي: «مصادر جديدة لدراسة تاريخ الشابية »، المجلـــة التاريخيـة المغربية،13 - 14، جانفي(1979)،ص ص. 54–81.

20- الشابي علي : « العلاقات بين الشابية والأتراك أواخر القرن 16م ونهاية القرن 17 م» ، المجلة التاريخية المغربية ،17- 18،(1980)،ص ص.69-89 .

21- الطيفي عادل:زاوية سيدي أحمد التليلي بفريانة تطور المؤسسة والعائلة مابين 1730-1959م،دكتوراه في التاريخ جامعة تونس الأولى ،2000-2001م.

22- الفخفاخ المنصف : موجز الدفاتر الإدارية والجبائية بالأرشيف الوطني التونسي، منشورات الأرشيف الوطني التونسي،تونس، 1990.

23- القشاعي -موساوي- فلة: النظام الضريبي بالريف القسنطيني أواخر العهد العثماني 1771-1837م،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث ،جامعة الجزائر،1989-1990 .

24- العوامر ابراهيم محمد الساسي: الصروف في تاريخ الصحراء وسوف،منشورات ثالثة، الأبيار، الجزائر 2007.

25- الماجري الأزهر:قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (في جدلية العلاقة بين المحلي والمركزي)،منشورات كلية الآداب والفنون الإنسانية، منوبة، 2005 .

26- بن السايح أحمد " أضواء على حياة محمد بن عزوز البرجي وأبرز مريديه "، الملتقى الأول للعلامة الشيخ محمد بن عزوز-طولقة-بسكرة ،زاوية الشيخ علي بن عمر،11-12 ربيع الأول 1418هـ المواقف لـ 16-17 جويلية 1997م.

27- بن حادة عبد الرحيم: العثمانيون المؤسسات والاقتصاد والثقافة،مطبعة النجاح الجديدة،الدار البيضاء 2008.

28- بن خروف عمار: العلاقات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية بين الجزائر والمغرب في القرن العاشر الهجري السادس عشر ميلادي، دار الأمل،الجزائر، د.ت. ج.2.

29- بالحميسي مولاي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني،ط2،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981.

30- بوجرة حسين: في الطاعون وبدع الطاعون أو الحراك الفكري والاجتماعي وقضايا التبدع والتحديث في مجال التعامل مع الطاعون بالبلاد التونسية وببلاد المغرب العربي بين منتصف القرن 14م وأواخر القرن 18م أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ ،جامعة تونس الأولى،2004 -2005.

31- بوعزيز يحي: مع تاريخ الجزائر في الملتقيات الوطنية والدولية،دارالبصائر للنشر والتوزيع،الجزائر2008.

32- كاستال بيار: حوز تبسة ،تعريب، العربي عقون، مطبعة بغيجة حسام، الجزائر،2010 .

33- جوليان شارل أندري: تاريخ افريقيا الشمالية،تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة،تونس،1975،ج2.

34- حسن حسني عبد الوهاب : خلاصة تاريخ تونس ،ط3،دار الكتب العربية الشرقية،تونس،1373هـ

35- حماش خليفة إبراهيم : العلاقات بين إيالة الجزائر والباب العالي من سنة 1798إلى 1830م،رسالة ماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر،كلية الآداب جامعة الإسكندرية ،1988م.

36- درياس يمينة: سكة الجزائر في العهد العثماني، دار الحضارة للطباعة والنشر،الجزائر ،2007.

37- زوزو عبد الحميد: الأوراس إبان الاستعمار الفرنسي التطورات السياسية الاقتصادية والاجتماعية 1837-1939م، ترجمة مسعود حاج مسعود، دار هومة،الجزائر،2005، ج1.

38- سامعي إسماعيل: أحمد بن يوسف التيفاشي حياته وأثاره، منشورات جمعية التاريخ والمعالم الأثرية لولاية قالمة،2009 م.

39- سعيدوني ناصر الدين : النظام المالي للجزائر في الفترة العثمانية (1800-1830م)،الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1979.

40- سعيدوني ناصر الدين: دراسات تاريخية في الملكية والوقف والجباية – الفترة الحديثة - دار الغرب الإسلامي بيروت ، 2001.

41- سعيدوني ناصر الدين: ورقات جزائرية، دراسة وأبحاث في تاريخ الجزائر –العهد العثماني-دار الغرب الإسلامي بيروت، 2000.

42- سعيدوني ناصر الدين والمهدي البوعبدلي : الجزائر في التاريخ – العهد العثماني-المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، 1984، ج.4.

43- سعيدوني ناصر الدين «الحياة الاقتصادية بعنابة أثناء العهد العثماني »،مجلة الأصالة،عدد خاص بمدينة عنابة34- 35، (1976)،ص ص.86 – 109.

44- سعيدوني ناصر الدين «الإنسان الأوراسي وبيئته الخاصة»، مجلة الأصالة،60-61،(197) ص ص.115 – 156.

45- سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي،دار الغرب الإسلامي،بيروت 1998، ج1،4.

46- سعد الله أبو القاسم: رائد التجديد الإسلامي محمد بن العنابي،ط2،دار الغرب الإسلامي،بيروت1990.

47- شدري معمر رشيدة: العلماء والسلطة العثمانية في الجزائر،فترة الدايات(1671م-1830)،مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث،كلية العلوم الانسانية والاجتماعية ،جامعة الجزائر،2005-2006.

48- فيلالي السايح: العلاقات السياسية الجزائرية التونسية 1800-1830م،دبلوم الدراسات المعمقة في التاريخ الحديث جامعة قسنطينة ،1982-1983.

49- فيلالي السايح: العلاقات السياسية الجزائرية التونسية 1792-1837م،أطروحة لنيل درجة الماجستير في التاريخ الحديث ،جامعة قسنطينة ،1997-1998.

50- فيلالي مختار: نشأة المرابطين والطرق الصوفية وأثرها في الجزائر خلال العهد العثماني،دار الفن للطباعة والنشر،باتنة،دت.

51- قشي فاطمة الزهراء : قسنطينة المدينة والمجتمع في المنتصف الأول من القرن 13هـ أواخر القرن 18م إلى منتصف القرن 19 م،رسالة دكتوراه في التاريخ ،جامعة تونس الأولى ،1998.

52- قشي فاطمة الزهراء : قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بلوس،قسنطينة،2005.

53- عباد صالح : الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830م، ط3، دار هومة ، الجزائر،2011.

54- علوش سهيلة، حصن الباستيون الفرنسي والسلطات المحلية في الجزائر العثمانية، مذكرة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث، جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية – قسنطينة –2005-2006

55- عميراوي احميدة: علاقات بايلك الشرق الجزائري بتونس أواخر العهد العثماني وبداية الاحتلال الفرنسي دار البعث، قسنطينة ،دت.

56- مروش المنور: دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخيل، دار القصبة للنشر الجزائر،2009، ج1.

57- مريوش وآخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني،منشورات المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954،الجزائر،2007.

58- معاشي جميلة : الأسر المحلية الحاكمة في بايلك الشرق من القرن 10هـ إلى 13هـ (16 -19م)، دراسة اجتماعية سياسية، مذكرة ماجستير في التاريخ ،جامعة قسنطينة 1990-1991م.

59- هنية عبد الحميد: تونس العثمانية بناء الدولة والمجال،منشورات تبر الزمان،تونس،2012.

60- هلال عمار: الطرق الصوفية ونشر الإسلام والثقافة العربية في غرب إفريقيا السمراء،الطباعة الشعبية للجيش، الجزائر،2007.

61- يوسفي صرهودة: معاملات ومبادلات اقتصادية في قسنطينة أواخر العهد العثماني،مذكرة مكملة لنيل شهادة الماجستير في التاريخ الحديث والمعاصر،جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الاسلامية ،2004-2005م.

ب – باللغة الفرنسية :

62- Alouani Salah ,*Tribus et Marabouts.A'rab et walàya dans l'intérieur de l'Ifriqiya entre le 6^{e}/12^{e} et le 12^{e}/18^{e}*,Academic Fernica, Finlande,2010.

63- Badjadja Abd el kerim , *Les anciennes tribus de l'Est Algérien(1867-1887)*.Mémoire de D .E.A en géographie .univ.de Constantine ,1974.

64- Babés Leila, *Tribus ,structures sociales et pouvoir politique dans la province de Constantine sous les Turcs* ,D.E.A.université de droit d'économie et des sciences d'Aix – en-province, France ,1981.

65- Babés Leila, *Mythes d'origine et structures tribales dans le Constantinois sous la domination Turque* ,Essai sur le fondement du pouvoir politique, Thèse pour le doctorat troisième cycle, université Aix –Marseille,1984.

66- Bachrouch Toufik, *Formation sociale barbaresque et pouvoir à Tunis au 18^{e} siècle*, Tunis,1977.

67- Berbrugger Adrien ., « Note relative à la révolte de Ben Sakhri »,*R.A*, 10 , (1866) ,pp.337-352.

68- Boukhobza M'hamed, *l'Agro pastoralisme traditionnel en Algérie, de l'ordre tribal au désordre colonial*, office des Publications Universitaires, Alger,1984.

69- Cambon Henri, *Histoire de la Régence de Tunis*, Berger-Levraut,Paris,1948

70- Carette et Warnier, *Description et division de l'Algérie*, de .L.Hachette, Paris,1847.

71- Chentouf Tayeb ,*Etudes d'histoire de l'Algérie (18e et 19e siècle*),office des publication universitaires, Alger,2004.
72- De Grammont Henri- Delmas ,*Histoire d'Alger sous la domination turque 1515-1830*,Bouchene, Paris,2002.
73- De la Primaudaie,Elie ,*Le commerce et la navigation de l'Algérie, avant la conquête française*, Paris, 1861.
74- De Tassy Laugier ,*Histoire du royaume d'Alger avec l'état présent de son gouvernement ,de ses forces de terre et de mer et de ses revenus ,police ,justice, politique et commerce* , Henri du Sauzet ,Paris.
75- Deport Octave et Copolani Xavier,*les confréries religieuses musulmanes*, Alger,1897.
76- Destry Stephen ,*Histoire d'Alger depuis les temps les plus reculés jusqu'à nos jours,* Paris,1845.
77- Carette Ernest, *Etude des routes suivies par les Arabes dans la partie méridionale de l'Algérie et de la Régence de Tunis* , imprimerie Royale, Paris,1844.
78- Emrit Marcel et Piquois Emil, *La Calle et son histoire* , syndicat d'initiative de la Calle,1951 .
79- Faucon Narcisse ,*La Tunisie avant et depuis l'occupation française histoire et colonisation* , Augustin Challamel ,Paris,1893, T1 .
80- Féraud Charles Louis .,« les Harar seigneurs des Hannencha » ,*R.A* ,18,(1874),pp.22-32 ,119-123,127-149,196-236,281-294.
81- Féraud Charles Louis .,« Corporations de Métiers à Constantine avant la conquête française », *R.A*, 16 ,(1872),pp.451-454.
82- Féraud Charles Laurent .,« Notes sur Tebessa », *R.A*, 18 ,(1874),pp.430 – 473.
83- Féraud Charles Laurent .,«Ain Beida», *R.A*, 16,(1872),pp.402- 419.
84- Féraud Charles Laurent .,« Notes historique sur les tribus de la province de Constantine »,*R.S.A.C* ,(1869) ,pp.20- 45.
85- Gaid Mouloud ,*Chronique des beys de Constantine* ,office des publications universitaires, Alger.(aprés1975).
86- Masqueray Emile.,« Djebel Chechar », *R.A*, 22 ,(1878).pp.26- 48, 127-144,127- 144- 213, 257- 281.
87- Mercier Ernest , *Histoire de Constantine* ,Merle, Constantine,1903.
88- Mercier Ernest , *Histoire de l'Afrique septentrionale(Berbéris) depuis les temps les plus reculés jusqu'à la conquête française (1830*), Ernest Leroux Paris,1868.
89- Mauroy.M, *Du commerce des peuples de l'Algérie septentrionale dans l'Antiquité ,le moyen âge et les temps modernes compare au commerce des Arabes de nos jours* ,imprimerie de Duverger, Paris,.1845.
90- Monchicourt Charles.,« La frontière algéro-tunisienne dans le Tell et dans la Steppe», *R.A*,82, (1938),pp.31- 59.
91- Monchicourt Charles, *La Région du Haut Tell en Tunisie (Kef, ,Téboursouk,Mactar,Thala),* Arnand Colin ,Paris.1918.

92- Murati .P .,« le maraboutisme ou la naissance d'une famille ethnique dans la région de Tebessa », *R.A*,80, (1937),pp.256 – 315 .
93- Noushi André, *Enquête sur le niveau de vie des populations rurales constantinoises de la conquête jusqu'en1919*,Essai d'histoire économique et sociale ,PUF/C.N.R.S ,Paris 1961.
94- Playfair .R.L .,« Visite au pays des Khomairs», *R.A*, 25 ,(1881) ,pp .48-64.
95- Pont Justin., « Etude historique sur les Amamra », *R.S.A.C*,(1868),pp.217-239.
96- Rinn Louis,*Marabouts et Khouans ,étude de l'islam en Algérie*, Adolphe Jordan, Alger,1884.
97- Rinn Louis,*Le royaume d'Alger sous le dernier dey*, grand Alger livres,Alger,2005.
98- Rozet et Carette,*l'Algérie l'univers ou histoire et description de tous les peuples de leurs religions ,mœurs, coutumes etc*., imprimer de l'institut, Paris,1850.
99- Saidouni Nacereddine,*L'Algérois rural a la fin de l'époque ottomane(1791-1830)* ,Dar Al –Gharb Al-islami, Berouth,2001.
100- Seltzer Paule,*Le climat de l'Algérie*, imprimerie la Typo-Litho, Normandie, Paris, 1946.
101- Temimi Abeldjelil ,*Le beylik de Constantine et Hadj Ahmed bey (1830 1837)*,Publications de la Revue d'Histoire Maghrébine, Tunis, 1978. vol.1.
102- Vaissiére.A .,« les Ouled- Rechach », *R.A*, 36 ,37 (1892) (1893),pp.207-243,5- 21.
103- Vayssettes Eugène ,*Histoire de Constantine sous la domination turque de 1517à1837*, Bouchene, Paris, 2006.

فهرس

المحتويات

فهرس المحتويات:

مقدمـــة: ..... أ

محاضرة تمهيدية :

الدولة العثمانية في المشرق: النشـــأة والتوســـع

1.من إمارة الرعاة إلى سلطة مركزية على التخوم في الأناضول :..... 1

2. الانتقال إلى منطقة الروملي: الفتح والاستيطان:..... 1

3.صعود ثم تدحرج أو ظهور أول دولة مركزية ثم انهيارها:..... 2

4. استجماع القوة من جديد:..... 3

5. من الدولة إلى الامبراطورية:..... 3

6. من موقعة جاليدران إلى القاهرة:..... 4

7. التحول إلى دولـــة عالميـــة:..... 5

المحورالأول:

الغزوالإيبيري للبلدان المغاربية

المحاضرة الأولى

الفتح الإسلامي لبلاد المغرب وتاريخية الأنظمة السياسية

1.أسلمة البحر المتوسط:..... 9

2.تقاليد الأرض والسلطة عند المجموعة الاسلامية في بلاد المغرب :..... 10

3. قاعدة لتكون الدول :..... 13

4.صورولوجيا المشرق والمغرب: 16

المحاضرة الثانية:

أوروبا بين الانقلاب الحضاري وأوجه الغزو لبلاد المغرب

1.من رحم المطبعة: 19

2.عقلنة التدين : 20

3. الجامعة لصناعة ثلاثية الكفاءة والخدمة والتغيير 21

4.العلم من الغاية المعرفية إلى الغاية الاستثمارية: 23

5. شبه الجزيرة الإيبيرية : 25

6.علاقة المغرب بالأندلس : 28

7.تآكل ساحل البلاد المغاربية: 29

المحور الثاني :

التطور السياسي للجزائر في العهد العثماني

المحاضـــرة الأولى:

انتصاب الحـــكم : المخـــاض

1.تشكيل الضلع الغربي على حساب الإرث الزياني : 52

2.تشكيل الضلع الشرقي على حساب الإرث الحفصي : 54

3.إدارة المقاطعات (نظام البايلك): 57

4. حدود سياسية بتوليفة جبائية (بين الجزائر وتونس انموذجا): 60

5.الثورات المحلية ضد الوجود العثماني (ثورة ابن الصخري نموذجا): 66

المحور الثالث :

العلاقات الدولية للجزائر في التاريخ الحديث

الفصل الأول :

علاقة الجزائر مع العالم الإسلامي

1.مع السلطة العثمانية: 74

2. مع مصر : 75

3.مع سلاطين المغرب: 76

4. مع تونس : 78

الفصل الثاني :

علاقة الجزائر مع العالم الأوروبي والأمريكي

1.مع اسبانيا: 85

2.مع فرنسا: 87

3. مع الولايات المتحدة الأمريكية: 90

4.مع دول أخرى (الدانمارك، البندقية، انجلترا) 92

المحور الرابع :

الدولـــــة والمجتمـــــع

الفصل الأول :

نظام الحكم، الاقتصاد، الأوقاف

1.نظام الحكم: 96

2.النظام المالي والضريبي: 97

3.النظام العقاري (الفلاحي) 99

4.الأوقـــاف: 103

الفصل الثاني:

التعليم، الزوايا، التنظيم الاجتماعي

1.التعليم : 106

2.الزوايا والطرق التصوف: 109

3.بنى المجتمع المديني : 111

4. بنى المجتمع الريفي: 113

خاتمة: 116

قائمة المصادروالمراجع 117

فهرس المحتويات 117